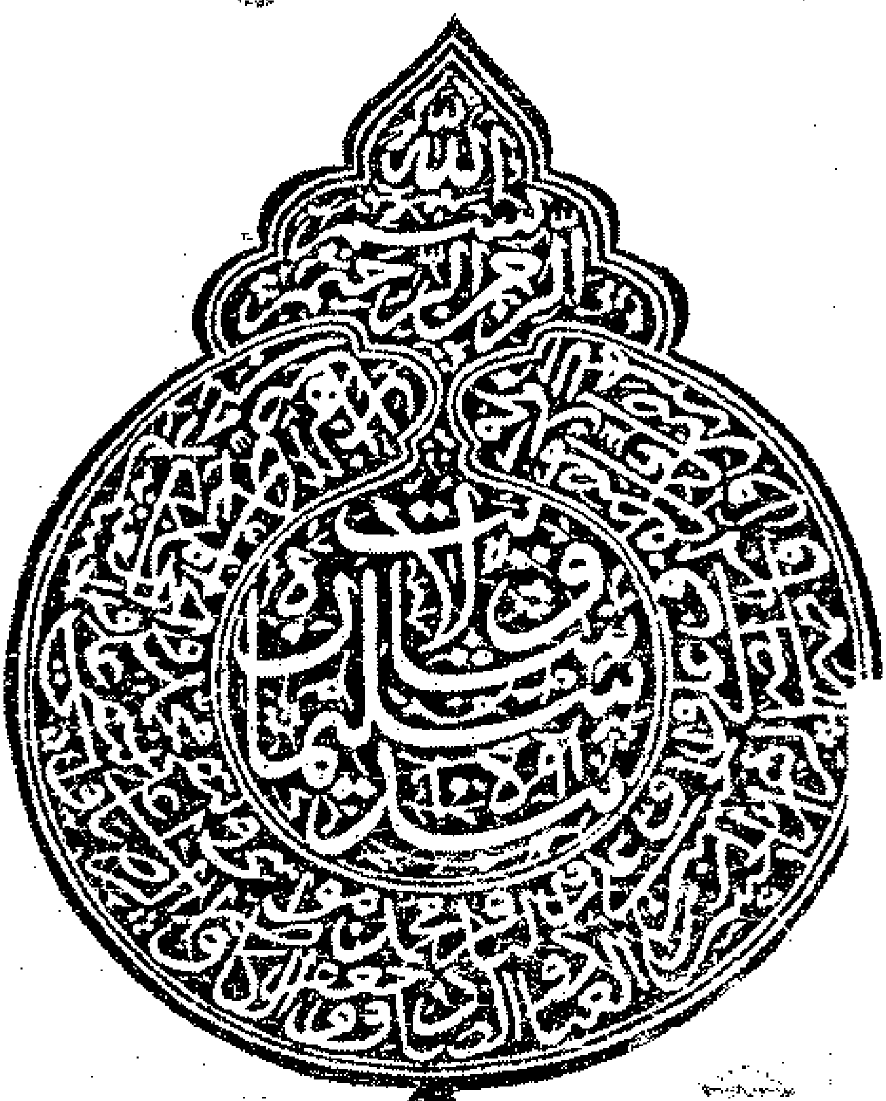
إيران وعلاقاتها الخارجية

في

العصر الصفوي



محمد فتحي يوسف الريس

دار الثقافة للطباعة والنشر
[illegible]
[illegible] القاهرة

إيران وعلاقاتها الخارجية

في

العصر الصفوي

٩٠٦ ـ ١١٤٨ هـ / ١٥٠٠ ـ ١٧٣٦ م

تأليف

نصر الله فلسفي

ترجمة وتقديم

محمد فتحي يوسف الريس

دكتوراه في الآداب من جامعة طهران

١٩٨٩

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـــديم

هذا الكتاب فى الاصل باللغة الفارسية بعنوان « سياست خارجى ايران در دوره‌ء صفويه » من تاليف الاستاذ نصر الله فلسفى • والمؤلف يعد من افضل الاساتذه المعاصرين الذين كتبوا عن العصر الصفوى فى ايران وقد اتاح له عمله كمستشار ثقافى لايران فى اسبانيا وايطاليا فرصة الاطلاع على ما تحويه مكتبات هاتين الدولتين من وثائق ومخطوطات وكتب استفاد منها فى تاليف هذا الكتاب •

وقد قمت بنقله الى اللغة العربية لما وجدته فيه من معلومات هامة تفتقر اليها المكتبة العربية عن هذه الفترة الخطيرة والهـامة فى تاريخ العالم الاسلامى وتصاعد الصراع المذهبى بين الشيعة والسنة بشكل لم يكن ظاهرا او معروفا قبل ظهور الصفويين الذين استعانوا بالاوربيين فى سبيل تحطيم الخلافة الاسلامية العثمانيـة ، فمهدوا وسهلوا للاستعمار الاوربى الاستيلاء على المشرق باسره بل واقتطاع مساحات كبيرة من اراضيهما •

وقد رايت ان اكتب مقدمة عن اصل الصفويين وكيفية وصولهم للحكم وما ارتكبه الشاه اسماعيل الصفوى من مذابح وحشية فى سبيل فرض المذهب الشيعى على اهل السنة فى ايران وما حولها ، نظرا لان عصره السياسى لم يرد فى الكتاب كغيره من ملوك الصفوية ، لعدم وجود علاقات بين ايران واوربا فى عهده •

وقد يعتب على البعض هذا التصوير الدامى لعصر الشاه اسماعيل الصفوى ، ولكننى اعتقد ان غالبية المؤرخين المعاصرين فى ايران

يذهبون معى هذا المذهب ، وقد يكتب بعضهم بنوع من التلميح خوفا من المتعصبين للمذهب ، ويذهب بعضهم للتصريح احقاقا للحقيقــة والتاريخ واستشهد هنا بقول الزميل الفاضل الدكتور ابراهيم باستانى باريزى الاستاذ فى جامعة طهران حيث يقول فى كتابه السياســة والاقتصاد فى العصر الصفوى ، « فى الحقيقة فان مظالم جيش الشاه اسماعيل وسلوكه المنحط تلوث القلم بالعار عند كتابتها ، فانهم بعـد ارتكاب المذابح كانوا يوزعون الزوجات على امراء القزلباشية » ٠

اما بقية العصر الصفوى فقد جاء ذكره بشكل أو آخر فى ثنايا الكتاب مما قد يسهل مهمة القارىء ، ولعل الفرصة تتاح لى لكتابة تاريخ مفصل لهذا العصر ان شاء الله ٠

وقد اضفت للكتاب بعض الحواشى والشروح ، كما اضفت اليه ايضا بعض الخرائط والصور وهو ما ليس فى الكتاب الاصلى ٠

ارجو أن اكون قد اديت خدمة للمكتبة العربية والمهتمين بالتاريخ الحديث ، كما اعتذر عن اى تقصير قد يلمسه القارىء فى هذا الكتاب وبالله التوفيـق ٠

القاهرة فى رمضان ١٤٠٩ — دكتور محمد فتحى يوسف الريس

ابريل ١٩٨٩ — دكتوراه فى الادب الفارسى

من جامعة طهران

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة المترجم

الصفويون

أصلهم :

ينسب الصفويون الى الشيخ صفى الدين اسحق الارديبلى (٦٥٠ ــ ٧٣٥ هـ) وكان شيخا لطريقة صوفية وله زاوية فى مدينة اردبيل (١) . وتجمع كل المصادر المعاصرة له او اللاحقة به حتى قيام الدولة الصفوية سنة ٩٠٦ هـ على أنه كان شافعى المذهب ولم تشر من قريب أو بعيد الى انتسابه لاهل البيت (٢) . ولكن الكتب والمصادر التى دونت فى عهد الشاه اسماعيل الصفوى مؤسس الدولة ، او تلك التى كتبت بعده ، اضفت عليه واخترعت له نسبا أو صله للامام موسى الكاظم الامام السابع للشيعة الجعفرية أى الى الحسين بن على بن أبى طالب وذلك لكى يصير له ولاسرته وخلفائه من بعده الحق أو الشرعية فى اعتلاء العرش وتوارثه ، ويستندوا الى النسب العلوى فى ادعاء الملك والسيطرة على الحكم .

ويعتز الايرانيون بالدولة الصفوية أيما اعتزاز ، ويصورونها على انها الدولة التى حققت حلمهم فى الوحدة والسيادة والقومية ، وانها أول دوله ايرانية تحكم بلادهم بعد استعمار طويل أو حكم اجنبى مستمر منذ الفتح العربى لايران ثم تبعه حكم الغزنويين والسلاجقة والمغول والتتار (٣) ، واستثنوا حكم الدويلات الصفارية والسامانية والبويهية التى كان مؤسسوها من أصول ايرانية كما يدعون ويزعمون .

---

(١) تقع فى اقليم اذربيجان الايرانية جنوب غرب بحر قزوين
(٢) زندكانى شاه عباس المقدمة ص ط
(٣) نفس المرجع ص ب وعالم اراى صفوى المقدمة ص ١٧ .

واذا أردنا مناقشة هذا الزعم وتحليل هذا الرأى وجدناه لايخرج عن أحد تفسيرين ٠

أولهمـا ـ اننا اذا اخذنا بالقـول أن الصـفويين ينتسـبون الى موسى الكاظم أى الى اهل البيت فاننا بهذا نرجع نسبهم واصلهم الى أعرق القبائل العربية وهى قريش وتصير عروبة الصفويين أمـرا لا شك فيه ولا مراء ، طالت اقامتهم فى ايران أم قصرت ، ويصير حكمهم لإيران استمرارا أو عودة لحكم العرب لايران ، وهو استمرار للحكم الاجنبى كما يصورون حكم الغزنويين والسلاجقة وغيرهم من المسلمين الذين وصلوا الى حكم هذه المنطقة ٠

ثانيهما ، اننا اذا قلنا انهم لا ينتسبون الى الامام موسى الكاظم أو لا ينتمون اليه والى اهل البيت وهو ما تتجه الدراسات الحديثة الى القول به ، أصبح لزاما علينا أن نبحث عن أصلهم ونسبهم (*) ٠

من الجلى الواضح أن الصفويين لم ينتسبوا الى اهل البيت الا بعد أن وصلوا الى الحكم ، فلم يشر أى كتاب قبل توليهم السلطة الى انتسابهم الى الحسين بن على سوى كتاب صفوة الصفوة لابن البزاز والذى الف فى عهد الشيخ صدر الدين بن صفى الدين ، وقد حدثت فى مخطوطات هذا الكتاب تغييرات كثيرة تجعله عرضة للشك ٠

ويؤيد عدم انتسابهم الى اهل البيت ما كتبه رشيد الدين فضل الله الوزير المشهور لغازان خان المغولى ثم لخليفته او لجايتو فى رسـالته لابنه أحمد حاكم اردبيل حيث يوصيه بالشيخ صفى الدين الاردبيلى ، وليس بها ما يشير الى انتساب صفى الدين الى اهل البيت وان كان

---

* تفس المرجع المقدمة ص ط وهامش ص ٤ ٠

(*) الف احمد كروى كتابا يثبت فيه عدم انتساب الصفويين لال البيت وللاسف لم يصل لايدينا ٠

يذكر علو منزلته في الدين والتصوف حيث يقول « جناب قطب فلك الحقيقة سباح بحر الحقيقة ، مساح مضمار الطريقة ، شيخ الاسلام والمسلمين ، برهان الواصلين ، قدوة الاصفياء ، زهرة دوحة الوفاء ، الشيخ صفي الملة والدين ، أدام الله تعالى بركات انفاسه الشريفة »٠

وهذه العناوين والالقاب كانت مما يخاطب به كبار رجال اهل السنة وعلماؤها واقطاب الصوفية وفحولها ولو كان الشيخ صفي الدين من اهل البيت لما اغفل هذا الوزير الفاضل الاشارة الى ذلك والاشادة به ، كما انه لو كان شيعيا لما نعته بشيخ الاسلام ، ولقال آية الله أو حجة الله أو غيرها من القاب رجال الدين الشيعة ٠

ويقول صاحب كتاب حياة الشاه عباس الاول « من المسلم به — كما يتضح من كتب التاريخ في زمن الشاه صفي وأجداد الشاه اسماعيل — أن هذه الاسرة منذ عصر الشيخ صفي (٦٥٠ — ٧٣٥ هـ) الذي كانت فيه العناصر التركية والفارسية في اذربيجان مشخصة متمايزة ، كانت من الاسر المحلية الايرانية ، وانه كان يتكلم الاذرية (أي اللغة التركية المحلية في اذربيجان) كما تعلم التركية والمغولية في الكتاب»(٥)

واذا كان صاحب كتاب حياة الشاه عباس يرى أنهم من العناصر الايرانية أو الفارسية فان مؤلف عالم آراي صفوي — المجهول — يذكر أن صفي الدين كان تركيا ، فحين تحدث عن أول لقاء جرى بين صفي الدين الاردبيلي وشيخه الزاهد الجيلاني (٦) ، يقول :

« كان من عادة الشيخ أن يعتكف في خلوته في شهر رمضان لا يقابل أحدا ، ولكنه في أحد الاعوام أدرك بعلم هدايته أن صفي الدين

---

(٥) زندكاني شاه عباس اول جـ ١ ص ط (الهامش) .

(٦) هو الشيخ الزاهد ابراهيم الجيلاني وكان قد تولى الطريقة عن الشيخ جمال الدين عن الشيخ شهاب الدين محمود الاهري والتي تنتهي الى الشيخ جنيد البغدادي الى معروف الكرخي .

وصل الى زاويته ، فخرج الى ابنه جمال الدين على وقال له اذهب الى المكان الفلانى فى الزاوية وستجد شابا تركيا فى مقتبل العمر بهذه الملابس والعلامات (التى ذكرها الشيخ لابنه) وهو قائم يصلى هناك ، وعندما ينتهى من صلاته ويسلم قل له ان ابى الشيخ الزاهد يطلبك»(٧) ٠

ثم يكمل قصة هذا اللقاء فيقول « فلما انتهى الشيخ الزاهد من اعتكافه ، رأى المريدون شيخهم يخرج من خلوته وقد وضع يده فى يد شاب تركى » (٨) ٠

ونلاحظ ان مؤلف الكتاب نعت صفى الدين بانه « شاب تركى » ولم يقل سيدا او شريفا أى من أهل البيت ، كما لم يقل انه فارسى أو من جنس اخر بل قال صراحه انه « تركى » ٠

ولهذا نرى ان القول بانتساب الصفويين الى اهل البيت ليس صحيحا لان ادعاء هذا النسب بعد وصولهم الى السلطة كان ذريعة لتثبيت ملكهم واضفاء الشرعية على حكمهم حتى لا ينازعهم فيه منازع ، ولكى يظهروا للناس انهم احق بتولى السلطة من ابناء جنسهم العثمانيين الذين اقاموا لهم دولة فى اسيا الصغرى ثم تلقبوا بالقاب خلافة المسلمين بعد اخذها من خلفاء العباسيين فى مصر (٩) ٠

ونحن لا نرجح ان الصفويين كانوا من العناصر الفارسية التى كانت تعيش فى اذربيجان كما ذهب مؤلف كتاب حياة الشاه عباس ، لانهم لو كانوا كذلك ما حولوا ايران فى عصرهم الى دولة كل ما فيها تركى او للعناصر التركية حتى ضاع فيها الفرس واصبحوا غرباء فى وطنهم، وهو ما سيتضح من هذه الدراسة ٠

وقد عاد صاحب كتاب حياة الشاه عباس الاول فى موضع اخر فقال « يبدو ان الشاه طهماسب كان أول ملك من الاسرة الصفوية يدعى النسب لاهل البيت اذا أوصل نسب جده الشيخ صفى الدين الاردبيلى

---

(٧) عالم اراى صفوى ص ١١ ٠

(٨) عالم اراى صفوى ص ١٢ ٠

الى الامام موسى الكاظم ، واطلق على نفسه لقب طهماسب الصفوى الحسينى الموسوى ، تبعه الملوك الذين جاءوا بعده ومنهم الشاه عباس الذى كان يعد نفسه من أولاد على بن ابى طالب ، ولكن يتضح من كتب التواريخ المعاصرة أن هذا النسب لا يقوم على أساس صحيح فقسه ثبت من الابحاث الحديثة ان فيروز شاه جد الشيخ صفى الدين السابع جساء من كردستان الى اذربيجان فى حوالى سنة ٥٦٩ هـ ، وأن اجداد الصفوية ايرانيون أصلا » (١٠) .

ولعل قوله « ايرانيون اصلا » لا تعنى تحديد جنسهم ، لان المقصود بهذا هو تحديد الوطن لا تعيين الجنس ، فهو يعنى أنهم كانوا يعيشون فى ايران او يحملون جنسيتها ، وأن المؤلف لو أراد تحديد جنس الصفويين لقسال « ان اجـداد الصفويين فرس أصلا » ، أو من اصل فارسى لان المقابل لتركى هو فارسى وليس ايرانى لان ايران كانت كانت ومازالت موطنا لعدة اجناس من اهمها الفرس والترك والعرب والاكراد وغيرهم وهذا هو الاصطلاح الذى تستعمله ادارات وكتب الاحصاء حاليا فى ايران .

ولهذا فنحن نرجح ما ذهب اليه صاحب كتاب عالم آراى صفوى من ان صفى الدين الاردبيلى كان تركيا ، وبالتالى فان أحفـاده الذين اقاموا الدولة الصفوية كانوا اتراكا ، ولا صحة لـما زعموه من نسب الى أهل البيت ، كما انهم لم يكونوا من الفرس او الجنس الفارسى الذى يعتز بفارسيته وبلغته ، فى حين أننا نرى ملوك الصفويين كانوا يتكلمون التركية بل ان بعضهم نظم الشعر باللغة التركية ، كما كانت التركية لغة بلاطهم ودواوينهم ، وما فعلوه بايران وبالفرس لا يقبل فارسى أن يفعله بوطنه ومواطنيه (١١) .

---

(٩) يعقوب بن الليث الصفار ص ٢٨ .

(١٠) زندكانى شاه عباس ص ٣ .

(١١) انظر كتاب « سياست واقتصاد در عصر صفوى » الدكتور ابراهيم باستانى باريزى .

وصولهم الى السلطان

مقدمة النفوذ :

كان الشيخ صفي الدين اسحق الاردبيلي رجلا زاهد اشد الزهد حتى انه كان يصوم اسبوعا كاملا لايتناول فيه الا وجبة واحدة من الطعام ، فلما منعه شيخه ـ وحموه فيما بعد ـ الشيخ الزاهد الجيلاني من هذا ، كان يكتفي بلقمة من الارز في اليوم ، ولم يكن ياكل اللحوم او الدســـوم (١) ٠

ظل صفي الدين يلازم هذا الشيخ بعض الوقت ثم زادت الصلة بينهما وتوثقت بزواج الشيخ صفي من فاطمة ابنة شيخه ومرشده ٠ وحين أحس الشيخ الزاهد الجيلاني بدنو اجله ، اوصى بأن يحل صفي الدين محله في رئاسة الطريقة التي كان يتوارثها عن الجنيد البغدادي عن السري السقطي عن معروف الكرخي (٢) ، وحرم ابنه الذي كان يدعى جمال الدين من تولي هذا المنصب ٠ وهذا انتقلت لصفي الدين رئاسة هذه الجماعة الدينية الكبيرة ، ومشيخة هذه الطريقة الصوفية التي كان لها كثير من الاتباع والمريدين في جيلان واذربيجان يقـــال أن عددهم كان مائة الف مريد ، منهم اثنا عشر الفا في حضرة الشيخ، وكان له أربعمائة خليفة يتولون ارشاد هذه الجماعة والاشـــراف على شئونها (٣) ٠

كانت هذه هي الخطوة الاولى على طريق الزعامة الدينية والسلطة الدنيوية التي تولاها الصفويون بعد ذلك واصبحت وراثة فيهم ٠

---

(١) عالم اراى عباسي ص ١٣ ٠
(٢) نفس المرجع والصفحة ٠
(٣) عالم اراى صفوى المقدمة ص ١١ ٠

المال والاتباع :

بعد وفاة الشيخ صفي الدين اسحق ، خلفه ابنه صدر الدين موسى الذي استمر في رعاية الاتباع والمريدين والعمل على استمرار هذه الطريقة ، فلما توفي بعده ابنه علي بن صدر الدين موسى الذي ينسبون اليه ــ كما ينسبون لبقية ملوك هذه الاسرة تقريبا ــ الكثير من الكرامات خاصة مع تيمور جوركان « لنك » الذي كان يعتقد في هذا الشيخ اعتقادا كبيرا ، من ذلك ما يروونه من أن تيمور اثناء عودته منتصرا من حربه ضد ايلدرم (٤) بايزيد السلطان العثماني قرب انقوريه (انقره) (٥) ، مر بارديبل وطلب من الشيخ علي سياه بوش (٦) أن يتمنى اي شيء فطلب منه الشيخ على أن يطلق سراح الاسرى الروم (العثمانيين) الذين كانوا معه ، فامر تيمور على الفور باطلاق سراح هؤلاء الاسرى والسبايا ، ولم يكتف بهذا بل اشترى تيمور ما حول اردبيل من مزارع وضياع من خلال ماله واوقفها على زوايا الصفويين وتكاياهم في اردبيل ، كما منح خراج تلك البلاد لهذه الاسرة وخصصها لهم ٠

وكان تيمور اثناء عودته من حروبه في آسيا الصغرى قد حمل معه ما لا يعد ولا يحصى من الاسرى اغلبهم من رؤساء ورجال عشائر تركية هي روملو ــ شاملو ــ قاجار ــ استاجلو ــ افشار ــ بيات ــ ذو القدر ــ تكلو ــ ورساق ؟ وانضم الى هذه العشائر والقبائل التسع فيما بعد صوفية قراباغ ٠ فلما التقى تيمور بالشيخ علي بن صدر

---

(٤) ايلدرم يعني الصاعقة ٠

(٥) كانت هذه الموقعة في سهل شوبوق بجوار انقرة يوم الجمعة اول محرم ٨٠٥ هـ (أول اغسطس سنة ١٤٠٤ م) وفي رواية أخرى في ١٩ ذي الحجة سنة ٨٠٤ هـ (٢٠ يوليو ١٤٠٢ م) ٠

(٦) سياه بوش يعني لابس السواد (توفي ٨٣٠ هـ ١٤٢٦ م) ٠

(٧) عالم اراي عباسي ص ١٦ وعالم اراي صفوي ص ٢٦ ٠

الدين موسى المشهور بصلى سياه بوش فى زوايته فى اردبيل قال له الشيخ « ان أغلب هؤلاء الاسرى من خاصتى والمريدين لى مثلك فان أبقيتهم فى ذل الاسر فلن يرضى عنك الله وسوف تطرد من رحابه».

فسأله تيمور وكيف أميز بين هؤلاء لاعرف من هو من مريديك ومن ليس منهم فى هذا العدد الكبير من الاسرى ؟ » .

اجابة الشيخ قائلا « ان كل مريد من اتباعى قد خاط على عمامته قطعة من القماش الاحمر ، فمر رجالك كى يخرجوهم من بين الاسرى ويتركوهم فى زاويتى » .

وقد تم هذا ، واطلق سراح الاسرى من مريدى الصفوية وأصبح هؤلاء الاسرى من بلاد الروم والشام بعد قرن من الزمان أمراء وملوكا على عرش كسرى وانوشيروان (٨) .

وهكذا اجتمعت لهذه الاسرة كل مقومات الرئاسة والزعامة دون مشقة ، اذ انتقلت الى صفى الدين رئاسة جماعة دينية كبيرة دون أن يشقى فى تكوينها او يتعب فى انشائها ، ثم منح تيمور لحفيده الشيخ على أعدادا كبيرة من الاسرى الاتراك أصبحوا من مريدى هذه الاسرة واتباعها المخلصين وكونوا قوتها الضاربة — كما سنرى — بل أصبحوا عصب الحركة الصفوية كلها وعرفوا باسم « القزلباشية » (٩)، وبلغت بعض هذه القبائل من القوة والنفوذ ما جعلها تجلس على عرش ايران بعد زوال الدولة الصفوية نفسها مثل الافشار والزند والقاجر الذين قضى عليهم رضا شاه بهلوى سنة ١٩٢٥ م .

وقد سبق أن ذكرنا أن تيمور منح هذه الاسرة المورد المالى

---

(٨) سياست واقتصاد ص ١١ و ١٢ .

(٩) قزلباش أى لابس العمامة الحمراء وهى التى أصبحت رمز الصفوية .

الذى كانوا ينفقون منه على دعوتهم وحركتهم ، اذ اوقف أردبيل وما حولها عليهم ، كما أعفاهم من خراجها ، بل وجعل كل من يلتجىء الى زاويتهم أو حمايتهم فى أمان حتى ولو كان من أعتى الجناة أو أخطر الاشقياء (١٠) ٠

مصاهرة الملوك ٠

بعد وفاة الشيخ على بن صدر الدين موسى تولى ابنه جنيد زعامة الطائفة وحمل لقب « سلطان » وأخذ فى نشر الدعوة مستغلا الاموال الطائلة والمريدين الذين وهبهم تيمور لابيه فلما علم ميرزا جهانشاه السلجوقى ملك ايران انذاك بما بلغته هذه الدعوة من قوة ونفوذ واتجاه للتوسع ، ارسل الى السلطان جنيد رسالة أمره فيها بابعاد الناس والمريدين الذين يلتفون حوله أو فى حضرته ، والعيش فى سلام وأمان والا يفكر فى الملك ، والا فان القضاء عليه يصبح امرا واجبا ٠

رد عليه السلطان جنيد قائلا « نحن لا شأن لنا بالملك ، واننا مشغولون بالعبادة ، وأما قضاء الله فلا راد له » ٠ واستمر السلطان جنيد فى دعوته ، فأرسل اليه ميرزا جهانشاه رسالة ثانية قال له فيها « يبدو انك لم ترتدع ، وعليك مغادرة مملكتى والا اتيت الى أردبيل وهدمتها عليك وعلى اتباعك ، وأعملت فيكم السيف » ٠

عندئذ جمع السلطان جنيد اتباعه وغادروا أردبيل الى ديار بكر التى كان يحكمها انذاك حسن بك اق قويون لو (١١) الذى كان من مريديه ٠ وقد استقبله حسن بك أحسن استقبال واستضافه ومن معه من المريدين والاتباع ثلاثة أعوام ، كما زوجه من أخته خليمة سلطان ،

---

(١٠) سياست واقتصاد ص ١٠ وعالم اراى صفوى ص ٢٥
(١١) حسن بك بن على بن قرا عثمان اق قويون لو التركمانى واق قويون لو تعنى أصحاب الخراف البيضاء ٠

وقد أدت هذه المصاهرة الى أن يحمل أبناء جنيد وأحفاده لقب ميرزا أى أمـير ٠

بعد هذه المصاهرة عاد السلطان جنيد ثانية الى مقره فى أردبيل، فلما بلغ خبر عودته الى ميرزا جهان شاه السلجوقى أمر بجمع الجيش والاستعداد لمحاربة السلطان جنيد ، فما كان من السلطان جنيد الا أن جمع رجاله واتباعه من الصوفية وكانوا نحو عشرين ألفا وتوجه بهم الى شيروان (*) للجهاد ومحاربة الكفار ، وقتل السلطان جنيد فى هذه الحرب وحمل مريدوه نعشه الى اردبيل حيث دفنوه هناك الى جوار جده صفى الدين الاردبيلى ، ثم اجلسوا ابنه حيدر على أريكة الارشاد مكان أبيه ٠

لم يسكت حسن بك اق قويونلو على مقتل صهره فخرج للثأر له ممن دفعه للخروج من موطنه فى اردبيل ، فتوجه الى تبريز وأسر ميرزا جهانشاه السلجوقى ، وضم هذا الجزء من ايران الى ملكه وجلس على العرش فى تبريز مما زاد من شوكة حيدر ميرزا وقوته لان خاله (حسن بك) وهبه أردبيل مرة اخرى كما زوجه من ابنته « عالم شاه بيكم » (١٢) وكان حيدر ميرزا ابن أميرة فصار زوج أميرة أيضا ٠

زواج لـه ما بعده :

كان السلطان حسن بك اق قويونلو متزوجا من مسيحية اسمها « تيودورا » ، أبوها يدعى « كالو جوهانس » وهو شقيق ديفيد كومنينوس امبراطور طرابزون الارمنى انذاك ، وقد عرفت باسم « دسبينا خاتون » ،

---

(١٢) بيكم للسيدات تعادل لقب بك للرجال وهى تكتب حاليا بالعربية بيجوم واسمها يعنى ملكة العالم ٠

(*) اقليم شيروان يقع غرب بحر قزوين حول مدينة باكو السوفيتية حاليا (انظر الخريطة) ٠

وكانت اختها متزوجة من « كاترينو زينو » سفير دولة البندقية ومبعوثها لدى السلطان يعقوب بن حسن بك أق قويونلو ، وقد انجبت تلك السيدة (تيودورا) بنتا من السلطان حسن كان اسمها المسيحى « مارتا » أما اسمها بعد زواجها من حيدر ميرزا فهو حليمه بيكم اغا واشتهرت باسم « عالم شاه بيكم » ، وقد انجبت من حيدر ميرزا ثلاثة اولادهم على ميرزا ، وابراهيم ميرزا ، واسماعيل ميرزا ٠

وسنرى فيما بعد تاثير هذا الزواج المسيحى على الدين الاسلامى فى ايران واختيار المذهب الشيعى الذى أعلنه الشاه اسماعيل الصفوى منذ اعتلائه عرش ايران ٠ وفى ضوء هذه المصاهرة ستتمكن من تفسير التقارب الشديد الذى حدث بين الصفوية والدول المسيحية سواء روسيا القيصرية او اوربا وتحالفهم ضد الدولة العثمانية السنية التى اخذت على عاتقها الدفاع عن الاسلام والدول الاسلامية انذاك ، وأدى هذا التقارب والتحالف الى اضعاف الدولة العثمانية وانهاك قواها فى حروب ضارية مع الصفويين من ناحية الشرق ، ومع الأوربيين من الغرب حتى انهارت الدولة العثمانية واقتطعت اقطارها الاسلامية ليستولى عليها الغرب المسيحى ويقسمها بينه الى مستعمرات ظل يحكمها نحو مائه عام او اكثر بينما ادى انهيار ايران نفسها الى اقتطاع أجزاء كبيرة منها استولى عليها الروس وضموها الى بلادهم ، وضياع بلاد المسلمين فى وسط آسيا مثل اوزبكستان والتركستان وتاجيكستان وقرغيزيا التى استولى عليها الروس أيضا ٠

السلطان حيدر أول قزلباش

بعد أن تولى حيدر ميرزا رئاسة هذه الجماعة الصوفية الكبيرة واخذ فى رعايتها وتقويتها ومد نفوذها رأى أن يميزها عن غيرها من الجماعات الدينية فادعى ان الامام على بن ابى طالب جاءه فى المنام وصنع له عمامة من الصوف الأحمر بها اثنتا عشرة ثنية طولية تشير

الى ائمة الشيعة الاثنى عشر (١٢) ، فكان يطلق على لابسها « قزل باش » اى لابس العمامة الحمراء ، ووهب السلطان حيدر عمامة من هذه العمائم لكل واحد من اتباعة ومريديه او طلب منه عملها ولبسها ، وبهذا تميزت هذه الجماعة او الفرقة الصوفية بهذا الزى المميز ، كما اعلانا عن قيام هذه الجماعة واعتزازها بنفسها وقوتها كجماعة مستقلة. وقد وافق حموه ــ حسن بك آق قوينلو على هذا الاستقلال والانفراد بلبس عمامه مميزه للجماعة تميزها عن سائر الناس فلم توفى حسن بك وخلفه ابنه السلطان يعقوب منع الناس من لبس هذه العمائم الحمراء وتوعده من يلبوسنها بأشد العقاب ، ولم يجد حيدر ميرزا ميرزا مفرا من ترك اردبيل والخروج بدعوى الجهاد فى سبيل الله ونشر الاسلام فى ديار الكفار من ناحية والثأر لمقتل أبيه السلطان جنيد الذى قتله ملك شيروان فى الغزوه التى كان قد قام بها على تلك البلاد من ناحية اخرى ، وقد سارع السلطان يعقوب (١٤) ــ شقيق زوجة حيدر ميرزا ــ بابلاغ شيروان شاه بخروج السلطان حيدر اليه ، ولم يكتف بهذا بل ارسل جيشا لمساعدة شيروانشاه فى القضاء على السلطان حيدر لتخوفه منه ومن اطماعه فى الملك • وقد انتهت هذه المعركة بقتل السلطان حيدر ــ كما قتل ابوه من قبل ــ فى الحرب ضد شيروا نشاه •

الصراع من اجل العرش

جرت أحداث كثيرة ومتشابكة بعد قتل حيدر ميرزا فى حربه ضد السلطان خليل ملك شيروان (ارمينيا) واضطربت اوضاع هذه المنطقة

---

(١٢) ائمة الشيعة الجعفرية الاثنى عشرية هم : ١ ــ على بن أبى طالب ٢ ــ الحسن ٣ ــ الحسين ٤ ــ على زين العابدين ٥ ــ محمد الباقر ٦ ــ جعفر الصادق ٧ ــ موسى الكاظم ٨ ــ على الرضا ٩ ــ محمد التقى ١٠ ــ على النقى ١١ ــ حسن العسكرى ١٢ ــ محمد المهدى المنتظر •

(١٤) السلطان يعقوب بن حسن اق قويونلو كان متزوجا من شقيقة ملك شيروان الارمنى كما أن السلطان حيدر كان متزوجا من شقيقة السلطان يعقوب •

من ايران اضطرابا شديدا ، وتوالى جلوس الملوك وعزلهم اوقتلهم . فبعد السلطان يعقوب جلس ابنه بايسنقر على العرش ، وبعد عامين اجلس الامراء عمه مسيح ميرزا بن حسن بك ثم قتل مسيح ميرزا ، وطالب رستم بك بن مقصود بك بالملك وجلس على عرش الاق قيونلو ، ولكن وزيرهم وقائدهم « ايبه سلطان » خرج عن طاعتهم وقتل ، وتولى الملك محمد ميرزا والوند ميرزا ابنا يوسف بن حسن بك . كل هذا في سنوات قليلة مما يدل على اختلال الامن وانهيار الاستقرار وانتشار الفوضى في كل شئون الحياة تقريبا (١٥) ، واضطراب الاوضاع الاقتصادية واحوال الناس تبعا لذلك .

كان السلطان يعقوب بك اق قويونلو قد قبض على اولاد السلطان حيدر وهم علي وابراهيم واسماعيل ونفاهم في قلعة اصطخر فارس سنة ٨٩٦ هـ حيث ظلوا بها اربع سنوات ونصف الى ان استدعاهم السلطان رستم بن مقصود بك ليجهزهم مع اتباعهم لحرب بايسنقر بن يعقوب (ابن خالهم) الذى كان قد التجأ لخاله وصهره شيروانشاه بن خليل ملك ارمينيا ، واستعان به ليسترد ملكه في ايران . فلما حقق علي ميرزا بن حيدر الصفوى النصر للسلطان رستم انقلب عليه وعلى اخوته واراد قتلهم ، ولكنهم فروا من تبريز الى اردبيل ، فارسل فرقة من جيشه تتعقبهم وقد استطاعت قتل علي ميرزا ، وتمكن ابراهيم واسماعيل من الهرب مع سبعة من قادتهم والمقربين اليهم والتجأوا الى حاكم جيلان الذى خبأهم عنده بضع سنين (١٦) .

كانت الجواسيس تبلغ رستم بك بن مقصود بك بوجودهما عند

---

(١٥) سياست واقتصاد ص ١٩ وللتفصيل يرجع لحبيب السير ج ٤ ص ٤٣٩ .

(١٦) كان يلقب كاركيا وورد اسمه « اميره كيا » في كتاب عالم اراى صفوى .

حاكم جيلان فكان يرسل في طلبهما منه ، ولكن حاكم جيلان كان ينكر وجودهما عنده رغم التهديد والوعيد حتى اوشك على تسليمهما خوفا على حياته وعلى ولايته ٠

ولا بأس من أن نذكر هنا هذه القصة الطريفة التي ترويها كتب التاريخ الصفوى عن كرامات هذه الاسرة وخلاصتها أن الامام على بن ابى طالب جاء الى حاكم جيلان في النوم وقال له « بعد عشرة ايام اطلب مبعوث رستم بك الذى جاءك للبحث عنهما وقل له لقد ارسل السلطان رستم بك كثيرا من رجاله للبحث عن أولاد السلطان حيدر وقد جابوا الولاية قرية قرية وبيتا بيتا ولم يجدوهما ، واذا لم تصدقنى فانني مستعد للقسم على انهما ليسا على ارض جيلان » ثم قال الامام على لحاكم جيلان « عليك ان تربط حبلا بين شجرتين كبيرتين تعلق فيه قفة كبيرة (زنبيلا) وتضع فيها الغلامين (ابراهيم واسماعيل) وعندما يحضر المبعوث ضع يدك على المصحف واقسم على أنهما ليسا على أرض جيلان » (١٧) ونعتقد أن الامام على لا يعلم الناس الكذب او التحايل ٠

وقد ظل اسماعيل ميرزا لدى حاكم جيلان حتى بلغ الثانية عشرة ثم أراد العوده الى اردبيل ولكن الحاكم طلب منه أن يبقى عامين اخرين حتى يبلغ ، فقبل اسماعيل ميرزا هذا العرض ، ولكن في ذلك الوقت بلغهم نبأ موت رستم بك ففرحوا كثيرا ، وقال اسماعيل ميرزا « الان حان وقت خروجى » (١٨) ٠ وكان اسماعيل الصفوى عندما التجأ الى حاكم جيلان واختبأ عنده في السابعة من العمر ومع هذا كانوا يلقبونه

---

(١٧) عالم ارای صفوی ص ٤٤ ٠

(١٨) لا ريب أن غلاما في الثانية عشرة من عمره لم يكن يتحرك من تلقاء نفسه ، ولكن القواد والمريدين هم الذين كانوا يحركونه ويخططون له وقد نجحوا في تحقيق مآربهم ٠

بالملك والمرشد الكامل (١٩) ٠

الجلوس علي العرش :

غادر اسماعيل بن حيدر الصفوى واخوه ابراهيم ومرافقوهما الذين يقال انهم كانوا سبعة من كبار المريدين في ولاية جيلان وتوجهوا الى اردبيل فاجتمع حولهم اثناء الطريق ثلاثة الاف من قدامى المريدين دخل بهم مدينة أردبيل وحاصر بيت الحاكم ثم احضره امامه ووعده بتعيينه قائدا لجيشه بشرط أن يتشهد بشهادة التشيع وهى « اشهد ان لا اله الا الله ، وان محمدا رسول الله ، وان عليا ولى الله » ولكن الوالى السنى رفض قبول التشيع فأمر باحضار كمية من الاخشاب والحطب من كل منزل في المدينة حتى تجمع حطب كثير اضرم فيه النار ثم القى فيهـا حاكم مدينة اردبيل ٠ وكانت هذه أول نار تبعتها نيران كثيرة احرق فيها مخالفيه ٠

بعد هذا امر بجمع أهل المدينة وطلب منهم النطق بشهادة التشيع، فمن قالها ضمه إلى رجاله ، ومن رفضها القاه في النار مع حـاكم اردبيل ٠ وقد خاف كثير من الاهالى من الحـرق فنطقوا بشـهادة التشيع (٢٠) ، ولهذا ضم الى رجاله الكثير من اهل اردبيل حتى بلغ عددهم نحو اربعة عشر الف رجل ترك نصفهم في المدينة لحمايتهـا وتوجه في سبعة الاف رجل الى تبريز العاصمة حيث استطاع دخولها والجلوس علي عرش اخواله الاق قويونلو ٠

(١٩) عالم اراى عباسى ص ٢٥ ٠

(٢٠) هذا يدل على ان أهل اردبيل التى شهدت بداية عهدهم ودعوتهم كانوا على مذهب اهل السنة والجماعة الى ان ادخلهم فى التشيع بالسيف والنار ومن الغريب ان بعض قرى اردبيل مازالت سنية حتى الان ٠

اولى المذابح :

عندما دارت معركة تبريز قتل من جيش الوند ميرزا حتى الظهر نحو عشرة آلاف رجل ، وبقي على قيد الحياة عشرون الفا فقال الشاه اسماعيل لرجاله « كل من يقول منهم علي ولي اللـه ، امنوه علـى حياته ومن يرفضها فاقتلوه • وقد خشى نحو الفين او ثلاثة على ارواحهم وقبلوا الدخول في المذهب الشيعي كما استطاع نحو ثلاثة الف جندي اخر الهرب واللحاق بملكهم الوند ميرزا الذى فر من المعركة (٢١) • وقد قتل من تبقى من جيش الوند ميرزا الذين رفضوا التشيع وكان عددهم نحو اربعة عشر الف رجل قتلوا في الفترة من الظهر حين انتهت المعركة الى غروب شمس ذلك اليوم ، وبلغ مجموع من قتل في ذلك اليوم الدامي اربعة وعشرون الف مقاتل من رجـال الوند ميرزا لرفضهم قول «على ولي الله» اي قبولهم التشيع الذى يفرضه اسماعيل الصفوي بالنار او بالسيف •

دخل اسماعيل بن حيدر الصفوي مدينة تبريز سنة ٩٠٦ هـ (١٥٠٠م) وكان في الرابعة عشرة من عمره ، وجلس على عرش جده لامه حسن بك اق قويونلو الذهبي • ومن الطريف ان العثمانيين ارخوا لقيام هذه الدولة الشيعية بحساب الجمل بكلمتين تنطقان باللغة الفارسـية هما « مذهب ناحق » ومعناهما « مذهب الباطل » • ذلك ان مذهب الدولة الصفوية في نظر العثمانيين كان مذهبا باطلا ، وحروف هذه الجمـلة بحساب الجمل مجموعها ٩٠٦ (٢٢) • وقد رد الصفويون على العثمانيين فقالوا ان الاتراك لجهلهم باللغة العربية قراوا هذه الجملة التي ارخوا بها لقيام دولتنا قراءة خاطئة اذ ان قراءتها الصحيحة باللغة العربية هو « مذهبنا حق » وليس باللغة الفارسية كما نطقها العثمانيون •

---

(٢١) عالم اراى صفوى ص٢٥ •

(٢٢) م = ٤٠ ذ = ٧٠٠ هـ = ٥ ب = ٢ ن = ٥٠ ا = ١ ح = ٨ ق = ١٠٠

ولكن كيف استطاع هذا الغلام أن يشق طريقه بهذه السرعة والشجاعة ويجلس على عرش ايران ويغير مذهب شعبها السني الى المذهب الشيعي الاثنى عشرى ويجعل منها جزيرة شيعية في وسط يمر من اهل السنة ، ويترك اثرا عميقا رهيبا في الوحدة الاسلامية والحياة السياسية في الشرق الاوسط بل وفي العالم كله منذ مطلع القرن العاشر الهجرى (الخامس عشر الميلادى) وحتى هذه الايام التى دارت فيها معارك دامية بين ايران والعراق نتيجة لمحاولة تصدير ما اطلقوا عليه « الثورة الاسلامية في ايران » والتي تعيد للاذهان عصر اسماعيل الصفوى الدموى

قيام الدولة

عرش من الجماجم على انهار من الدماء

تقرر اغلب المصادر أن عدد جنود اسماعيل الصفوى من القزلباشية او لابسى العمائم الحمراء عندما دخل تبريز عاصمة ايران انذاك بسبعة الاف رجل لايحملون الا أبسط الأسلحة التقليدية من سيوف ورماح ونبال ولهذا لجأ اسماعيل الصفوى الى ما لجأ اليه جنكيز وهولاكو وتيمور واغلب الثائرين في بداية أمرهم من قتل بلا رحمة واحراق بلا شفقة وتخريب بلا هوادة .

ففي سنة ٩٠٦ هـ عندما استولى على شيروان وأسر ملكها شيروان شاه ، وضع جسده في قدر كبير ووضعه على النار وطهاه ثم أطعمه للكلاب انتقاما منه لقتل ابيه السلطان حيدر اثناء هجومه على شيروان (٢٣) .

وفى اول مشاركة مع السلطان مراد بن رستم اق قويونلو حاكم العراق العجمى وفارس وكرمان وخوزستان ، عمد الى قتل ثمانية

---

(٢٣) زندكانى شاه عباس ص ١٤

الاف من رجالة مرة واحدة (٢٤) لتذاع عنه هذه القسوة وتشتهر هذه الوحشية فيخشاه الناس ويتجنب الجنود لقاءة أو التصدى له ٠

وفى معركة بين قائد الوند ميرزا وقائد اسماعيل الصفوى استطاع قائد القزلباشية أن يقتل الف رجل من قوات الوند ميرزا قبل ان يقتل هو فى المعركة فتولى قيادة الجيش الصفوى قائد آخر انتقم لقتل قائده بقتل خمسة آلاف رجل من جيش الوند ميرزا (٢٥)

اما فى المعركة التى دارت بين الشاه اسماعيل الصفوى والوند ميرزا اق قويونلو شخصيا فقتل فيها من رجال الوند ميرزا ثمانية عشر الفا ، وفر الوند ميرزا من الميدان فاستولى الشاه اسماعيل على كل امواله وسرادقه وجمع رءوس القتلى لمشاهدتها واستعراضها (٢٦) بعد كل هذه المذابح بين المسلمين ٠

فرض المذهب الشيعي :

جرت مراسم فرض المذهب الشيعى فى مدينة تبريز العاصمة ، وتقول كتب التاريخ ان رجال الشاه اسماعيل الصفوى كانوا قد حذروه من خطورة الاقدام على ذلك الامر ، وقالوا له ان ثلثى سكان مدينة تبريز من اهل السنة ، وان اعلان المذهب الشيعى قد يؤدى الى قيامهم بالثورة ضده مما قد يعرض ملكه للخطر ؛ ولكن اسماعيل الصفوى قال لهم إن الامام على قد كلفه بهذه المهمة ٠ ثم امر القزلباشية بالتواجد فى المسجد الجامع فى يوم الجمعة الذى حدده لاعلان المذهب رسميا ٠ وذهب الشاه اسماعيل وحمل القزلباشية سلاحهم كاملا ، وصعد اسماعيل الصفوى المنبر وهو شاهر سيفه ، وعندما قرأ الخطبة باسم الامام على والائمة الشيعة ، حدثت همهمة بين المصلين ، فاطبق عليهم

---

(٢٤) عالم آراى صفوى ص ٦٠
(٢٥) عالم آراى صفوى ص ٦١ ٠
(٢٦) نفس المرجع ص ٦٤ ٠

القزلباشية وقال لهم الشاه اسماعيل « تبرأوا (٢٧) والا فان القتل جزاء من يرفض البرؤ » فتبراوا جميعا من شدة الخوف ٠

وخرج قائد التبرائيين يسير امام الشاه اسماعيل الصفوى يحمل فى يده تبرا (٢٨) وهو يردد عبارات التبرؤ وكل من لا يرددها معه ويلعن الخلفاء الثلاثة يقطع رأسه فورا ٠

واذا كان هؤلاء المساكين قد تشيعوا حفاظا على ارواحهم فان اسماعيل الصفوى حين خرج من تبريز لمحاربة الوند ميرزا ، عاد الوند ميرزا من طريق اخر غير الذى خرج منه اسماعيل الصفوى ، وانقض على مدينة تبريز التى تشيعت بحد السيف وانتقم من اهلها فقتل منهم نحو سبعة آلاف لتغيير مذهبهم ٠

ما السبب فى فرض التشيع ؟

قلنا ان القبائل التركية التى أسرها تيمور فى حملته على آسيا الصغرى ثم تركها فى أردبيل للشيخ على سياه پوش يزعم انهم من مريديه الذين يتميزون بالعمامة الحمراء كانوا هم القوة الدافعة والمحركة للصفويين طوال حكمهم ، وكانت هذه القبائل ناقمة على بنى عمومتهم من الاتراك العثمانيين الذى وصلوا الى حكم آسيا الصغرى ثم الخلافة الاسلامية ، وكانت تشعر أنها خرجت من بلادها كالاسرى لتيمور لذلك ويحنون بالعودة اليها ولكن حرمة حرب المسلم ضد المسلم وقتل المسلم للمسلم كانت سائدة فى ايران كما فى غيرها من بلاد

---

(٢٧) التبرؤ والتولى أى التبرؤ من خلافة أبى بكر وعمر وعثمان لانهم تولوها بغير حق فى نظر الشيعة ثم الاقرار بولاية على من بن أبى طالب وبقية ائمة الشيعة الاثنى عشر وقد يغالى بعضهم بلعنهم ومعهم السيدة عائشة لموقفها من حرب الجمل ٠

(٢٨) التبر أو الطبر فأس يستخدم فى قطع الاشجار ويستخدمه الجزارون فى العراق والسودان فى تقطيع اللحوم وفى مصر يسمى بلطة ٠

المسلمين وتحد من الحماس للقتال خاصة ضد الاتراك فى آسسيا الصغرى - كما أن فكرة الانضمام للخلافة الاسلامية أو الخضوع للخليفة التركى الذى كان يلقب بامير المؤمنين كانت تجد صدى بين الكثيرين • ولهذا فان مجابهة كل هذه المشاعر الدينية كان لا يمكن مقاومتها الا بتغيير المذهب الشائع فى ايران من التسنن الى التشيع والغلو فى المذهب لاثارة العداء بين المذهبين ودفع الناس الى الحرب بوازع الحفاظ على المذهب •

ولهذا كان لابد للشاه الذى جلس على عرش ايران وفرض المذهب الشيعى بحد السيف أن يكتسب الصفة الدينية الى جانب الصفة الدنيوية ولهذا رضخ لفكرة « ولاية الفقيه » وطلب من على بن عبد العال الكركى العاملى كبير علماء الشيعة بجبل عامل بلبنان أن يوطد له دعائم السياسة والملك ويجيز جلوسه على كرسى الملك والحكم باسم الولاية العامة التى هى من صلاحيات الفقيه (٢٩) • وبهذا أصبح الشاه اسماعيل بصفته الدينية يعلو فوق أى سلطة أخرى فى الدولة •

من ناحية اخرى فان الفقيه أو الامام عند الشيعة له الحق فى خمس مكاسب ودخل كل فرد شيعى ولك أن تتصور ضخامة المبالغ التى يحصل عليها مجتهدو الشيعة بسبب منصبهم الدينى وهو يزيد عما تحصله الدولة من ضرائب • وكانت خزائن ملوك الصفوية مكدسة بثروات وأموال تتحدث عنها كتب التاريخ • بسبب جمعهم للخمس الى جانب الضرائب الاخرى •

عودة للقتل والحرق :

بعد أن استقرت أمور العاصمة تبريز وما حولها توجه الشاه اسماعيل الصفوى الى مازندران سنة ٩٠٩ هـ فتحصن حاكمها حسين

---

(٢٩) الشيعة والتصحيح ص ٧٩ •

كيا في قلعة « جبله رود » فقطع اسماعيل الصفوى الماء عنها حتى استسلم كل من كان بها وأمر رجاله فاحرقوهم جميعا رجالا ونساء واطفالا وكهولا مع بيوتهم وحصونهم • اما ملكهم حسين كيا (٣٠) فسجنه في قفص من حديد وأخذ في تعذيبه حتى مات ــ أو انتحر كما تذكر الروايات المختلفة ــ فاحتفظ بجثته حتى احرقت بعد ذلك كما سنرى •

وكان الشاه اسماعيل اثناء حصاره لحسين كيا قد تلقى نبأ عن عصيان محمد كره حاكم اقليم يزد ، فتوجه بجيشه الى هناك وحاصر المدينة ثم دخلها القزلباشية بعد شهرين وقبضوا على محمد كره وحبسوه في قفص حديدى وقتلوا بقية رجاله •

ولما كان التركمان الجغتائيون في طبس (٣١) قد رفضوا قبول المذهب الشيعى ، فقد اتخذ من الرسالة التي ارسلها اليه اميرهم ذريعة لكي يتوجه بجيشه الى هناك (أوائل شعبان سنة ٩١٠ هـ) « وانطلقت شعلة غضبه من كثيرة ما اراقه من الدماء » حيث قتل في هذه المذبحة سبعة الاف من الترك الجغتائيين • وذاع خبر هذه الذبحة في ارجاء خراسان فعمها الذكر والخوف من بطش الشاه اسماعيل وقسوته وعنف القزلباشية وأعاد للاذهان ما فعله المغول على يدى جنيكز وهولاكو •

ومما ترويه المصادر عن الخوف والفزع الذى استولى على أهل السنة في ايران انذاك قصة العلامة الدوانى امام ومدرس المذهب الشافعى في المسجد العتيق في شيراز ، اذ ما كاد والى شيراز يبلغه بأمر الشاه اسماعيل بضرورة ترك مذهب أهل السنة واعتناق التشيع

---

(٣٠) هو كيا امير حسين جلاوى ــ عالم اراى صفوى ص ٩٨ •

(٣١) تقع على حافة الصحراء الكبرى الايرانية وتسكنها للان بقايا من القبائل العربية •

من هذه الحادثة ، ولما تولى ابنه السلطان سليم العرش ارسل سفيرا اخر هو القاضى خليل لكى يسألهم عن الدافع لهذا العمل القبيح ويطلب منهم الكف عن لعن الخلفاء الثلاثة ابى بكر وعمر وعثمان رضى الله عنهم (٣٣) ٠

وفى رد الشاه اسماعيل الصفوى على رسالة السلطان سليم العثمانى قال له « ان شاء الله سوف نقطع رأسك التعس بقسوة ذراع فاتح خيبر امير المؤمنين عليه السلام ونرسله الى ملك البرتغال(٣٤)

وبعد هذا ذهب الشاه اسماعيل الصفوى الى كربلاء لزيارة قبر الامام الحسين ومن هناك احرم لزيارة قبر الامام على فى النجف « (٣٥)

استئناف المذابح واراقة الدماء :

بعد ان انهى الشاه اسماعيل الصفوى الاستيلاء على العراق العربى توجه الى لرستان وارسل الى ملكه رستم رسالة قال له فيها انك ان كنت قد رفضت طاعة السنة لانك شيعى بفطرتك ، فاننى اطلب منك ان تاتى الى كى اراك وحتى تبقى فى ملكك الموروث ، فاستشار الملك رجاله فقالوا له ان السلطان العثمانى بجيوشه لم يستطع الانتصار علينا فدعنا نذهب ونقطع الطريق على الشاه اسماعيل ونضربه بسيوفنا ، حتى اذا لم ننتصر فاننا سنجعله لا يفكر فى غزونا ثانية (٣٦) ٠

وحين نشبت الحرب قتل فى اول معركة ثمانية الاف من الاكراد

---

(٣٣) عالم اراى صفوى ص ٤٧٧
(٣٤) عالم اراى صفوى ص ٤٧٣ ٠
(٣٥) يطوف الشيعة حول قبور الائمة وهم يقراون ادعية خاصة كالطواف حول الكعبة ويحرمون له ٠
(٣٦) عالم اراى صفوى ص ١٣٠ ٠

اللر ، وقتل من القزلباشيه خمسمائة ماتوا تحت الصخور التى القيت عليهم من قمم الجبال ٠

ونشبت معركة ثانية مع الاكراد اللر هزموا فيها ايضا وفر ملكهم ولكن الشاه اسماعيل صفح عنه لانه اقر بتشيعه ٠

وقد حرض الملك رستم الشاه اسماعيل على حرب السلطان فياض بن محسن ملك الحويزة لانه كان من العلى اللهية (٣٧) ، واتباعه يدعون المشعشعة ٠ وحين علم السلطان فياض بهذا الغزو ارسل جيشا من ثلاثين الفا ثم اعقبه بجيش اخر من عرب البادية تعداده عشرون الفا ، وقتل ما لا يحصى من المشعشعة كما قتل السلطان فياض وخضعت الاهواز للصفويين ٠

فتح اصفهان :

بعد هذا توجه الشاه اسماعيل الى اصفهان وحاصرها لمدة ثلاثة اشهر حتى قلت بها المؤن وكان احد اعيان اصفهان واسمه الرئيس حسين من الشيعة فتآمر مع الشاه اسماعيل وفتح له احد ابواب المدينة فدخلها الصفويون واسروا من كان بها من رجال السلطان مراد اق قويونلو وعرضوا عليهم التشيع فمن قبله اخلى سبيله ومن رفضه قتل على الفور ، اما السلطان مراد اق قويونلو فقد التجا الى احدى قلاع المدينة ٠ وتوسطت خالة الشاه اسماعيل – وهى فى نفس الوقت عمة السلطان مراد اق قويونلو – بين ابن اختها وابن اخيها ، فاشترط الشاه اسماعيل ان يعلن السلطان مراد تشيعه ولكن السلطان مراد قال لها كيف العن الخلفاء الثلاثة ؟ هل من اجل ملعقة من دمى العن هؤلاء الصحابة الكبار ؟ وقرر السلطان مراد الهرب من القلعة والتوجه الى شيراز لجمع جيش جديد ٠

---

(٣٧) العلى اللهيه جماعة يالهون على بن ابى طالب وما زالت لهم بقايا فى العراق وسوريا ولبنان ٠

ومن الطريف أن ننقل ما جاء في كتاب الشيعة والتصحيح حيث يقول « ان سكان اصفهان كانوا من الخوارج ، وعندما وصلهم أمر الشاه بقبول التشيع او قطع الرقاب طلبوا منه أن يمهلهم اربعين يوما ليكثروا فيها من سب الامام علي ثم يدخلوا بعدها في المذهب الجديد • فامهلهم الشاه كما ارادوا وهكذا انضمت اصفهان الى المدن الشيعية الاخرى » (٣٨) •

ويقول صاحب كتاب حبيب السير « ذات يوم اشتعل غضب الشاه اسماعيل الصفوي وهو في اصفهان فامر أن يجمعوا حطبا كثيرا في ميدان المدينة ويضرموا فيه النار ، ثم أمر فالقوا فيها محمد كره حاكم يزد واتباعه مع جثة حسين كيا ملك مازندران التي كان يحملها معه، وجماعة اخرى من العصاة ، ثم احراقهم في حضور سفير السلطان بايزيد العثماني اعطوه رمادهم للذكرى (٣٩) •

مذابح الحيوانات بعد مذابح البشر :

بعد أن استقرت أمور اصفهان خرج الشاه اسماعيل الصفوي للصيد في منطقة قريبة منها اسمها « لنجان والنجان » ومعه قواده وحاشيته ، وبلغ عدد الحيوانات التي اصطادوها في اول يوم ستة وعشرون الف حيوان • وفي اليوم الثاني سبعة وخمسون الف حيوان عبارة عن خمسة واربعين الف غزال واثنى عشر الف حمار وحشي وفي اليوم الثالث قتلوا ستة عشر الف حيوان • وفي المرة الرابعة قتلوا خمسة عشر الف حيوان ثم كفوا عن الصيد في هذه المنطقة بعد ان افنوا ما كان بها من حيوانات (٤٠) •

---

(٣٨) الشيعة والتصحيح ص ٧١ •
(٣٩) حبيب السير جـ ٤ ص ٣٧٨ وروضة الصفا جـ ٨ ص ١٧٠ •
(٤٠) حبيب السير جـ٤ ص ٥٢٢ •

ومعارك الطلاب :

كان السلطان سليم العثماني قبل توليه العرش قد حرض أبناء ذي القدر على استعادة البلاد التي استولى عليها الصفويون منهم في ديار بكر ، فجمعوا جيشا كبيرا وتوجهوا الى قلعة « قرا أحمد » فلما علم الوالي الصفوي خرج لملاقاتهم · وحين اصطف الجيشان أطلق جيش ذي القدر كلابهم على الجيش الصفوي وكانت من نوع أوربي مدرب ، فأطلق الصفويون كلابهم وكانت من أصل محلي من ديار بكر ، ودارت معركة شرسة بين نحو عشرة الاف كلب انتهت بفوز كلاب الصفويين وهرب كلاب القدرية من الميدان (٤١) ·

بعد انتهاء معركة الكلاب دارت معركة البشر واستطاع الصفويون — مثل كلابهم — الحاق الهزيمة بجيش ذي القدر الذي فر والتجأ الى قلعة « درنا » ·

وعاد ابناء علاء الدولة ذي القدر لحرب الصفويين مرة أخرى ودارت بعض المعارك بين الجانبين كانت اخرها تلك التي قتل فيها محمد بك بن علاء الدولة اخر الابناء السبعة لعلاء الدولة الذين قتلوا جميعا في حروب ضد الصفويين في محاولات للابقاء على ملكهم ، وقتل معه نحو أربعة عشر ألف جندي واستولى الصفويون على عتادهم ومعسكرهم بما فيه ·

الحرب في الجبهة الشرقية مع الاوزبك :

كان السلطان حسين ميرزا بايقرا — وهو من أحفاد تيمور — يتولى ملك خراسان ومرو الشاهجان وخوارزم وطخارستان وزابلستان وقندهار وكابل وبدخشان وكانت علاقته طيبة بالشاه اسماعيل الصفوي الذي كان ينظر للسلطان حسين نظرة احترام لكبر سنه ولانه من سلالة

---

(٤١) اراي صفوي ص ١٤٠ ·

ملوك التيموريين . فلما توفى السلطان حسين حدث نزاع بين ابنائه وخاصة بين بديع الزمان ميرزا ومظفر حسين ميرزا وكيك ميرزا واستطاع محمد خان الشيباني ـ الذى اشتهر بشاهى بك خان ـ والذى ارتقى من درجة الخدم (٤٢) الى مرتبة الامارة أن يستغل هذا الخلاف بين الاخوة ويستولى على ملكهم ـ الذى كان يمتد من اقصى التركستان الى حدود العراق العجمى ـ وبهذا انتقل حكمه من التيموريين الى الازبـــك .

بدأ الخلاف يدب بين محمد خان الشيباني المشهور بشاهى بك وبين الشاه اسماعيل الصفوى وكان من أسباب هذا الخلاف الرسالة التي بعث بها الى الشاه اسماعيل وجاء بها « ليكن معلوما للامير اسماعيل اننا ـ بالسعادة والاقبال ـ ننوى زيارة مكة المكرمة . فمر رجالك لكى يصلحوا الجسور المهدمة التي قد تكون في طريقنا ، وأنا لا أطمع في العراق الخراب أو اذربيجان ، ولقد امرنا أن تقوم حكومتكم باعداد المؤن والولائم في كل مكان ننزل به ، وكلما احسنتم الخدمة تلتم رضنا وسوف نخلع عليكم الخلع الفاخرة ولا يجب عليكم التهاون في هذا الامر » (٤٣) .

فلما وصلت هذه الرسالة الى الشاه اسماعيل كتب على ظهرها بيتا من الشعر معناه كل شخص ليس عبدا مخلصا للملك ابى تراب(٤٤)

لو اخذ الف مدينة ومكة فلا قيمة له ولا حساب وخلع على الرسول واعـــاده (٤٥) .

---

(٤٢) كان خادما للسلطان احمد ميرزا بن السلطان أبي سعيد للاقچوركان والى ما وراء النهر ـ عالم اراى عباسي ص٣٦ .
(٤٣) نفس المرجع والصفحة .
(٤٤) يقصد بالملك ابى تراب الامام علي بن ابى طالب .
(٤٥) عالم اراى صفوى ص ٢٩٠ .

موعدنا في مشهد المقدسة :

وقد اخذت الرسائل تتبادل بينهما ، فمحمد خان الشيباني يتشدد في طلب اصلاح الطرق والجسور في طريقة الى مكه واسماعيل الصفوى يلاينه حتى تحين له فرصة لوقف هذه الاهانات حتى اخبره احد سفرائه ان محمد خان كان قد ارسل جيشا لغزو بلاد الغور من اربعين الفا من الاوزبك ولكن لم ينجح منهم الا اربعة الاف . وعندئذ بعث الشاه اسماعيل برسالة الى شاهي بك قال له فيها « انني انوى الطواف بالمرقد المنير لحضرة امام الانس والجن (٤٦) ان شاء الله تعالى وموعدنا في مدينة مشهد المقدسة » .

وفي سنة ٩١٠ هـ اصدر الشاه اسماعيل أوامره بتعبئة الجيش وتوجه الى خراسان فلما اقترب من مدينة مشهد ترك شاهي بك مدينة هراة وذهب الى مرو الشاهجان . وعندما رأى الشاه اسماعيل فيه مرقد الامام على الرضا ترجل عن حصانه وترجل كل جيشه وسار المسافة الباقية الى المدينة – وكانت حوالى عشرين كيلو مترا على قدميه . ولما كان الاوزبك قد حملوا معهم كل نفائس المشهد والمسجد من سجاد فاخر وقناديل وثريات ذهبية فقد امر الشاه اسماعيل باعادة فرشهما بافخر السجاد ، وكلف الصاغة بعمل القناديل والثريات الذهبية اثناء الليل لكى يتمكن من زيارة مشهد الامام على الرضا وهو على حال لائقة بمقامه (٤٧) .

من معجزات الامام :

بعد أن استراح الشاه اسماعيل وجيشه لمدة ثلاثة ايام في مدينة مشهد إراد أن يواصل سيره في تعقب الاوزبك فقال له قواده « لقد

---

(٤٦) يقصد بامام الانس والجن والامام على بن موسى الرضا المدفون بجوار الخليفة العباسى هارون الرشيد فى مشهد عاصمة اقليم خراسان وهو الامام الثامن عند الشيعه الجعفرية .
(٤٧) عالم آراى صفوى ص ٢٩٠ – ٢٩١ .

جئتنا من اذربيجان مسرعين مما اضعف الخيل وأرهق الجند فلو استرحت في المدينة بعض الوقت كان افضل » فقال لهم الشاه اسماعيل « لقد ذكرتم ما رأيتم انه الحق والمصلحة ، ولكنني عبد لسيدي الذى لا أشرب جرعة ماء دون اذنه ، وكل ما فعلته للآن كان باذن منه وأمر وسأبرهن لكم على هذا . وما علينا الا أن نكتب رسالة اليه نطلب فيها الاذن لهذه الحرب ، ونضعها فوق مرقد الامام على الرضا ـ عليه السلام ـ ونغلق باب الروضة بالقفل وتتولون انتم حراستها حتى اليوم التالى لتتأكدوا أن أحدا لن يدخلها » .

وقد فعلوا ما اقترحه الشاه . وفى الصباح عندما ذهب الشاه ومعه الامراء والقواد وجدوا مكتوبا على ظهر هذه العريضة بالحبر الاخضر « تأذن لكم فاذهبوا فان الفتح والنصر لكم » (٤٨) عندئذ سجد القادة وأخذوا فى البكاء وقالوا للشاه اسماعيل « لقد تبنا وليس لنا الحق بعد هذا فى مناقشة ما يقوله المرشد الكامل أو يأمر به » (٤٩)

حينما علم شاهى بيك بدخول الشاه اسماعيل الصفوى مدينة مشهد ترك حامية فى مدينة هراة وتوجه الى مرو انتظارا لوصول الامدادات اليه من بلاد ما وراء النهر ، ولكن الشاه اسماعيل ارسل بعض قواته فى اثر شاهى بيك فتصدت لها قوات الاوزبك ولكنها قتلت ولم يتبق منها الا نحو سبعمائة جندى من أصل ثلاثة الاف اوزبكى وفى معركة ثانية قتل نحو ستة الاف وفر الباقون .

وارسل الشاه اسماعيل رسالة الى شاهى بك المتحصن فى قلعة مرو يقول له فيها « اين ذلك الغرور حين كنت تأمرنى باصلاح الجسور فى طريقك الى الحج واقامة الولائم فى كل مكان تنزل به ؟ ان الملوك

---

(٤٨) نفس المصدر ص ٢٩١ .
(٤٩) المصدر السابق ص ٢٩٣ .

لا يتراجعون عن كلامهم لان ذلك عار كبير ، فأخرج من القلعة والا أمرت فتياني الشجعان أن يهدموا القلعة ويجعلوها اثرا بعد عين (٥٠)٠

ودارت معركة قرب القلعة قتل فيها نحو ستة الاف من الاوزبك وفر الباقون ناحية التركستان ٠

الحرب خدعة :

رأى الشاه اسماعيل أن يستدرج عدوه خارج القلعة بالتظاهر بالانسحاب وفك الحصار وارسل رسالة الى شاهي بك جاء بها « لقد وعدتنا باللقاء فى خراسان ولم تف بوعدك بينما وفيت بوعدي وجئت الى خراسان وقد اضطررت للعودة وعندما تستعد للقتال فنحن حاضرون » ٠

كاس شراب من جمجمة شاهي بك :

حينما شاهد شاهي بك انسحاب الصفوية وفك الحصار عن القلعة اغراه الطمع فى مهاجمة مؤخرة اعدائه للانتقام منهم ، وبهذا وقع فى الفخ الذي نصبوه له ٠

فلم يكد يبتعد عن القلعة حتى احاط به القزلباشية ودارت معركة عنيفة واضطر شاهي بك للفرار ولكن سوء حظه أوقعه في مستنقع موحل غرق فيه واستطاع أحد القزلباشية اخراج جثته وحملها للشاه اسماعيل الذي امر بتقطيعها الى قطع صغيرة وارسل قطعة منها الى كل أمير من الامراء الذين كانوا يحتمون بشاهي بك أو يؤيدونه لتحذيرهم من نفس المصير ٠ اما رأسه فقد امر بسلخ جلده وحشاه بالقش وأرسله للسلطان بايزيد العثماني حامي السنة والاتراك الذين ينتمي اليهم شاهي بك ٠ اما طاسة جمجمته فقد امر بطلائها بالذهب وجعلها قدحا

(٥٠) عالم أراى صفوى ص ٢٩٨ ٠

يشرب منه الخمر (٥١) ٠

مذبحة قرشي وقططها وكلابها :

بعد هذه الهزيمة تعهد الأوزبك للصفويين بالا يتجاوز نهر جيحون غربا ، ولكنهم بعد ان استردوا قوتهم رأوا ان يستعيدوا البلاد التى استولى عليها الشاه اسماعيل ، ولهذا عبروا نهر جيحون فاختار الشاه اسماعيل احد قواده وكان اسمه ٠ نجم الثانى (٥٢) لمواجهة الأوزبك فجمع نجم الثانى جيوش الصفوية فى خراسان وعبر نهر جيحون دون أمر من الشاه اسماعيل ولكن استنادا لما له من منزلة عنده واستولى على قلعة مدينة اسمها قرشى وأمر بالقتل العام فيها فقتلوا أمير الأوزبك واسمه شيخم ميرزا مع خمسة عشرا الف جندى ، وقد رفض نجم الثانى العفو عن بعض الاهالى الجغتائيين تشفع لهم حليفه محمد بابر ميرزا وبهذا بدأت العداوة بينهما ٠ كما أن الأمير محمد يوسف الصدر تشفع لبعض السادات من أهل البيت فلم يقبل شفاعته أيضا ، وقتل عددا كبيرا منهم كانوا يحتمون فى مسجد القلعة ، بل وذهب نجم الثانى بنفسه الى المسجد للاشراف على قتلهم وكانوا نحو خمسة الاف ٠ ولما انتهى من قتلهم أمر بقتل القطط والكلاب فى المدينة ، ثم سوى بيوتها بالارض وبعد هذا قال ـ لقد استراح قلبى قليلا اذ انتقمت من هؤلاء الأوزبك للمذابح التى ارتكبها جنكيز وتيمور فى ايران » (٥٣) ٠

وقد فات نجم الثانى ان جنكيز وجماعته كانوا غير مسلمين ، اما

---

(٥١) عالم آراى عباس ص ٣٨ ـ وتاريخ هذه الحادثة بحساب الجمل هو « فتح شاه دين بناه » ـ أى فتح الشاه حامى الدين ـ وتعادل بالارقام ٩١٦ ٠

(٥٢) هو الرئيس يار احمد خوزانى حامل ختم الشاه اسماعيل وقد لقبه بلقب نجم الثانى بعد قتل حامل ختمه نجم زرجر الرشتى تقديرا له واحياء لاسمه ـ عالم اراى صفوى ص ٢٠٥ ٠

(٥٣) عالم اراى صفوى ص ٢٧٢ وعالم اراى عباس ص ٤٠ ٠

هو فقد قتل نحو عشرين الف مسلم منهم نحو خمسة الف قيل انهم كانوا ينتسبون لأهل البيت رغم شفاعة بعض قواده لهم ·

وذكر مؤلف تاريخ عالم اراى عباس أن ما فعله نجم الثانى كان وبالا عليه ، اذ انه بعد فراغه من مذبحة قلعة قرشي حاصر قلعة اخرى اسمها غجدوان وطال حصاره لها اربعة اشهر جعلت مؤنه تأخذ فى النقصان فلما علم امراء الاوزبك بحالة توجهوا اليه فى جيش مجهز، وفى الثلاثين من رمضان سنة ٩١٨ هـ هاجموا جيش الصفوية وقتلوا قائد مقدمته كما انسحب محمد بابر ميرزا لغضبه من قتل الجغتائيين فى قلعة قرشى وتراخى قادة القزلباشية فى الدفاع عن نجم الثـــانى لقسوته وظلمه حتى قتل فى هذه المعركة وعادواهم الى خراسان (٥٤) ·

---

(٥٤) عالم اراى عباس ص ٤١ ·

بداية النهاية

معركة جالدران : (١)

بعد عزل السلطان بايزيد العثماني وتولى ابنه السلطان سليم مقاليد الحكم فى استانبول اعلن اخوه احمد والى اماسية العصيان وقرأ الخطبه لنفسه ، ولكن الوزراء والقواد استدعوه بالحيلة والخديعة الى استانبول حيث قتل ، وارسلوا جيشا لاحضار ابنه مراد الذى طلب المساعدة من الصفويين · ولم يجد مراد امامه الا التوجه الى الشاه اسماعيل الصفوى الذى كان انذاك فى اصفهان ، ولما علم بمقدمة امر باستقباله استقبالا حافلا خارج المدينة · وحين وصل الى بساب حديقة قصر « نقش جهان » استقبله الشاه بنفسه واجلسه بجواره وقال له « اطمئن فسانتقم لابيك من عمك السلطان سليم وساقضى عليه واجعل كل بلاد الروم (الدولة العثمانية) لك » · فشكره الامير وقال له انه التجأ اليه لحسن اعتقاده فى الصفويين وليشرف راسه بلبس تاج الائمة الاثنى عشر ، فخلع الشاه اسماعيل التاج من على راسه والبسه للامير وقال له « امامنا نحو شهر ونصف الى ان يحل فصل الربيع وانذاك سنتوجه الى تبريز لجمع الجيش ، واذا حضر السلطان سليم وفر علينا الجهد والا فستكون معركتنا على شاطىء اسكودر » (٢) ·

بعد هذا خرج الشاه اسماعيل للصيد واصطحب معه الامير مراد

---

(١) تكتب بالجيم المثلثة الفارسية والتى تنطق كأنها chch بالانجليزية وهو سهل قرب مدينة خوى قرب تبريز عاصمة اقليم اذربيجان فى غرب ايران ويكتبها الذين يترجمون عن المراجع الاوربية تشالديران او شالديران بالياء وهو خطأ ويحسن كتابتها تشالدران ·

(٢) عالم اراى صفوى ص ٤٧٠ ·

فلما رجعوا لمخيمهم ظهرت أعراض المرض على الامير مراد وتوفى بعد ستة أيام ٠

حين علم السلطان سليم أن ابن اخيه التجأ للشاه اسماعيل الصفوى لاستعدائه عليه اخذ فى الاعداد للحرب وأرسل مبعوثا للشاه اسماعيل يحمل رسالة جاء فيها : « ليكن معلوما للشاه اسماعيل انك أرسلت عدة مرات الى أبينا المخرف فخدعته وأخفته ، فمرة أرسلت له رأس شاهى بك ، ومرة قطعة من علم جنكيز خان ، ولهذا السبب خلعناه ٠ وقد صممت على الانتقام للماضى وكنت أنوى التوجـه اليه فى العام الماضى ولكن ثارت مشكلة أخى الذى التجأ ابنه اليك ٠ وعلى أية حال يجب عليك أن تقيده وتجعل الاغلال فى عنقه وترسله الينا ٠ وعليك ايضا أن تكف يدك عن ديار بكر ، وتخرج أعوانك منها حتى ينتهى ما بيننا وبينك من عداوة وحرب وتحل محلها المودة والصداقة وإذا فعلت غير هذا فعليك الاستعداد للحرب (٣٠) ٠

حينما وصل الرسول الى اصفهان وقدم الرسالة للشاه اسماعيل كتب له ردا جاء فيه :

« قرأت رسالتك الركيكة التى ذكرت فيها عدم تعقل أبيك وسـوء تدبيره ، وأرسالنا رأس شاهى بك وقطعة من علم جنكيز اليه ٠ ولقد كان أبوك بعيد النظر يعلم أن كل من يخالفنا نسويه بالارض ٠ وطالما أن أهواء الغرور قد سيطرت على عقلك ، فان شاء الله سنقطع رأسك التعس هذا بقوة ذراع فاتح خيبر ـ أمير المؤمنين عليه السلام ـ ونرسله الى ملك البرتغال ٠ وقد ذكرت أن ولاية ديار بكر التى ورثناها يجب أن أسلمها لاتباعك ٠ وهذه الولاية لم تكن لابيك اذ أنها كانت من أملاك علاء الدولة ذى القدر أخذها من أولاد حسن أق قوينلو وأستولى عليها

---

(٣) عالم آراى صفوى ص ٤٧٢ ٠

رجالى بحد السيف من علاء الدوله الذى كان اجدادك واباؤك يدفعون له الخراج والجزية . وليس لك ان تدعى المطالبة بولاية حسن آق قويونلو .

اما فيما يتعلق بالسلطان مراد فقد التجأ الى بلاط كان ومازال ملجأ لملوك العالم ونزل ضيفا علينا ، ولا يمكن لمضيف أن يخرج ضيفه من بيته . ولما كنت تريد المجيء الينا فقد نلتقى والسلام » (٤) .

حينما نزل السلطان سليم خارج مدينة ارزيخان ارسل رسولا اخر للشاه اسماعيل يقول له « لقد سبق أن أرسلنا لك تخبرك بقدومنا لحربك ، ونحن الان نعسكر فى ارزيخان ، فاذا كنت تفكر فى شيء فافعله ، وان كنت تفكر فى اللهو والراحة فابعث الينا ابن اخى معززا، فان لم يقبل بالحسنى فقيده بالسلاسل والاغلال وارسله الينا . وعليك ايضا ان تكف يدك عن البلاد التى ورثناها حتى تستمر بيننا الصداقة القديمة على حالها ، والا فموعدنا للحرب سيكون فى تبريز . فاختر ما تشاء واخبر رسولنا به واعده الينا فنحن فى انتظار ردك » (٥) .

وصل السفير الى همدان وسلم الرسالة للشاه اسماعيل . وفى نفس الوقت جاءه نعى الامير مراد اثناء نقله من اصفهان الى همدان، وكذلك جاءه نعى طفل كان لمراد عمره عشر سنوات سقط من على الحصان وتوفى فى ساعته مما احزن الشاه اسماعيل وجعله يقول « أى ذريعة أعطاها هذا الزمان الغدار للسلطان سليم ؟ .

ثم استدعى السفير وقال له « اذهب وأبلغ دعاءنا للقيصر (السلطان سليم) وقل له ان الزمن لم يمهل ذلك الامير . واعتقد انك أرسلت احد جواسيسك فتنكر فى صورة صديق للامير ثم دس له السم ، وكانك لم تكتف ان تكون يوم القيامة قاتل أبيه ، فهل

---

(٤) عالم أراى صفوى ص ٤٧٣ .
(٥) نفس المرجع ص ٤٧٥ .

كان يجب أن تحمل وزر ابن أخيك أيضا ؟ . على أية حال لقد أحسنت بمجيئك ، وان شاء الله ساجلب على رأسك ما تتحدث به الاجيال بعد ذلك . واذا كنت تريد ديار بكر ، فلم اخذها من أبيك لانني أخذتها من علاء الدولة ذى القدر بحد السيف وكان قد استولى عليها من حسن شاه التركمانى . ولما كان قد خطر لك ادعاء املاكه فعلى أية حال موعدنا أرضروم . وقد أحسنت بأن أبلغتنا بقدومك » (٦) . ثم قال للسفير « عد فانك ما تكاد تقابل القيصر حتى اكون قد لحقت بك » .

خرج الشاه اسماعيل من همدان متوجها الى تبريز ومعه نحو اثنى عشر الف مقاتل هم الذين كانوا يلازمونه بصفة دائمة ، وحين وصل الى تبريز أمر فكتبوا الى كل المدن لاستدعاء الجيش واللحاق به . ولكن جاءه الجواسيس وأخبروه أن السلطان سليم وصل الى أرض روم ، ونصحه بعض الامراء بالانتظار حتى يصل بقية الجيش ولكنه ترك تبريز وتوجه الى سهل جالدران (تشالدران) فى أول رجب سنة ٩٢٠ هـ ونزل بجيشه هناك وقال هنا سيكون لقاؤنا مع القيصر ، وكان عدد جنوده قد وصل الى نحو ثمانية عشر الف مقاتل .

فى صباح يوم الاربعاء الثانى من شهر رجب سنة ٩٢٠ هـ اصطف الجيشان ويذكر الايرانيون أن الشاه اسماعيل كان قد طلب من السلطان سليم الا يستخدم المدفعية فى هذه المعركة لان الايرانيين لم يكونوا قد ادخلوا الاسلحة النارية فى جيشهم حتى ذلك الوقت وقد وعدهم السلطان سليم بهذا . فلما دارت المعركة ضغط الصفويون على الاتراك واجبروهم على التقهقر فى بعض المواقع . فطلب الصدر الاعظم من السلطان سليم أن يأمر باطلاق المدفعية فقال له السلطان لقد اقسمت على عدم اطلاقها . فقال الصدر الاعظم « انت اقسمت ولكننى لم اقسم » . ثم امر باطلاق المدفعية على جيش الصفويين . ويقولون انه فى أول

---

(٦) عالم آرى صفوى ص ٤٧٦ .

دفعة من نيران المدفعية التركية قتل عشرون الف عثمانى وسبعة الاف قزلباش وذلك لاختلاط الجيشين فى القتال بالسيوف والرماح .

وقد قتل اغلب قادة القزلباشية فى هذه المعركة ومنهم خان محمد خان استاجلو زوج اخت الشاه اسماعيل ، وسيد محمد كمونه الذى كان قد سهل للشاه اسماعيل دخول بغداد ، وساروبيره استاجلو رئيس الحرس الخاص وغيرهم . ولهذا تفرق جيش القزلباشية ووقع كثير منهم فى الاسر . وظل الشاه اسماعيل يعدو فى ميدان المعركة بفرسه يحاول جمع شتات جيشه واستطاع انقاذ بعضهم من حصار العثمانين ومنهم قائده وشقيق زوجته دورمش خان استاجلو ومعه نحو اربعمائة أى خمسمائة مقاتل وقال له « عد الى تبريز لاننى احاول انقاذ من اتمكن من انقاذهم لان « الحضرات » (٧) لم يجيئوا لمساعدتنا هذه المرة ومن المؤكد اننى لن استطيع ان افعل شيئا » (٨) .

وكان الاتراك قد اسروا أحد قواد القزلباشية وهو السلطان على ميرزا افشار وقد ادعى انه هو الشاه اسماعيل الصفوى وتختلف الروايات فى هذا فتقول بعضها أن الفرسان العثمانيين تعقبوا الشاه اسماعيل وكادوا يقتلونه بحرابهم فصاح فيهم هذا القائد قائلا « اننى انا الشاه اسماعيل وانتم انما تتعقبون أحد اتباعى وتظنونه الشاه » فخلوا الشاه اسماعيل وتعقبوا على ميرزا افشار وأسروه ، وبهذه الحيلة انقذ الشاه من الوقوع فى أيدى العثمانيين وافتداه بنفسه ، وبعد أن حملوه للسلطان سليم تبين لهم أنه أحد قواده فقتلوه هناك(٩) .

---

(٧) يقصد بالحضرات الامام على بن أبى طالب اذ كان يدعى انه يحارب معه فى معاركه مما يدفع القزلباشية للاستبسال فى القتال وكانوا يقولون « حامى اوزى در » وهى بالتركية ومعناها « جاء الحامى » .

(٨) عالم آراى صفوى ص ٤٩٤ .

(٩) عالم اراى عباسى ص ٤٣ .

وقد سيطر العثمانيون على المعركة واستطاعوا الوصول الى معسكر الصفوية وحملوا كل ما كان به من سلاح وعتاد ودواب • وهربت زوجة الشاه اسماعيل رهى تاجلوبيجم استاجلو ووضعت قناعا على وجهها واخذت تقاتل كالرجال ، وقد التقى بها الشاه اسماعيل اثناء محاولاته اليائسة لانقاذ بعض جنوده المحاصرين وطلب منها أن تعود الى تبريز ، وعندما عاد الى تبريز وسأل عنها لم يستدل عليها أحد اذ أنها كانت قد أصيبت ببعض الجراح وضلت الطريق فى الصحراء الى أن عثروا عليها بعد ثلاثة ايام • وقد عنفها الشاه اسماعيل وهددها بالقتل أن لم تقسم على عدم الاشتراك فى القتال بعد ذلك •

عـودة اليائس :

حين يئس الشاه اسماعيل من المعركة عاد بمفرده متوجها الى مدينة « درجزين » فى الطريق الى تبريز ، واثناء سيره على غير هدى دخل فرسه فى مستنقع موحل وكان كلما حاول الخروج منه ازداد غوصا فيه حتى كاد يهلك • وقد مر على مقربة منه خليل خان ذو القدر والى اقليم فارس فارا من المعركة فناداه الشاه اسماعيل لينقذه ولكن خليل خان تغافل عنه وانطلق فى طريقه • وبعد فترة رأى الشاه شخصا اخر عرف من ملابسه أنه من القزلباشية فناداه • وحين اقترب تبين أنه سائسه الخاص فطلب منه أن يلقى اليه بوهقه (١٠) الذى تناوله الشاه اسماعيل وربطه فى وسطه ثم سحبه السائس بحصانه ، فلما خرج الشاه من الوحل ركب حصان سائسه وانطلق وقد استطاع السائس أن ينقذ فرس الشاه من الوحل ثم لحق بالشاه فى درجزين ، وقد كافأه الشاه على هذا بأن منحه ولاية دارابجرد • أما خليل فان فقد أرسل اليه امرا بأن يقتل نفسه ففعل.

---

(١٠) الوهق حبل فى اخره انشوطة وهو الذى نشاهده حاليا فى افلام رعاه البقر ويستخدمونه فى الامساك بالخيول أو الايقاع بأحيانا الافراد وكان يستخدم فى الحروب ايضا •

كان خبر هذه الهزيمة قد وصل الى العاصمة تبريز فلما دخلها الشاه اسماعيل اثناء الليل اجتمع عليه من كان قد سبقه اليها من القواد والجنود وكانوا نحو سبعة الاف جندى ·

دخل السلطان سليم مدينة تبريز عاصمة الصفويين ولكن المدينة كانت شبه خالية من المؤن والاغذية ، ولهذا انتشر بها القحط والغلاء فلما رأى السلطان سليم هذا أمر باخلاء المدينة من الجنود حتى يخفف من وطأة القحط · فلما ابتعد السلطان سليم عن المدينة نحو عشرة كيلو مترات عاد اليها الشاه اسماعيل الصفوى ويقال أنه كان متبقيا بها نحو خمسة وأربعين الف تركى عثمانى انقض عليهم الاهالى وقطعوا رءوس اغلبهم وحملوها على الرماح وخرجوا يستقبلون بها الشاه اسماعيل الصفوى · كما دارت بعد ذلك بعض المعارك بين الجانبين اثناء انسحاب العثمانيين الى بلادهم قتل فيها عشرات الآلاف من الجانبين ·

عودة الاوزبك :

كانت هزيمة الشاه اسماعيل الصفوى قد ذاعت فى كل انحاء ايران وبلاد ما وراء النهر فتجمع الاوزبك بقيادة عبيد خان وتقدموا الى هراة فاستولوا عليها ثم دخلوا مشهد التى اخلاها القزلباشية وواصلوا تقدمهم الى نيسابور وسبزوار · وظل الاوزبك فى خراسان عامين كان فيهما الشاه اسماعيل الصفوى مشغولا بالمحافظة على المناطق الغربية لبلاده خوفا من العثمانيين · ولكن عندما علم بوفاة السلطان سليم وتولى ابن سليمان القانونى السلطة وانصرافه عن ايران جمع جيشه وتوجه من قزوين الى خراسان ليخلصها من أيدى الاوزبك الذين اخلوها له وعادوا الى ما وراء النهر ودخل الصفويون مشهد وهراة دون قتال (١١) ·

---

(١١) عالم آراى صفوى ص ٥٧٥ ـ ٥٧٧

وكان ملوك الكرج قد انتهزوا فرصة انشغال اسماعيل الصفوى وارادوا التقدم لاحتلال اردبيل وقزوين العاصمة فارسل لهم الشاة اسماعيل احد قواده واسمه ديو (١٢) سلطان فخاض عدة حروب ضدهم واستطاع الاستيلاء على كثير من مدنهم ومنها شيروان وتفليس انهكت كل هذه الحروب وخاصة هزيمة جالدران صحة الشاة اسماعيل الصفوى ويقال هذه انه اصيب بنوع من الانطوائية والحزن ادت فى النهاية الى اصابته بالسل وتوفى فى عنفوان شبابه سنة ٩٣٠هـ وكان انذاك فى الثامنة والثلاثين من عمره وارخوا يوم وفاته بحساب الجمل فى اشعار منها هذا البيب الذى ترجمته ٠

كانوا يصيحون يوم وفاته شاه وشاه وشاه

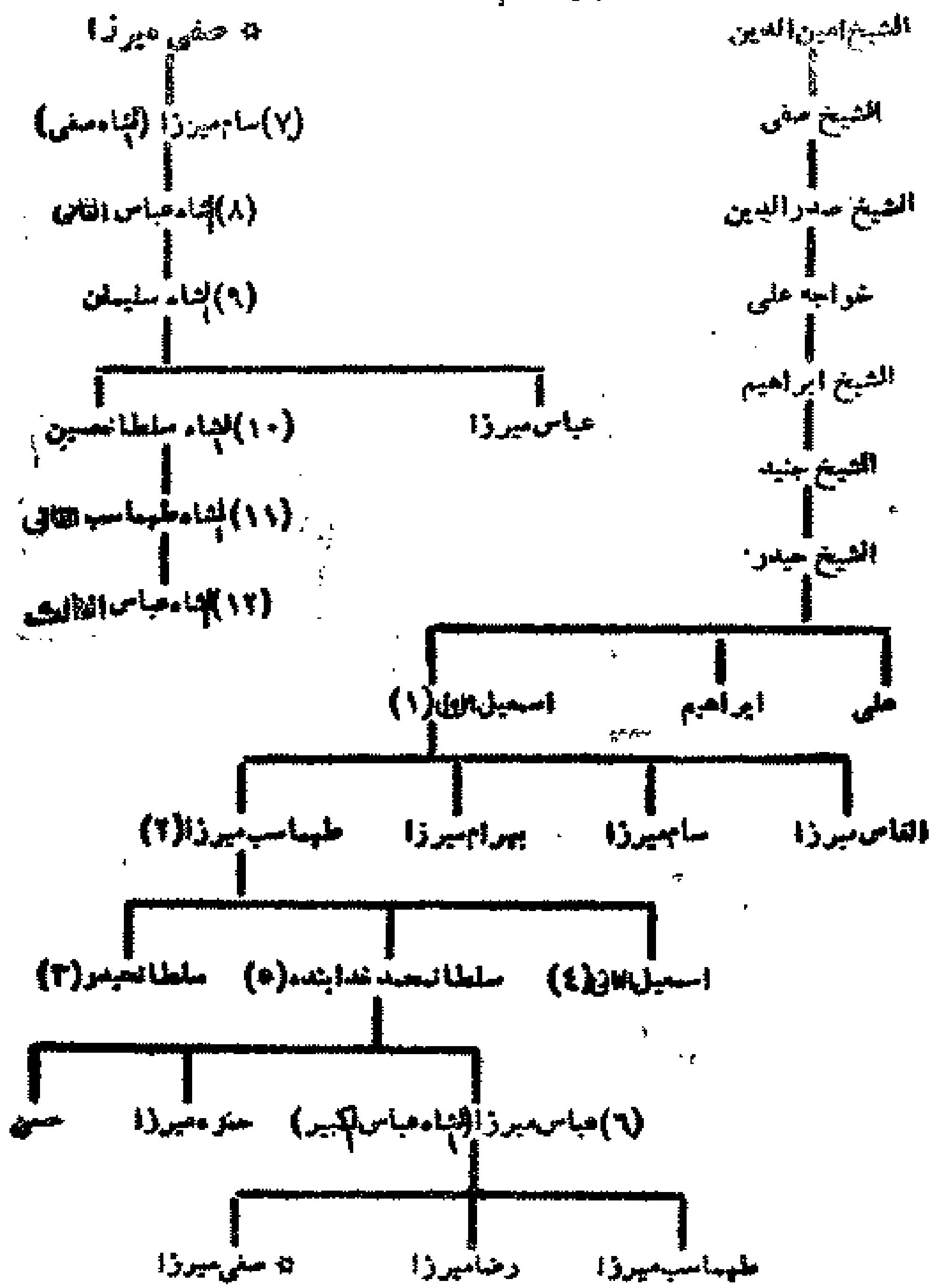
وقد جعلت هـذه الكلمـات تاريخ وفـاته ٠

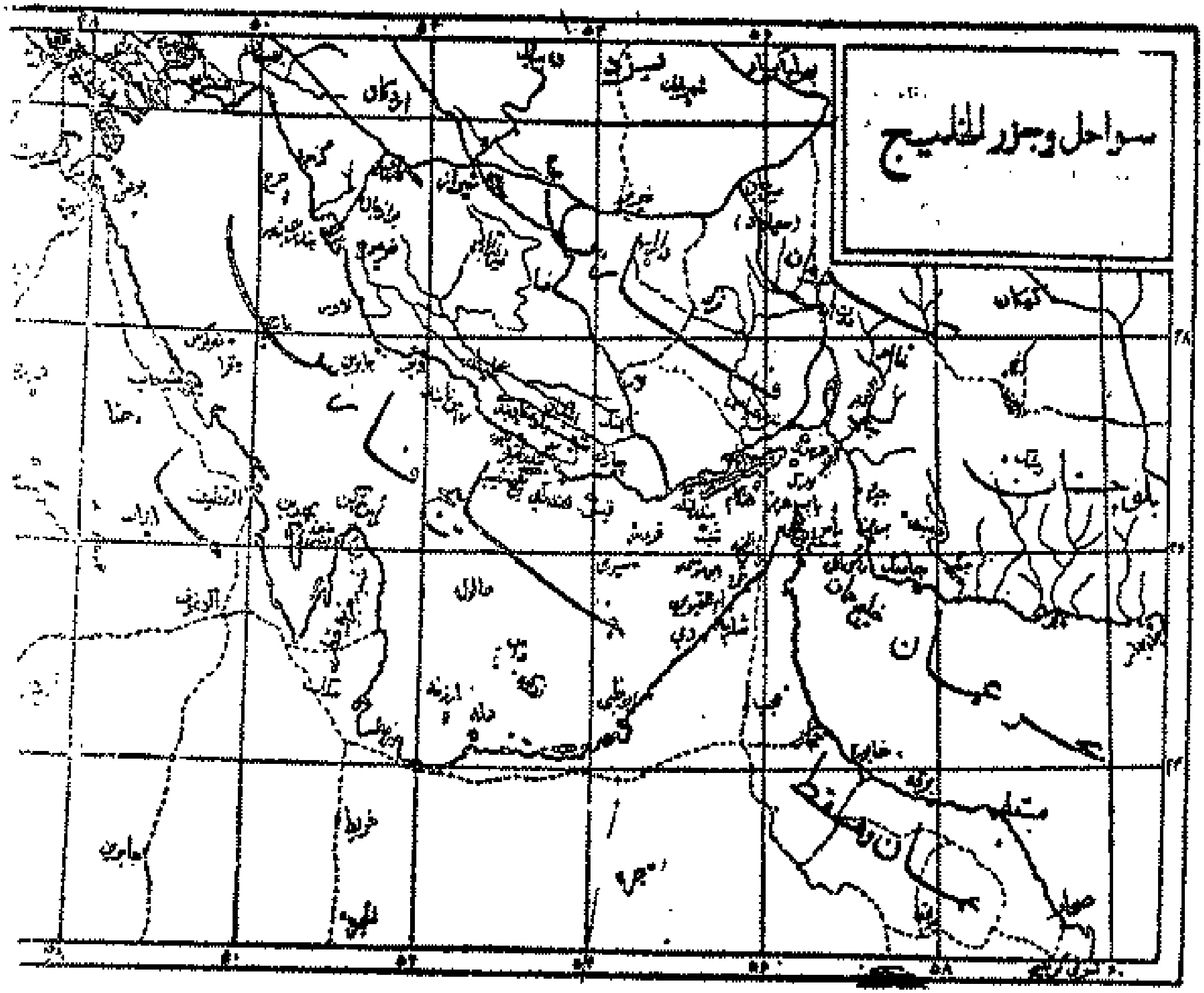
وهكذا انتهت حياة الشاه اسماعيل الصفوى الذى اسس دولته على اساس مذهبى متطرف ومتشدد لكى يستغل الوازع الدينى والعاطفة المذهبية حتى يحارب المسلم اخاه المسلم وقد قتل على يديه مئات الألوف من المسلمين دون ذنب أو جريرة الا عدم دخولهم فى مذهبة وان كانت هذه الدولة قد ادت الى وحدة ايران أو قوتها بعض الوقت الا انها ادت الى فرقة المسلمين واحداث صدع فى الاسلام أدى الى انحطاط المسلمين وفناء قوتهم فوقعوا فريسة سهلة للاستعمار الأوربى والروسى مما لازلنا نعانى اثاره حتى اليوم ٠

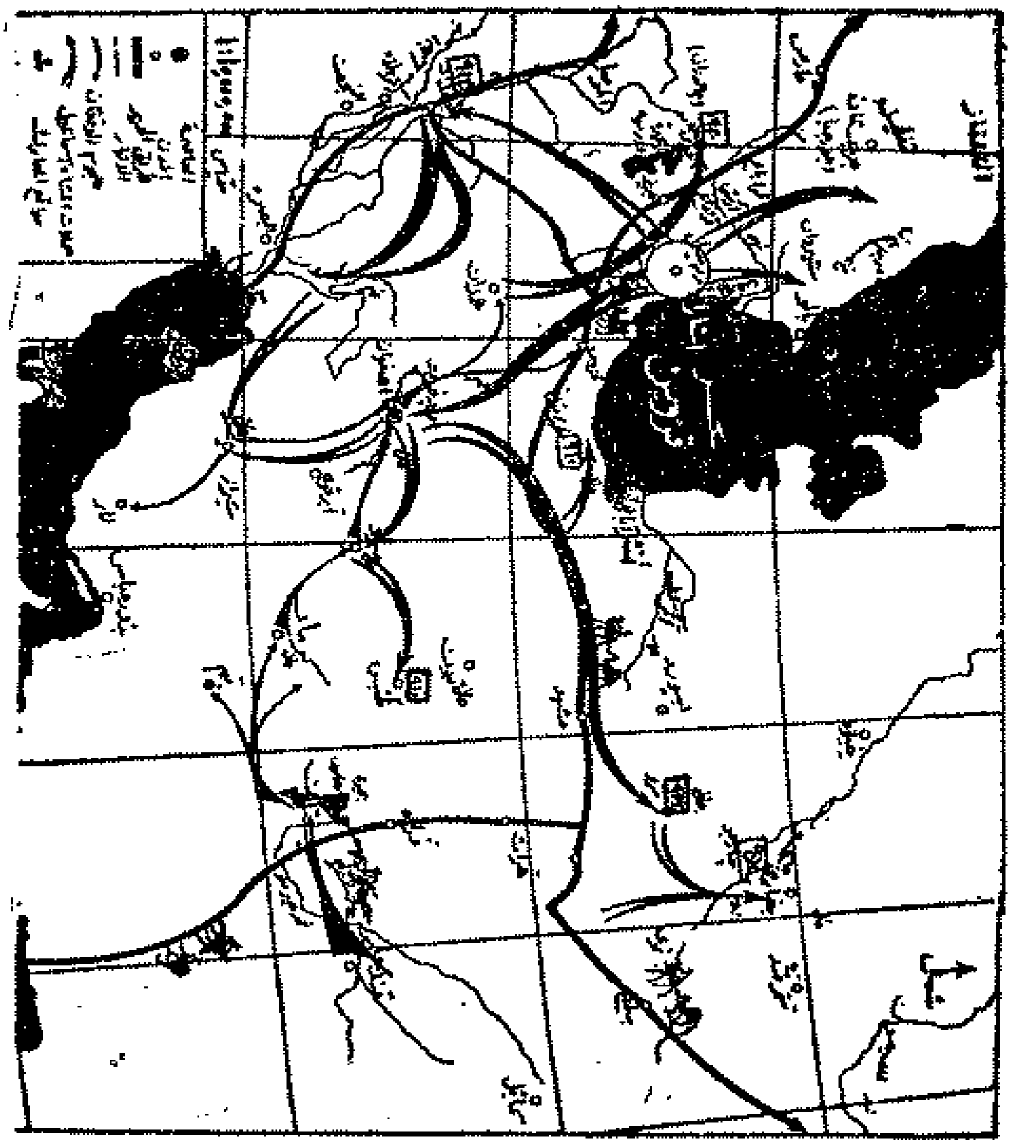
---

(١٢) تنطق « ديف » ومعناها الشيطان وهى devil

شجرة نسب سلاطين الصفوية




سواحل وجزر الخليج



علاقات ايران مع البرتغال واسبانيا

تبتدىء علاقة ايران مع حكومة البرتغال فى العصر الصفوى منذ عهد الشاه اسماعيل الاول فبعد أن اطاح السلطان العثمانى محمد الفاتح فى سنة ٨٥٧ هـ (١٤٥٣م) بامبراطورية الروم الشرقية وسقط ميناء القسطنطينية فى ايدى الاتراك ، اغلق طريق التجارة بين أوربا وآسيا بسبب استيلاء الاتراك وسيطرتهم على شرق البحر الابيض وآسيا الصغرى والشام ولهذا اضطر التجار البندقيون والبرتغاليون الذين كان لهذ اهتمام شديد ببضائع الدول الاسيوية وخاصة الهند ، للبحث عن طريق آخر يوصلهم الى تلك البلاد .

وقد اتجه تجار البندقية الى طريق الاسكندرية والبحر الاحمر، ولكن طمع المماليك فى مصر وسوء معاملتهم ، الى جانب مشاكل أخرى منع استمرارهم فى استخدام هذا الطريق . وفى هذه الاثناء اتجه بعض التجار والبحارة البرتغاليين لاكتشاف طريق الهند عبر جنوب افريقيا ، واستطاع اولهم واسمه بارتلمى ديان (١) ، الالتفاف حول طريق رأس الرجاء الصالح سنة ٨٩٢ هـ (١٤٨٧م) ودخل المحيط الهندى ، ولكنه لم يستطع الوصول الى الهند فعاد ثانية الى البرتغال. وبعد اثنى عشر عاما اى فى ٩٠٤ هـ (٩٨ ــ ١٤٩٩م) أستطاع القائد البحرى البرتغالى فاسكودى جاما الوصول الى الهند عن نفس الطريق والعودة فى العام التالى الى البرتغال .

وقد ادت رحلة دى جاما الى انشاء مستعمرات برتغالية فى

---

(١) Barthelemy Diay .

الهند واغلب مناطق اسيا ، والى زيادة مكانتها الدولية حتى ان ملوك البرتغال اخذوا يطلقون على انفسهم انذاك لقب « سادة الملاحة والغزو والتجارة مع الهند والحبشة والبلاد العربية وبران » وعاد فاسكو دى جاما الى الهند مرة ثانية سنة ٩٠٨ هـ (١٥٠٢م) ووسع منطقة استعمار البرتغال على السواحل الغربية للهند •

قبل أن يصل البرتغاليون الى المحيط الهندى وبحار جنوب اسيا كانت تجارة هذه المناطق فى أيدى العرب المصريين والعمانيين واليمنيين، ولكن حينما وصل البرتغاليون الى الهند جعلوا تجارة الشرق قاصرة عليهم وحدهم وكفوا ايدى العرب عن المحيط الهندى وبحر عمان والخليج (الفارسى) • وفى سنة ١٥٠٥م عين شخص اسمه فرانشيسكو دى الميدا (٢) نائبا لملك البرتغال فى الهند بعد فاسكو دى جاما ، وقد بقى فى منصبه حتى سنة ١٥٠٩م وفى هذه الفترة استطاع ان يثبت اقدام دولته ونفوذها فى الهند وذلك نتيجة للحروب البحرية التى خاضها ضد المصريين والسودانيين وضد الحكام المحليين الهنود وشرع فى تأسيس شركة تجارية على السواحل الغربية للهند •

وفى سنة ٩١٢ هـ (١٥٠٦م) ارسلت حكومة البرتغال احد بحارتها واسمه « تريستان داكونيا » (٣) مع ١٦ سفينة و ١٣٠٠ مقاتل ، كما أرسلت معه أحد بحارتها المشهورين واسمه « الفونسو دى البوكيرك (٤) » ليعاونه • وبعد مدة من التخبط والضياع استطاعت هذه السفن أن تصل الى موزمبيق ، ولكن بسبب الاختلافات التى وقعت بين القائدين على خط سير الرحلة واتجاهها وهدفها ، ترك دا كونيا جزءا كبيرا من السفن الى البوكيرك وجعله قائدا للبحارة واصدر

---

(٢) Francisco de Olmeda
(٣) Tristan de Cunha
(٤) aerhonso de Olbuquerque

اليه أمرا باسم ملك البرتغال كي يستولي على ميناء عدن وسواحل البحر الاحمر ويغلق طريق التجارة في وجه المسلمين عن هذا الطريق كما كان البوكيرك يحمل أمرا سريا بان يعزل فرانشيسكو دي الميدا بعد ٣ سنوات ويصبح هو نائب الملك وحاكم الهند من بعده ·

ولكن عندما وجد البوكيرك أن قواته غير كافية للاستيلاء على عدن قرر أن يستولي على جزيرة هرمز الواقعة على مدخل الخليج العربي وبهذا يضع يده على كل طرق التجارة بالخليج ·

كانت جزيرة هرمز حتي حوالي القرن الثامن الهجري تسمى «جرون» وكان يوجد ميناء اسمه «هرموز (٥)» على مقربة من ميناء ميناب الحالي على ساحل البحر عند (مضيق هرموز) وكان يعد الميناء التجاري لمناطق كرمان وسيستان ولم تكن به أهمية كبيرة في التجارة العامة انذاك ·

وذكر الرحالة والجغرافيون المسلمون مثل المقدسي والشريف الادريسي والاصطخري أن مدينة هرموز القديمة من آثار أردشير بابكان، وعدوها مركزا لتجارة كرمان ومعاملاتها وقالوا انه الى جانب الغلال والارز والعنب والنيلة التي كانت تمثل المحاصيل الرئيسية لكرمان والتي تصدر من هذا الميناء فقد كانت تصدر منه ايضا الخيول الكريمة الى الهند ·

---

(٥) جاء اسم هذا الميناء في كل الكتب القديمة هرموز أو هرموج بالواو ويبدو أن المقطع الاول من هذه الكلمه هو هور أو خور والتي تعني ميناء أو مرسى في اكثر اسماء سواحل بحر عمان والخليج مثل خور موسى وخور فكان وخور ببيان وغيره ،

كما انها قد تعني الخليج أو المستنقع مستعمله بكثره في العراق بهذا المعنى اما كلمة موز فهي تحريف او لهجة في كلمة موج وعلى هذا فالاسم يعني ميناء الموج ويلاحظ ان اسم موزه اسم شائع للبنات في الخليج وهو يعني موجه تاثرا بالبحر ·

وكتب ماركو بولو التاجر البندقي في رحلته وصفا لهرموز وأحوالها الاجتماعية والتجارية ، ومدح الخيول الايرانية الممتازة التى كانت تصدر من ميناء هرموز الى الهند كما وصفها الجغرافيون الاسلاميون ايضا •

ومنذ اواخر القرن الخامس الهجرى كان يحكم ميناء هرموز سلسلة من الامراء العرب ليس لدينا علم كامل عن مؤسسهم أو أول من حكم منهم ، وكل ما نعلمه أن الأمير الثانى عشر لهذه السلسلة وهو ركن الدين محمود وصل الى الامارة سنة ٦٤٤هـ • وكان أمراء هرموز يتبعون اتابكة فارس ثم القراختائيين فى كرمان ويدفعون لهم الخراج وبعد ذلك أطاعوا حكام المغول فى فارس والشيخ ابا اسحق اينجو وال مظفر (٦) • وفى سنة ٧٩٩ قبلوا الدخول فى طاعة الامير تيمور لنك ومع انهم كانوا مستقلين فى الظاهر ويحكمون جـــزر البحرين وبلاد عمان الا انهم كانوا دائما يدفعون الخراج لامراء فارس وكرمان •

وفى نحو عام ٧٠١هـ انتقل الامير بهاء الدين ابن الامين الخامس عشر لهرموز من ذلك الميناء الى جزيرة جرون مع جميع الاهـــالى وذلك بسبب هجوم المغول الجغتائيين (٦٩٩ ــ ٧٠٠ هـ) وغيروا اسم تلك الجزيرة الى هرمز ذكرى لوطنهم القديم واسسوا هناك مدينة جديدة •

وقد كتب الرحالة المسلمون والاوربيون كثيرا عن مدينة هرمز الجديدة ومن بينهم أحد الرحالة الاوربيين واسمه « فرير أوردوريك (٧)

---

(٦) آل مظفر حكموا شيراز وجنوب ايران ٧١٨ ــ ٧٩٥ هـ ، وأبو اسحق اينجو حكم شيراز فى منتصف القرن الثامن وينتسب الى ابى عبد الله الانصارى (المترجم) •

(٧) Frayer Odoric

وقد عاش فى النصف الاول من القرن الثامن الهجرى وزار هذه المدينة يقول « لمدينة هرمز سور وقلعة حصينة والجزيرة التى تقع فيها هذه المدينة تبعد خمسة أميال عن ساحل ايران ويوجد فى هذه الجزيرة بضائع قيمة مختلفة » ٠

وجاء بعده ابن بطوطة الرحالة المعروف الذى زار المدينتين القديمة والجديدة فى أواسط القرن الثامن فقال « وهرمز مدينة على ساحل البحر ، وتقابلها فى البحر هرمز الجديدة وبينهما فى البحر ثلاثة فراسخ ، وهرمز الجديدة جزيرة مدينتها تسمى جرون وهى مدينة حسنة كبيرة لها اسواق حافلة وهى مرسى الهند والسند ومنها تحمل سلع الهند الى العراقين وفارس وخراسان وبهذه المدينة سكنى السلطان، وطعامهم السمك والتمر المجلوب اليهم من البصرة وعمان ، والماء فى هذه الجزيرة له قيمة وبها عيون ماء وصهاريج مصنوعة يجتمع فيها ماء المطر » (٨) ٠

ووصف الرحالة الاوربيون الذين زاروا جزيرة هرمز فى القرن العاشر الهجرى هذه الجزيرة بالجمال ورواج التجارة وكتب احدهم يقول « أحيانا كان يجتمع فى مرساها اكثر من ثلثمائة سفينة من الدول المختلفة ، ويقيم فى هذه المدينة اربعمائة تاجر بصفة دائمة واكثر تجارة هرمز هى اللؤلؤ والحرير والاحجار الكريمة والتوابل (٩) » ٠

وكتب آخر يقول « جزيرة هرمز اكثر جفافا من كل جزر العالم ولا يوجد فى أرضها غير الملح ويأتون بأغذية أهلها وما يحتاجونه من ايران ويشاهد فى هذه المدينة تجار كثيرون من مختلف الامم يعملون فى تجارة التوابل والاقمشة الحريرية والسجاد الايرانى

---

(٨) مهذب رحله ابن بطوطه ص ٢١٥ ٠
(٩) رحلة لودفيج وارتمان Ludovig Wartheman
الذى زار الجزيره عام ٩٠٩ أى قبل حمله البرتغاليين ٠

ويحضرون الى جزيرة هرمز لآلىء كثيرة من البحرين ، وترسل الخيول الايرانية الاصلية المصدرة الى الهند الى هذه الجزيرة اولا (٢٠) » ٠

وقد اشتهرت جزيرة هرمز في ذلك الوقت في أوربا بالجمال والثروة والعظمة حتى مدحها لويز فان دي كاموئنز (١١) الشاعر الوطنى البرتغالى المشهور فى منظومته لوسياد فقال « ايران هذه الدولة العظيمة ذات المفاخر ورجالها الابطال الشجعان الذين يتباهون بقوة سواعدهم الحديدية الضاربة بالسيف وكذلك جزيرة جسرون اعجوبة العصر التى أصبحت في الشهرة والجاه مكان المدينة القديمة لاتبعدهما عن ذكراها » ٠

وكانوا يقولون فى الشرق على سبيل المثل « اذا كانت الدنيا خاتما فان هرمز هى فصه » وظلت مدينة هرمز الجديدة نحو مائتى عام ذات أهمية واعتبار وقوة وحينما استقر امراء هرموز القديمة فى جزيرة جرون أخذوا يبسطون نفوذهم شيئا فشيئا على جزر كيش (قيس) والبحرين وحدود البصره (١٢) ٠

---

(١٠) رالف فيتش Ralph Fitch الرحالة والتاجر الانجليزى الذى جاء الى جزيرة هرمز حوالى ٩٨٦ هـ (يرجع الى كتاب الخليج الفارسى تاليف سير ارنولد ويلسن طبع ١٩٢٨) ٠

(١١) لويز فان دى كاموئنز Luiz Van de Camoens من شعراء البرتغال المشهورين ويعدونه مثل هوميروس اليونانى وفرجيل الرومانى ولد ١٥٢٥ م (٩٣١هـ) وتوفى ١٥٨٠ (٩٨٨ هـ) وعاش حياته فى الهند والصين ومنظومته لوسياد Lusiades من اشهر الاعمال الادبية الاوربية ٠

(١٢) كتب الامير الحادى والعشرون لجزيرة هرمز والمدعو نورانشاه بن قطب الدين تهمتن كتابا فى تاريخ ايران وتاريخ امراء هرمز وحكومته وأسرته بالنثر والشعر الفارسى ويظهر انه كان يسمى « شاهنامه » وقد نقل أحد الرحالة البرتغاليين وهو بدرو تكسيرا Pedro Texreira والمولود ١٥٧٠ م (٩٧٧ هـ) مختصرا من هذا

=

حملة الفونسو دى البوكيرك على جزيرة هرمز :

سبق أن ذكرنا أن الفونسو دى البوكيرك توجه الى الخليج فى عام ٩١٣ هـ (١٥٠٧م) مع ست سفن للاستيلاء على هرمز ، فاستولى فى طريقه على مدينة مسقط على الساحل العمانى والتى كانت مدينة كبيرة كثيرة السكان وتدفع الخراج لامير هرمز ، كما استولى على بعض موانى عمان واشعل فيها النار ثم القى مراسيه فى مواجهة مدينة هرمز الجديدة ، وحينما رأى مرافقوا البوكيرك عظمة مدينة هرمز وسفنها الحربية وجيشها المجهز الذى استعد على الساحل شعروا بالخوف وترددوا فيما هم مقدمون عليه ٠

فى ذلك الوقت كان أمير هرمز غلاما عمره ١٢ عاما اسمه سيف الدين ، وكان أحد رجاله يسمى العطار وكان قديرا شجاعا يتولى حكم الجزيرة كنائب للأمير ، وحينما علم هذا الرجل بحملة البوكيرك جمع على الساحل اربعمائة سفينة بين صغيرة وكبيرة مع الفين وخمسمائة مقاتل كما استأجر من الدول المجاورة مثل ايران والجزيرة العربية كثيرا من الرجال المحاربين وجهز جيشا من ٣٠ الف رجل مسلح كان من بينهم أربعة آلاف نابل ماهر (١٣) ٠

ابتداء البوكيرك فطالب من أمير هرمز أن يخضع لملك البرتغال ويدفع له الخراج ، فلم يقبل العطار طلبه ومع كثرة جند العطار وقلة

==

الكتاب فى وصف رحلته الذى طبع سنة ١٦١٠ م (١٠١٩ هـ) فى مدينة انفرس البلجيكية وترجم وطبع فى باريس سنة ١٦٨١ م ولكن هذا الموجز لا يفيد كثيرا فى تاريخ هرمز ولكن يعلم منه أن الامير الثانى عشر لهرمز كان يسمى ركن الدين محمود وحكم لمدة ٣٥ عاما ، ويبدو أن امارته كانت معاصره لرحلة ماركوبولو حوالى عام ١٢٩٢م (٦٩١ هـ) وزار تكسبيرا هرمز مرتين الاولى من ١٥٩٣ الى ١٥٩٧ والثانية عام ١٦٠٣ م ٠

(١٣) نابل أى الذى يستعمل النبال والسهام ٠

قوات البوكيرك الا أنه أصدر أمرا بالقتال وقد انتصر في حربه وذلك بسبب استخدامه للمدافع والبنادق والأسلحة النارية ، وبهذا أصبح أمير هرمز تابعا لحكومة البرتغال ، وأخذ منه خمسة آلاف اشرفي ــ وهو العملة المستعملة في الخليج انذاك ــ كغرامة حربية . كما تقرر أن يدفع كل عام مبلغ ١٥ الف اشرفي كخراج لحكومة البرتغال ، وعقد مع أمير هرمز اتفاقية بألا يأخذ عن البضائع والتجارة البرتغالية اية جمارك اكثر من مبلغ معين كما تقف تجارة هرمز من دفع الجمارك في البرتغال ، ومنع أية سفينة محلية من الاشتغال بالتجارة في الخليج دون تصريح من المسئولين البرتغاليين كما تقرر أن يقيم قلاعا في الجزر القريبة مثل قشم (طويلة) ونايند وغيرها كما اختير موقع قلعة موروتا في جزيرة هرمز حيث أقيمت هذه القلعة الحصينة في اكتوبر ١٥٠٧م (جمادى الثاني ٩١٣هـ) ، كما أسست شركة تجارية كبيرة في مدينة هرمز وأرسل اليها مقدار كبير من البضائع وأمر البوكيرك بخفض الأسعار تخفيضا كبيرا استمالة لأهل الجزيرة .

بعد فترة وجيزة من هذه الأحداث طالب الشاه اسماعيل الأول ملك ايران بالخراج السنوى المعتاد من أمير هرمز ، فاضطر الأمير للاستعانة بالبوكيرك الذى أرسل الى شاه ايران يقول « لقد استولينا على هرمز بقوتنا وقدرتنا وهى مملوكة لجلالة دون ايمانويل ملك البرتغال (١٤) وليس لأمير هرمز حق دفع الخراج لملك غيره والا فانني ساخلعه من امارة الجزيرة ونجلس مكانه شخصا لايخشى ملك ايران » ــ ثم أعطى لمبعوث امير هرمز بعض طلقات المدافع والبنادق والبارود وقال له « قل لأميرك أن يرسلها الى الشاه اسماعيل بدل الخراج لأن ملك البرتغال أمرنا الا نجيب الأعداء الا بمثل هذه الاشياء ، وبعد

---

(١٤) Dom Manoel (Don Emwanuel) المعروف بالسعيد والذى ملك من ١٤٩٥ الى ١٥٢١م (٩٠١ ــ ٩٢٨هـ) .

أن أنتهى من قلعة هرمز فسوف أهجم على سواحل الخليج الفارسية ونستولى على كل موانيها وبلدانها الساحلية التى تخضع الآن للشاه اسماعيل ونضمها لاسم ملك البرتغال (١٥) ·

وفى عام ٩١٤هـ (١٥٠٨م) اضطر البوكيرك لترك جزيرة هرمز وذلك بسبب الخلافات الشديدة التى ظهرت بين الملاحين وكبار ضباط البحرية البرتغاليين وعاد الى الهند وانصرف عن متابعة فتوحاته فى الخليج · وحينما عزل الميدا فى عام ٩١٥هـ (١٥٠٩م) من منصب نائب الملك فى الهند جلس البركيرك مكانه ·

ولقد اضطر البوكيرك لعدم مغادرة الهند لمدة ٣ سنوات وذلك بسبب الضطرابات التى حدثت فى جوا مركز المستعمرات البرتغالية فى الهند · وفى عام ٩١٨هـ توجه للاستيلاء على ميناء عدن ومدينة مكة ولكنه لم يتمكن من تحقيق هدفه واكتفى بالحصول على الخراج من جزيرة هرمز ·

وفى العام التالى وصل أمر من ملك البرتغال لكى يقوم بالاستيلاء على عدن وباب المندب ويفتح البحر الاحمر فى وجه السفن البرتغالية وقد ذهب البوكيرك هذه المرة فى عشرين سفينة كبيرة والفين وخمسمائة من الجنود الى ميناء عدن ولكنه لم يتمكن من تحقيق شىء وعاد يائسا للهنــــد ·

بعد عودة البوكيرك الى الهند جاءه سفير من قبل الشاه اسماعيل الأول الصفوى وعقد معه معاهدة صداقة (١٦) · وفى نفس العام

---

(١٥) مذكرات الفونسو دى البوكيرك ، نقلا عن كتاب الخليج الفارسى بالانجليزية تأليف السير ارنولد ويلسون ·

(١٦) لايوجد فى المرجع الاوربية اسم لهذا السفير ولا تفصيلات عن هذه المعاهدة كما أن المصادر الايرانية ليس فيها اشارات الى مثل هذه المعاهدة ·

أرسل البوكيرك ابن اخيه مع بعض السفن لاخضاع عرب عدن الذين كانوا قد اعتدوا على المستعمرات البرتغالية ، وبعد أن استولى هذا القائد على بعض سفن العرب التجارية ذهب في ربيع الاول سنة ٩١٩هـ (١٥١٣م) الى جزيرة هرمز لتحصيل خراجها ولكن توران شاه أمير الجزيرة امتنع عن دفع الخراج له لأنه كان قد دخل في حماية الشاه اسماعيل الأول فاضطر للعودة للهند ٠

بعد عودة هذه الحملة صمم الفونسو دى البوكيرك على الذهاب بنفسه الى جزيرة هرمز لتثبيت دعائم السيطرة البرتغالية عليها ، ولهذا اتجه في شهر محرم سنة ٩٢١هـ (فبراير ١٥١٥م) مع ٢٦ سفينة و٢٢٠٠ جندى الى الخليج ، وفى الطريق بلغه انه حدث انقلاب فى الجزيرة وأن الوالى الايرانى على مسقط واسمه الرئيس احمد قد استولى على الجزيرة وسجن أمير هرمز ، ولهذا أسرع فى الوصول الى الجزيرة واخذ فى اطلاق النار على المدينة فاضطر الرئيس احمد من الخوف الى اطلاق سراح توران شاه أمير هرمز وتصالح مع قائد الاسطول البرتغالي ، واستطاع الجنود البرتغاليون الاستيلاء على قلعة المدينة بسهولة ورفعوا العلم البرتغالي فوق قصر امير هرمز ٠

بعد هذه الأحداث بفترة قصيرة جاء سفير اخر من قبل الشاه اسماعيل الأول الصفوى الى البوكيرك ، وعقدت اتفاقية بين الدولتين بالشروط التالية :

١ ـ تقوم القوات البحرية البرتغالية بمساعدة الحكومة الايرانية فى اخماد الانقلابات التى تحدث على سواحل بلوشستان ومكران ٠

٢ ـ تقوم القوات البحرية البرتغالية بمساعدة الحكومة الايرانية فى غزوها للبحرين والقطيف ٠

٣ ـ تتحد الحكومتان الايرانية والبرتغالية فى حربهما ضد الاتراك العثمانيين بالاضافة الى هذا فقد تغاضى الشاه اسماعيل

الصفوى عن جزيرة هرمز ووافق على أن يكون أمير هرمز بعد ذلك تابعا لملك البرتغال ويدفع له الخراج ولا تتدخل ايران في أمـــور تلك الجزيرة ٠

في هذا العام اختار البوكيرك ابن اخيه برف لقيادة القوات البرتغالية في هرمز وعاد هو الى الهند وبعد وصوله الى ميناء جوا توفى في ١٥ ديسمبر ١٥١٥م (ذى القعدة ٩٢١هـ) ٠

احوال جزيرة هرمز من وفاة البوكيرك حتى عصر الشاه الصفوى عباس الأول ٠

منذ وفاة الفونسو دى البوكيرك وحتى عصر الشاه عباس الاول أى الى أواخر القرن العاشر الهجرى كان لحكومة البرتغال نفوذ قوى في الخليج ، وكانت سفنهم تحتكر التجارة مع اكثر موانى جنوب ايران وسواحل الجزيرة العربية حتى البصرة عن طريق هرمز التى كانت مركزا لتجارتهم في انحاء الخليج ٠ وكان نفوذهم يزداد يوما بعد يوم في هذه الفترة على سواحل ايران ولكن مراكز التجارة في بحر عمان والخليج مثل مسقط وهرمز والبحرين كانت تتلاشى وتضمحل نتيجة لظلمهم وطمعهم ٠

بعد وفاة البوكيرك تولى نيابة الملك رجل اسمه لوبو سواريز (١٧) وفى اثناء فترة حكمه استولى مساعدوه على جمرك جزيرة هرمز بأمر من « دى مانول » ملك البرتغال (٩٢٩هـ ـ ١٥٢٢م) ٠ وقد حدثت اضطرابات شديدة بسبب ظلمهم في جزيرة هرمز والبحرين وسواحل مسقط وبعض مناطق الخليج الاخرى قتل فيها بعض حراس القلاع البرتغاليين ـ وفى وسط هذه الاحداث تجرأ امير هرمز وحاصر القلعة البرتغالية في الجزيرة ولكن وصلت الى حراس القلعة مساعدات من

---

(١٧) Lopo Soarez

سقط ولهذا أضرم الامير النار في المدينة لخوفه من الانتقام وهرب الى جزيرة قشم حيث قتل هناك وتولى ابنه الامير محمد شاه الذى كان في الثالثة عشرة من عمره الامر من بعده ٠

بعد ذلك عقد نائب الملك الجديد في الهند وكان أسمه « دوم دورات دى منزيس » معاهدة مع الامير الجديد على شاطىء نهر ميناب واعترف أمير هرمز مرة أخرى بسيطرة ملك البرتغال على هذه الجزيرة وباقى ممتلكاته (رمضان ٩٢٩ هـ ـ يوليو ١٥٢٣ م) ٠

كانت هذه الاحداث مقارنة لوفاة الشاه اسماعيل الاول الصفوى وتولية ابنه طهماسب (*) الاول ، ولم تتخذ في عهد هذا الملك (طهماسب) اية اجراءات من قبل ايران للاستيلاء على جزر هرمز وقشم والقضاء على نفوذ البرتغاليين فيها وفى باقى موانى جنوب ايران لانه انشغل طيلة حكمه بالحرب في الولايات الغربية ضد عدوه العثمانى القوى السلطان سليمان القانونى ، او كان مشغولا برد هجمات الازبك التركمان على خراسان ولم تتح له الفرصة ليتوجه للسواحل الجنوبية ٠

ومن ناحية أخرى فان القوات البحرية البرتغالية فى المحيط الهندى وبحر عمان والخليج آنذاك لم يكن لها نظير او منافس ، وكانت هذه الدولة تستولى على كل مراكز التجارة الهامة في الهند وسواحل بحر عمان والخليج بواسطة اسطولها البحرى وكان استرداد جزر وموانى ايران الجنوبية ممكنا في وقت من الاوقات لو أن حكومة ايران اهتمت باعداد سفنها الحربية وقواتها البحرية أو استعانت بحكومة يمكن أن تتساوى مع البرتغال قوة فى البحر ، ولم يتخذ أى من هذين الاجراءين فى عصر الشاه طهماسب الاول ومن بعده أيضا ٠ وظل البرتغاليون دون رقيب أو منافس حتى جاءت السفن الهولندية والانجليزية الى المحيط الهندى وبحار جنوب ايران ٠ وكان العثمانيون فقط يعكرون عليهم حريتهم التجارية من وقت الى آخر ٠

(*) تولى ٩٣٠ هـ ٠

وبعد معاهدة ميناب قام منزيس نائب الملك فى الهند باعادة أمير هرمز الى الجزيرة وعاد هو محملا بغنائم كثيرة الى الهند ، ولكن حين عودته علم أن دوم فاسكو دى جاما (١٨) عين مكانه نائبا للملك . وبعد فاسكو دى جاما عين شخص اسمه لوبو فاز (١٩) ثم تولى هذا المنصب نانو دا كونيا (٢٠) الذى جاء الى سواحل الخليج وجزيرة هرمز فى ٩٣٥ هـ (١٥٢٩ م) ليطلع على أحوال المستعمرات البرتغالية

وفى العام التالى ايضا جاء الى هرمز أحد القواد البرتغاليين واسمه تافاريز دى صوصا (٢١) وكان قد عين عاملا على نواحى البصرة . وكان ملك البرتغال قد كلف هذا القائد بمساعدة حاكم البصرة فى حربه ضد امير الجزيرة (٢٢) ولكن حين امتنع امير البصرة عن تسليم سبع سفن كان قد استولى عليها الى القائد البرتغالى، كما لم يمنع تجارة العثمانيين فى ميناء البصرة فقد أحرق دى صوصا جزءا من ممتلكات هذا الامير ثم ذهب الى هرمز . ويجب أن تعد هذه الحادثة أول حمله برتغالية للجزء العلوى من الخليج . وفى ذلك العام ايضا أرسل نائب الملك فى الهند سفنا الى جزيرة البحرين ، يث كانت قد قامت ثورة ضد أمير هرمز ولكن السفن البرتغالية هزمت وعادت للهند .

وفى عام ٩٤٩ هـ (١٥٤٢م) لم يستطع أمير هرمز دفع الخراج لنائب الملك فى الهند كما لم يستطع ايضا دفع مبلغ خمسمائة الف

---

(١٨) Dom Vasco de Gama
(١٩) Lopo Vaz
(٢٠) Nuno de Cunha
(٢١) Tavarez de Sausa
(٢٢) يبدو أن المقصود هو امير جزيرة الخضر أو عبدان من جزر مصب شط العرب .

دوكات (حوالي ١٢٠٫٠٠٠ دولار) كانت قد اقرضت له ، ولهذا فان مارتيم دى الفونسو (٢٣) نائب الملك في الهند تغاضى عن المبالغ القديمة واتفقوا على أن يجمع البرتغاليون دخل جمارك جزيرة هرمز، ولما كانت مستحقات حكومة البرتغال تحصل منذ ذلك الوقت من دخل الجمارك فان الخراج المستحق لها لم يتأخر دفعه أو تحصيله بعد ذلك ٠

وقد ابتدأت الحرب بين الاتراك العثمانيين والحكومة البرتغالية في الخليج منذ عام ٩٥٧ هـ (١٥٥٠م) لانه في تلك السنة سلم عرب القطيف قلعتهم هناك الى الاتراك كما أخرجوا أمير البصرة من مقر امارته ، فاضطر أمير البصرة الى طلب المساعدة من الفونسو دى نورونيا (٢٤) نائب الملك الجديد في الهند في مقابل موافقته على اقامة البرتغاليين لقلعة في ميناء البصرة ، وقد أرسل نائب الملك ١٩ سفينة وألف ومائتي مقاتل بقيادة انطونيو دى نورونيا لمساعدة أمراء القطيف والبصرة ، وبعد أن دمر نورونيا قلعة القطيف توجـه الى البصرة ولكن احد باشاوات الاتراك خدمه وأعاده الى هرمز ولم يستطع استرداد البصرة ٠

وفي نفس هذه السنة ارسلت الحكومة العثمانية احد قوادها واسمه بير بك على رأس ١٦ الف جندى وبضعة سفن الى الخليج وانتصر بير بك على السفن البرتغالية التي ارسلت لمحاربته انتصارا ساحقا واستولى على ميناء مسقط بعد أن حاصره ١٨ يوما ، كما أسر القائد البرتغالي ، ومن هناك ذهب الى جزيرة هرمز وهو يحمل كثيرا من الغنائم الحربية وهاجمها ، ولما لم يستطع فتح قلعتهـا البرتغالية نهب المدينة وذهب الى جزيرة قشم ومنها عاد للاراضي العثمانية محملا بغنائم وافرة ولكنه قتل في القسطنطينية عام ٩٥٩هـ

---

(٢٣) Martim de Alfonso
(٢٤) Alfanso de Noronha

بعد حملة بير بك ارسلت الحكومة العثمانية قائد آخر اسمه مراد بك مع ١٥ سفينة حربية الى الخليج ودارت حروب شديدة بين السفن العثمانية والسفن البرتغالية على السواحل الايرانية وبعد عام واحد تمكن البرتغاليون من القضاء على السفن التركية التى كان يتولى قيادتها قائد اسمه على شلبى ، وبعد هذا استردوا سلطتهم المطلقة على سواحل الخليج ٠

وقد أعاد العثمانيون الهجوم عدة مرات على جزر البحرين وميناء مسقط وبعض موانى الجزيرة العربية الاخرى التى كانت خاضعة للبرتغاليين ولكن هذه الحملات لم تكلل بالنجاح وفى هذه الاثناء اندلعت الحرب بين والى لار وأمير هرمز واستطاع أمير هرمز أن ينتصر على والى لار بمساعدة البرتغاليين واستولى على قلعة شميل التى كانت تحت سيطرته ٠

كانت العلاقات البرتغالية الايرانية فى عهد الشاه طهماسب الاول (٩٣٠ ـ ٩٨٤ هـ) فى ظاهرها ودية وليس فى أيدينا تفصيلات كاملة عنها ولكن ما نعلمه هو أن دون سباستيان ملك البرتغال (١٥٥٧ ـ ١٥٧٨ م) أرسل السفراء الى بلاط الشاه طهماسب الاول مرتين الاولى سنة ٩٥٨ هـ (١٥٥١م) والثانية سنة ٩٨٢ هـ (١٥٧٤ م) عن طريق جزيرة هرمز وكانوا محملين بالهدايا والتحف ٠ وقد وصل سفير الملك سباستيان ـ الذى كان من عظماء البرتغال ـ فى كثير من الابهة والعظمة الى ايران حتى أن معاونيه ـ غير المرافقين والخدم ـ كانوا خمسين شخصا ، ولكن الشاه طهماسب استقبل هذا السفير ببرود لان المسئولين البرتغاليين فى جزيرة هرمز كانوا يسيئون للمسلمين هناك ولم يسمحوا لهم باقامة مسجد ، ولم يأذن لهذا السفير ومرافقيه بالعودة حتى وفاته سنة ٩٨٤ هـ ، ولم يسمح لهم بالعودة الا فى عهد ابنه الشاه محمد خدا بنده ٠

وفي سنة ٩٨٨ هـ (١٥٨٠ م) أى في السنة الرابعة من ملك محمد خدابنده ضمت البرتغال لاسبانيا وظلت تابعة لها الى سنة ١٠٥٠ هـ (١٦٤٠م) أى الى العام الثالث من حكم الشاه صفي ٠

بعد ان استولى فيليب الثاني ملك اسبانيا الذى كان شديد التعصب للمذهب الكاثوليكي على البرتغال رأى ان يرسل سفيرا الى ايران لثلاثة اسباب :

الاول — ان يمنح شاه ايران لاتباع المذهب الكاثوليكي حرية دينية في كل ايران ٠

الثاني — الا يكف يده عن عداوة وقتال العثمانين ٠

الثالث — أن يمنح الرعايا الاسبان امتيازات تجارية ٠

ولهذا أرسل الى دوم مسكارينيا دى سانتا كروز (٢٥) نائبه في الهند امرا لكي يرسل رجلا لائقا كسفير الى البلاط الايراني ، ولكن نظرا لان الاوضاع المالية لنائب الملك في البلد انذاك لم تكن تسمح بارسال سفير عظيم وتحمل نفقاته الباهظة ، لهذا رأى المجلس الاستشاري لنائب الملك ان يرسل قسيسا اسمه الاب سيمون مورالس(٢٦) كان يعرف الفارسية ويتحدث بها ، وقد استقبل الشاه محمد هذا المبعوث بالترحاب وأمره أن يدرس علوم الرياضة والفلك لابنه الاكبر حمزه ميرزا ٠ وقد تغاضى الشاه محمد خدابنده عن المفاوضات الودية والصلح مع الاتراك بناء على طلب هذا القسيس ٠ ولكي يوطد أوامر الصداقة بين ايران واسبانيا فقد أرسل الشاه محمد خدا بنده سفيرا من ايران مع القسيس الاسباني أثناء عودته وقد توجه السفير الإسباني وسفير ايران الى أوربا على ظهر سفينة اسمها « رحلة سعيدة » ولكن هذه السفينة — على غير ما يتوقع من اسمها — تعرضت لعاصفة على الساحل الشرقي لافريقيا ، وحملت جميع مسافريها الى العالم الاخر ٠

---

(٢٥) Dom Mascarenha de Sonta Cruz

(٢٦) Pere Simon Morales

العلاقات الايرانية الاسبانية في عهد الشاه عباس الكبير

اتسمت العلاقات الايرانية مع الدول الاوربية فى عهد الشاه عباس الاول وجاء كثير من السفراء من قبل ملوك اوربا ، أو سافروا من ايران الى أوربا لعقد معهدات سياسية ضد الاتراك العثمانيين أو معاهدات تجارية بين دولهم وايران ٠

ففي سنة ١٠٠٧ هـ (١٥٩٩م) جاء الى ايران قسيسان برتغاليان احدهما من جماعة الفرنسيسكان (١) واسمه الفونسو كورديرو (٢) والثانى من جماعة الدومينيكان (٣) واسمه نيكولاو دى ميلو (٤) وذلك عن طريق جزيرة هرمز وقابلا الشاه عباس فى مدينة اصفهان وقدم نيكولاو دى ميلو نفسه على أنه اسقف هرمز والمندوب الخاص لبابا روما وملك اسبانيا وقد قابل الشاه عباس هذين القسيسين بكثير من المحبة والعطف ومنح نيكولاو دى ميلو صليبا من الذهب مكللا بالماس والفيروز والياقوت واستفسر منه عن الدين المسيحي والمركز الدينى للبابا ٠ وقد كتب جورج مانورينج أحد مرافقى الاخوين شيرلى عن هذين القسيسين فقال « جاء قسيس من جماعة الفرنسيسكان الى اسفهان وقال للسير انتونى اننى كمسيحى ارجوك انا ورفيقى من

---

(١) الفرنسيسكان أو الاخوة الدينيون الصغار Les freres Mineurs احدى الفرق الكاثوليكية التي أسسها القديس فرانسوا دى اسيس Saint francois d' Assise عام ١٢٠٨م (٦٠٤هـ) من رجال الدين المعروفين بهدف التبشير للمسيحية ٠

(٢) Alfonso Cordero

(٣) فرقة الدومينيكان أو الاخوة المبشرين Les freres prècheurs احدى الفرق الكاثوليكية التى اسسها القدس دومينيك سنة ١٢١٥م (٦١١هـ) ٠

(٤) Micolao di Melo

جماعة الدومينيكان واسقف هرمز أن تحصل لنا من الشاه عباس على اذن بأن نسافر ونتجول فى مملكته بملابسنا الدينية ولا يتعرض لنا احد ، فقبل السير انتونى رجاءه ، وحصل له على أمر من الشاه عباس كما أراد ، وفى اليوم التالى رافق القسيس لمقابلة الشاه وقد استقبلهما الشاه عباس بحفاوة بالغة تكريما للسير انتونى شيرلى وسأل نيكولاو دى ميلو قائلا « من اين جئت وأى الدول شاهدت ؟ » .

اجاب القسيس « أن البابا أرسلنى نائبا عنه الى دول الشرق »

فقال الشاه عباس « ماذا تعنى كلمة البابا ؟ رغم انه كان يعرف تماما معناها ولكنه تعمد أن يظهر على غير علم .

فأجابه القسيس « أن البابا هو خليفة المسيح فى هذا العالم وهو يغفر ذنوب الناس » فقال الشاه « على هذا يجب ان يكون البابا عجوزا جدا لانه يعيش منذ أيام المسيح حتى الان ويخلقه .

فأجاب القسيس « ليس هكذا ، فقد تعاقب كثير من البابوات منذ زمن عيسى .

فقال الشاه « على هذا يجب أن يكون البابوات من البشر مثلنا وولدوا فى ايطاليا أو فى مدينة روما » .

فرد القسيس « نعم هو هذا » فسأله الملك « ألم يتكلموا اطلاقا مع الله أو عيسى ؟ » فأجابه «لا» .

فقال الشاه « اذن كيف يغفرون ذنوب الناس ؟ اننى لا أعتقد أن شخصا يمكنه غفران ذنوب الناس من دون الله ، اما فيما يتعلق بعيسى عليه السلام فاننى اعترف انه رسول كريم ولا شك انه هو الاخر يمكنه غفران ذنوب الناس وقرأت فى الكتب انه كانت له فى هذا الشأن معجزات عظيمة ، وانه بغير اب اذ أن أمه حملته من نفس أحد الملائكة ، كما اننى اعرف قصة صلبه ولهذا فاننى اكره اليهود » .

وبعد أسبوعين أي في منتصف ذي الحجه عام ١٠٠٧ هـ سمح لهما بالعودة الى بلدهما مع السير انتوني شيرلي الانجليزي ـ الذي سنتحدث عنه فيما بعد ـ وحسين علي بك بيات أحد قواده المعروفين والذين بعثهما الى الدول الاوربية ومن بينها اسبانيا لعقد معاهدات سياسية ضد الاتراك العثمانيين ٠

سفارة السير انتوني شيرلي الى البلاط الاسباني

بعد أن قضى الشاه عباس على وجوه الاوزبك في خراسان عام ١٠٠٧ هـ واطمأن على هذه الناحية عاد الى اصفهان وقرر ان يدخل في حرب مع العثمانيين لكي يسترد الاقاليم (٥) التي اضطر في بداية ملكه للتنازل عنها لتلك الدولة ، وبعد أن اعانة الاخوان شيرلي ورفاقهما علي تنظيم الجيش وصنع المدفعية والبنادق والاسلحة الاوربية الحديثة رأى ان يتحد مع الملوك المسيحيين في اوربا ضد الدولة العثمانية ٠ وفي ذي الحجة عام ١٠٠٧ هـ ـ كما سبقت الاشارة الى هذا ـ أمر احد قواده القزلباشية وهو حسين علي بك بيات أن يسافر الى اوربا كمبعوث له ، وطلب من السير انتوني شيرلي أن يكون دليلا لسفيره ويرافقه في سفره الى اوربا ٠ وكان الشاه عباس يرمي الى هدفين من وراء ارسال السفير :

أولهما ـ ان يتحد مع ملوك اوربا ضد الدولة العثمانية ٠

وثانيهما ـ ان يعقد معهم معاهدات لبيع حرير ايران الذي كان يحتكره شخصيا ٠

ومن البديهي أن الشاه عباس كان مهتما بالهدف الاول وهو استرداد الاقاليم التي فقدتها ايران ٠ اما اقتراح الموضوع الثاني فكان في الحقيقة لاغواء الحكام الاوربين وجلب موافقتهم على الهدف الاول لان اسعار الحرير الايراني في موانئ الخليج كانت ارخص كثيرا

منها فى الموانى العثمانية على شاطىء البحر المتوسط ، ولما كان للحرير سوق رائجة فى أوربا فقد كانت الدول الاوربية ترغب فى أن تختص هى بتجارته ·

كان قيصر روسيا ايفان الرابع (المرعب) (٥) ، والملكة اليزابيث ملكة بريطانيا قد ارسلا السفير انتونى جينكينسان (٦) لفتح باب التجارة بين ايران واوربا عن طريق روسيا فى عصر الشاه الاول جاء بعض السفراء من روسيا لهذا الغرض ولكن حتى ذلك الوقت لم يكن هدفهم قد تحقق تحققا كاملا ، وكانت التجارة الايرانية ترسل الى اوربا عن طريق الاراضى العثمانية اى من تبريز الى طرابزون على البحر الاسود او من بغداد الى حلب ، ومنذ أن استولى البرتغاليون على جزيرة هرمز افتتح الطريق البحرى عن طريق الخليج ، ولكن رجال الحكومة البرتغالية كانوا يريدون أن يصبح شراء البضائع الايرانية وتجارتها عن طريق الخليج فى ايديهم وحدهم ، ولهذا لم يسمحوا لاى ايرانى قط أن يرسل الحرير أو اية بضائع ايرانية الى الهند أو اوربا عن طريق الخليج مباشرة وعن غير طريقهم حتى أن شاه ايران نفسه لم يستطع أن يصدر حرير جيلان الذى كان يحتكره شخصيا عن طريق الخليج ، ولهذا كان الطريق الوحيد لتصدير التجـــارة الايرانية الى اوربا هو طريق التجارة المزومى اى الاراضى العثمانية، وكان التجار الايرانيون يضطرون لدفع مبلغ كبيرة جدا لرجـــال الحكومة العثمانية كرسوم جمركية ورسوم مرور ·

والى جانب أن هذه الطرق العثمانية كانت اثناء فترات الصداقة بين الدولتين مملوءة بالاخطار بسبب قطاع الطرق فانها اثناء الحروب

---

(٥) ٩٣٦ ــ ٩٩٢ هـ (١٥٢٩ ــ ١٥٨٤م) Ivan IV,le terrible

(٦) Anthony Jenkinsan

كانت تغلق تماما ولا يبقى طريق للتجارة بين ايران واوربا ·

لهذه الاسباب رأى الشاه عباس أن ارسال سفير الى بلاط ملوك اوربا أمر ضرورى ـ وكما سبق ان ذكرنا ـ كلف حسين على بك بيات والسير انتونى شيرلى بهذه السفارة ، ومع أن السير انتونى شيرلى كان فى الظاهر دليلا لحسين على بك الا انه فى الواقع كان قرينا ومساويا للسفير القزلباشى ، وقد اعطى الشاه عباس للسير انتونى خطابات اعتماد خاصة تقدمه الى ملوك الفرنج ـ أى البابا وامبراطور المانيا وملكة انجلترا وملوك اسكتلندا واسبانيا وفرنسا وبولندا وحكومة جمهورية البندقية ـ على أنه مبعوثه الخاص ، وفى أحد خطابات الاعتماد هذه كتب :

« أيها الملوك الذين تتبعون دين عيسى ، اعلموا أن سبب الصداقة بيني وبينكم هو هذا الرجل (يقصد سير انتونى شيرلى) ولا شك اننا كنا نريد صداقتكم قبل هذا ولكنه هو الذى أرشدنا الى طريق الصداقة ورفع حواجز الغربة ، وقد جاء هذا الرجل الينا برضاه ، وبناء على ما رآه وارتضاه أرسلنا معه أحد رجال بلاطنا اليكم ونحن نعده فى ايران مثل أخ عزيز ونأكل معه فى طبق واحد ونشرب من كأس واحدة ، وعلى هذا فعندما يصل اليكم فيجب أن تنظروا اليه على أنه مندوبنا الخاص وتقوموا بما يقول أو يطلب ···· وعندما يعبر البحر (بحر قزوين) ويضع قدمه على أرض الملك الموسكوى (الروسى) العظيم الذى نتحد معه ونعده كأخ لنا ، فيجب على حكام تلك الدولة جميعا أن يسيروا معه حتى يوصلوه الى موسكو (٦) » ·

---

(٦) كتب شارل شيفر فى مقدمته على كتاب رحلة رفايل دو مانس يقول « ان الملك عباس كان يريد من انتونى شيرلى أن يذهب فقط الى انجلترا ولكن شيرلى رأى انه من الافيد أن يتحد مع كل الملوك المسيحين

وعلى هذا يمكن القول أن السفير الحقيقي للشاه عباس كان هو السير أنتوني شيرلى كما كان يعتقد هو نفسه ٠

وكانت جميع رسائل الشاه عباس الى ملوك وحكام أوربا تشتمل تقريبا على النقط والشروط والموضوعات التالية :

١ ـ يفتح شاه ايران باب الصداقة والاتحاد بسبب اهتمامه بالدول المسيحية ورعاياها ، وكذلك لكراهيته للعدو المشترك لهما وهو الاتراك العثمانيين ٠

٢ ـ يرغب في الاطمئنان على انه اذا دخل في حرب مع هذا العدو المشترك لهما فان عبء الحرب كله لن يترك على عاتقه ٠

٣ ـ طلب من امبراطور المانيا وبابا روما وسائر حكام أوربا اذا كانوا قد عقدوا اية معاهدات صداقة ومودة مع الاتراك العثمانيين ان يلغوها واذا لم يستطيعوا مساعدة شاه ايران ضد السلطان العثماني بكل قواتهم رعاية لمصالحهم ، فلا اقل من ان يساعدوه في الخفاء طالما كان في حرب السلطان العثماني ، وعليهم الا يتعاونوا أو يساعدوا العدو بشكل من الاشكال ٠

٤ ـ لمح لحكام أوربا انه لما كانت جماعة من التجار الفرنج (الاوربيين) قد عقدت اتفاقيات خاصة مع الحكومة العثمانية وانهم يرسلون لها مختلف المهمات العسكرية من مدافع وبنادق وسفن وغيرها سواء عن الطريق البرى او عن الطريق البحرى ، لهذا فان عليهم أن يلغوا هذه الاتفاقيات باسرع ما يمكن ٠

٥ ـ نصح حكام أوربا بأن الحرب والعداوة بينهم لن تثمر الا تقوية الامبراطورية العثمانية ومن الافضل ان يقبلوا نصيحته الاخوية الخالصة ، وأن يسارعوا لعقد معاهدات صداقة ومودة وأن يتحدوا حتى لا يفنوا قواتهم التي يجب ان تستخدم في هزيمة العدو المشترك ولا يدمروها بلا سبب ٠

٦ ـ يتعهد الشاه عباس بأن يعد فورا ٦٠ الف مقاتل مجهزين بالبنادق وأى عدد من الفرسان والمشاة التى يراها الحلفاء لازمة للحرب فى حالة ما اذا اتحدت الدول المسيحية معه ضد السلطان العثمانى ٠

٧ ـ يعتقد شاه ايران أن الحرب الدفاعية ليس وراءها الا ضياع الوقت والمال وقتل الرجال الابرياء وتعريض الكرامة والحيثية للخطر وأن الدول التى تأخذ بهذا المبدأ تعترف بعجزها ٠

٨ ـ بناء على ما سبق فانهم ان رأوا القضاء على الامبراطورية العثمانية واجبا فعليهم أن يهجموا فورا على ممتلكات تلك الدولة من الشرق والغرب وخاصة من ناحية بلغاريا ٠

٩ ـ تعهد شاه ايران فى حالة ما اذا قام امبراطور المانيا وملك اسبانيا وبقية حكام أوربا بمحاربة السلطان العثمانى ـ بالهجوم على الاراضى العثمانية فورا من ناحية الشرق وفى هذه الحالة فانه يتوقع أن يرسل الامبراطور وبقية حكام أوربا سفراء مفوضين تفويضا تاما الى ايران تتخذ أية اجـراءات عسكرية برأيهم ومشورتهم ٠

١٠ ـ اقترح الشاه عباس عقد معاهدات بين ايران والدول الاوربية شريطة الا تقدم أية دولة من الحلفاء على أى عمل يكون مخالفا للسياسة العامة دون مشورة وموافقه الاخرين ٠

١١ ـ يعتقد شاه ايران انه اذا اتحدت ايران مع الحكام المسيحيين لاوربا ضد الدولة العثمانية وهبوا لحربها فانه لا يحق لاية دولة من الحلفاء ان تنسحب من الحرب أو تدخل فى صلح مع العـدو دون استشارة وموافقة بقية حلفائها ٠

١٢ ـ تعهد أن يفتح كل ايران امام اتباع الدين المسيحى من كل مذهب وفرقة ويسمح لهم بالذهاب حيث يشاءون ويقيموا فى أى مكان ويشيدوا الكنائس والمنازل ويزاولوا طقوسهم الدينية بحرية تامة ودون أية موانع اذا اتحدت معه أوربا ضد العثمانيين ٠

١٣ ـ وفي النهاية طلب شاه ايران من كل ملوك الفرنجة (أوربا) أن يرسلوا الى ايران سفراء يحملون الشروط والخطط المقترحة التي يرونها كما فعل هو (٧) ٠

وقد ترك حسين على بك بيات وانتونى شيرلى اصفهان متوجهين الى أوربا يوم الخميس ١٥ ذي الحجة عام ١٠٠٧ هـ (٩ يونيو ١٥٩٩م) مع مرافقيهما ٠ وكان المرافقون لهما في السفر هم أربعة من حرس الفرسان الايرانيين (٨) و١٤ مرافقا ايرانيا ورجل دين وخمسة من المترجمين وكان المرافقون لسير انتونى شيرلى ١٥ شخصا من الانجليز وخلفهم قافلة من ٣٢ جملا تحمل الهدايا التى كان الشاه قد اختارها للملوك الفرنج ، ورافق الشاه عباس هذه البعثة حتى ضاحية من ضواحي اصفهان وهناك أعطى ختمه الذهبي الى السير انتونى وقال له « يا أخى ، اننى اقبل أى شيء توقعه بهذا الختم ختمي ولو كان يساوى سلطنتى كلها » ثم قبل وجهه واخذ يد اخيه روبرت شيرلى ووعده بأن يعامله كأخ له اثناء غيابه « انتونى » ٠

بعد شهر وصل السير انتونى شيرلى وحسين على بك ومرافقوهم الى ساحل بحر مازندران « قزوين » عن طريق كاشان وقم وساوه وقزوين وجيلان ومن هناك ركبوا سفينة متوجهين الى روسيا

استغرق عبور بحر الخزر « قزوين » شهرين لان السفينة واجهت عواصف شديدة ، وبعد تحمل الكثير من المشاق والمخاطر وصلوا الى ميناء هشتر خان ، وكان الشاه عباس قد أرسل شخصا الى هذا

---

(٧) تاريخ القسس الكرمليين فى ايران طبع لندن جـ١

(٨) كان من بين هؤلاء الحرس على قلى بك ابن اخسى حسين بك بيات سفير الشاه والثانى اروج بك الذى كان السكرتير الاول للبعثة ٠

الميناء قبل وصولهم بشهر لكى يخطر حكام روسيا بوصول هذا الوفد ويعد ما يلزم لراحتهم ، وقد وصل هذا الشخص الى هشتر خسان قبل وصول انتونى شيرلى ومرافقيه بيوم واحد فقط .

نزلت هذه البعثه الايرانية فى ضيافه بوريس جودونوف (١) قيصر روسيا منذ وصولها هشتر خان حتى بلغت موسكو بعد شهرين ونصف ، ولم تطب الاقامة لسير أنتونى فى موسكو لان قيصر روسيا عد حسين على بك وحده سفيراً للشاه عباس بل انه قدم المبعوث الاخر الذى ارسل قبل هذه الجماعة الى هشترخان ورافقهم الى موسكو على السير انتونى شيرلى ، كما ان القيصر لم يسمح لشيرلى ورفاقه الانجليز برؤية التجار الانجليز الذين كانوا فى موسكو انذاك أو الحديث معهم ، كما ان شيرلى تضايق من تصرفات القيصر فلم يذهب مع البعثة الايرانية حين سمح لهم القيصر بلقائه وبهذا ازداد سوء ظن القيصر تجاهه واخذ يتربص للايقاع به ، كما أمر ان تؤخذ جميع الرسائل التى كان الشاه عباس قد كتبها لملوك اوربا واعطاها لشيرلى وقراوها ، كما اطلقوا سراح القسيس الدومينيكانى نيكولاو دى ميلو والذى كان شيرلى قد القى القبض عليه اثناء الرحلة وسجنه بتهمة خيانة شاه ايران ونصروه على شيرلى .

وقد ذكر بارى أحد سكرتيرى شيرلى الانجليزى سبب هذا الخلاف فقال :

« حدث نزاع بين القسيسين البرتغاليين اللذان كانا يسافران برفقتنا فاخبر احدهما وهو الفونسو كورديرو الذى كان من جماعه الفرنسيسكان السير انتونى ان القسيس الاخر وهو نيكولاو دى ميلو الدومينيكانى قضى اغلب وقته فى الهند فى اللهو ووصل به الامر الى ان ملك اسبانيا علم بسيرته فامر باعادته . كذلك فان الهدايا

---

(٨) Boris Goudonoff

التى قدمها نيكولا للشاه عباس كان أحد أصدقاء الشاه قد أرسلها مع رسلة ولكن القسيس تعرف على حامل الهدايا وخدعه بمبلغ قليل من المال واخذ منه الهدايا والرسالة ثم القى الرسالة فى الطريق وقدم الهدايا للشاه باسمه هو • وقد غضب السير أنتونى لسماع هذه القصة ، وأمر أن يلقى القبض على القسيس » •

ثم أضاف « أمر القيصر باطلاق سراح القسيس من قيد شيرلى وأمر بتشكيل مجلس للتحقيق فى سلوك شيرلى مع القس ، وقد اطلق القس لسانه فى سب السير أنتونى اثناء المجلس مما أثار غضبه حتى أن شيرلى صفعه صفعة قوية مما أدى الى أضطراب المجلس ، وبعد هذه الحادثة زاد رجال القصر من احترامهم للسير أنتونى شيرلى » •

بعد اقامة ستة أشهر فى موسكو تحرك الوفد وكان ذلك يوم عيد الفصح عام ١٦٠٠م (أواخر ١٠٠٨هـ) متوجها الى المانيا ، ولكن لما كانت الأحمال التى يحملونها من الهدايا ثقيلة فقد قيل لهم أن يسافروا عن طريق المحيط المتجمد الشمالى ، ولهذا فانهم بعد أن تركوا ساحل نهر الفولجا اتخذوا طريق الشمال وبعد ستة أسابيع وصلوا الى ميناء ارخنجلسك احد موانى شمال روسيا ، وامتدت اقامة البعثة نحو شهر فى هذا الميناء لاعداد المؤونة واحتياجات الرحلة ، ثم ابحروا على ظهر احدى السفن متوجهين الى المانيا وبعد شهر ونصف واجهوا خلاله عواصف شديدة وصلوا الى ميناء اشترود (Stode) فى مصب نهر الألب عن طريق رأس الشمال وسواحل النرويج ومن ذلك الميناء ارسل السير أنتونى سكرتيره بارى الى انجلترا مع بعض الرسائل وذهب شيرلى مع السفير الايرانى وبقية البعثة الى ايمدن •

وقد استقبلهم دوق اولدنبورج (من دوقيات المانيا) بحفاوة وترحاب •

ومن ايمدن توجهت البعثة الى براغ عاصمة دولة بوهيميا مارة بمدن كاسل وفيمار وهال ، (٩) وقد وصلت براغ في خريف سنة ١٠٠٩هـ (١٦٠٠م) وكان رودلف الثانى امبراطور المانيا فى ذلك الوقت الوقت في بوهيميا وحين علم بوصول سفراء شاه ايران ارسل ثلاث عشرة عربة تجرها الجياد مع جماعة من قواد وعظماء البلاط وخمسة الاف جندى لاستقبالها وقد أنزل الامبراطور اعضاء البعثة ضيوفا عليه منذ وصولهم مع كثير من مظاهر الاجلال والاحترام ٠

قبل امبراطور المانيا اقتراحات السير انتونى شيرلى بخصوص الاتحاد مع الشـــاه عباس ضد الاتـــراك العثمانيين ببعض التحفظات وحاول كثيرا منعه من الذهاب الى بقية ملوك اوربا والاكتفاء بارسال رسائل الشاه مع مبعوثين خاصين ولكن شيرلى لم يتقبل هذا الرأى واستأذن فى الربيع التالى من امبراطور المانيا وتوجه الى ايطاليا ، وعند مغادرة البعثة لالمانيا اعطى الامبراطور ٥٠ قطعة من الاوانى الفضية المختلفة الى انتونى شيرلى ومنحه الفى دوقية (١٠) المانية لنفقات سفره كما منح كل واحد من مرافقيه كاسا فضية ومائتى دوقيـــة ٠

ذهب انتونى شيرلى ومرافقوه من براغ الى نورن نبرج احدى مدن دوقية بايرن حيث استقبلوا هناك بالحفاوة والتكريم ونزلوا اربعة أيام ضيوفا على حاكم المدينة ، وعند رحيلهم منح الدوق كاسين من الذهب واحدة لشيرلى والأخرى لحسين على بك بيات ، ومن هنـــاك توجهوا الى ميونيخ حيث استقبلهم ويلهيلم الثانى المعروف بالزاهـد دوق بايرن والذى كان قد اعتزل حديثا من منصبه ــ استقبالا ملكيا ٠

---

(٩) Emden, Oldenburg, Prag, Weimar, Halle

(١٠) كان دوقيه كانت تعادل نحو ٢٠ قرشا او اكثر قليلا ٠

بعد ذلك قصدت البعثة الى أيطاليا ونزلت في مدينة مانتوفا احدى مدن الشمال ، وقد سبق أن ذكرنا ان الشاه عباس كتب رسالة الى دوق البندقية (فينيسيا) مما دفع شيرلي وبيات للذهاب الى تلك المدينة لتسليم الرسالة ، وكان شيرلي قبل وصوله الى ايطاليا قد أرسل شخصا اسمه مايكل انج سراى (١١) الى الدوق ليخبره بقدوم سفراء ايران اليه ، كما أرسل رسولا آخر من مدينة مانتوفا للغرض نفسه ، ولكن دوق البندقية (فينيسيا) رد عليه بأن سفيرا للدولة العثمانية وصل الى فينيسيا وأن الدولتين في سبيلهما للصلح ، ولهذا فهو يعتذر عن مقابلة السفير الايراني لانه من الممكن أن يؤدي وصول سفير الشاه عباس الى تعكير صفو العلاقات بين فينيسيا والحكومة العثمانية مرة أخرى .

لهذا اضطر شيرلي ومرافقوه للذهاب الى روما عن طريق فلورنسا وقد استقبلهم الدوق فرديناند دى ميديتشى (١٢) دوق ولاية توسكانا بكثير من الترحاب في مدينة بيزا وأصطحبهم لمشاهدة ميناء ليفورنو الذي يجرى انشاؤه بناء على أوامره (١٣) .

بعد هذا ذهبوا من بيزا الى سيينا ومن هناك توجهوا الى روما مع كاردينال كان قد جاء من قبل البابا كليمنت الثامن لاستقبالهم .

وفي روما حدث خلاف بين شيرلي وحسين علي بك ولهذا قابلهما البابا كلا على انفراد وحينما استقبل البابا انتوني شيرلي شرح له السفير أهداف الشاه عباس من انشاء اتحاد ضد الاتراك العثمانيين ووعده أن يمنح شاه ايران للمبشرين والقسس الكاثوليك حرية كاملة في

---

(١١) Michel ange Cerray

(١٢) Ferdinand de Medici

(١٣) كتب اروج بك أو دون جوان الايراني أن خمسة الاف عبد كانوا يعملون في انشاء الميناء .

كل انحاء ايران ، كما طمأن البابا على انه من الممكن للمبشرين الكاثوليك فى يوم من الايام ان يدخلوا كل اهل جورجيا فى المذهب الكاثوليكى .

وقد ظل السير انتونى شيرلى فى روما حتى محرم سنة ١٠١٠هـ (١٦٠١ م) حين ذهب من مقر البابا مع اثنين من رجاله الى انكونا ومنها الى فينيسيا . وهناك رايان فى سبب سفره السرى هذا هما :

١ ـ كتب البعض انه لما كان احد رفاقه الانجليز قد سرق الرسائل التى كان الشاه عباس قد كتبها الى ملوك اوربا وحملها الى استانبول وسلمها للصدر الاعظم العثمانى فان السير انتونى شيرلى يأى نفسه فى خطر وان عليه ان يلجأ لحكومة فينيسيا .

٢ ـ اما اروج بك او دون جوان الايرانى فقد ذكر فى كتابه انه حدث خلاف شديد بين سير انتونى شيرلى وحسين على بك بيات فى مدينة سيينا الايطالية امام الكاردينال الذى جاء لاستقبالهم من قبل البابا لانه حين طلب حسين على بك الهدايا التى كان الشاه عباس قد ارسلها الى البابا ، اتضح ان سير انتونى شيرلى باع جـــزءا منها الى التجار الانجليز فى موسكو وادعى انه ارسلها مباشرة الى ايطاليا فى سفينة انجليزية وهذا هو الذى ادى الى هروبه حين انكشف امره (١٤)

---

(١٤) كتب احد الانجليز المرافقين لسير انتونى شيرلى لم يعرف اسمه فى مذكراته عن الرحلة حول الخلاف بين شيرلى وحسين على بك يقول « تشاجر السفير الايرانى وشيرلى فى روما حـول اهمية مركز كل منهما واغلظ شيرلى القول للسفير الايرانى وطلب منه أن يطيع أوامره فحزن السفير الايرانى مما سمعه وانفصل عنه غاضبا وعاد الى ايران وحين وصلها وذهب لمقابلة الشاه عباس وشرح له تفصيلات رحلته فى حضور روبرت شيرلى اخو انتونى شيرلى واطلق لسانه فى سب سير انتونى والصق به كثيرا من التهم ولكن روبرت دافع عن اخيه ويرهن على اكاذيب السفير ولهذا امر الشاه عباس فقطعوا يدى السفير ولسانه امام روبرت ... » .

وقد ظل حسين على بك بيات شهرين فى روما بعد هروب سير انتونى شيرلى ثم توجه الى أسبانيا وعندما ودعه البابا أهدى لـه سلسلة من الذهب والفى دوقه ، كما منح كل واحد من حرمه سلسلة ذهبية وبردة عيسوية ، كما أمر احد كبار القسس من برشلونة وكان اسمه فرانشيسكو جوراسك أن يرافق السفير الايرانى الى اسبانيا وأن يوفر له ولمرافقيه كل ما يلزمهم ٠

ذهب حسين على بك ومرافقوه من روما الى ميناء جنوا ومن هناك ركبوا سفينتين الى ميناء سافونا ووصلوا أسبانيا عن طريق جنوب فرنسا وجبال البرنيز ، ثم ذهبوا الى برشلونه حيث استقبلهم فى الميناء دوق فريا نائب الملك فى مقاطعة كتالونيا ومن هناك ذهبوا الى بلد الوليد مقر الملك فيليب الثالث ملك أسبانيا ٠

استقبل ملك اسبانيا حسين على بك استقبالا عظيما واستضافه فى بلاطه لمدة شهرين وبعد هذا صمم سفير ايران على العوده الى وطنه وارجاء مهمته فى خمس دول أخرى وهى انجلترا واسكتلندا وفرنسا وبولندا وفينيسيا الى وقت آخر ، ولكى يتجنب السفر بالطريق البرى الطويل فقد آثر أن يعود الى ايران عن طريق البحر حول جنوب افريقيا ورأس الرجاء الصالح ٠

وقد ودع ملك اسبانيا حسين على بك يوم سفره بكثير من التكريم والى جانب الهدايا الكثيرة التى أرسلها معه للشاه عباس فقد منحه سلسلة من الذهب تقدر قيمتها انذاك بنحو ٦٥٠ دولارا مع أحد عشر الف دوقة نقدا للنفقات سفره كما كان السفير ومرافقوه ضيوفا عليه حتى ميناء ليشبونه حيث كانت هناك سفينة اسبانية مكلفة بتوصيلهم

---

* ولكن هذا القول بعيد عن الحقيقة لانه كما سنذكر فان حسين على بك بيات ذهب الى أسبانيا بعد هروب شيرلى وادى مهمته فى تلك الدولة ايضا ٠

الى الخليج (١٥) ٠

ذهب السفير الايرانى مع مرافقيه من بلد الوليد الى مدريد ومنها الى توليدو (طليطلة) ثم ليشبونة ، ولكن فى مريدا على بعد مرحلتين من ليشبونه حدثت حادثه مؤسفة٠فكما ذكرنا من قبل كان يرافق البعثة الايرانية منذ مغادرتها لاصفهان احد رجال الدين لكى يشرف على الشئون الدينية للبعثة ، ولكن هذا المسكين قتل فى مريدا بطعنة سكين من احد المتعصبين الاسبان ، وقد تضايق حسين على بك من هذه الحادثة وارسل اروج بك الى بلد الوليد لكى يطالب الحكومة الاسبانية بديته ٠

وقد وقعت أحداث أخرى مؤسفة بعد هذا زادت من حزن حسين على بك بيات واسفه ، اذ انه قبل أن يغادر اسبانيا ترك ثلاثة من أعضاء البعثة الدين الاسلامى ودخلوا فى المذهب الكاثوليكى وكان احد هؤلاء الثلاثة هو على قلى بك ابن اخى السفير الذى ضايق عمه جدا واحزنه بقبوله الدين المسيحى ، وعند تعميده قبل فيليب الثالث ملك اسبانيا أن يكون اباه الروحى وعندما دخل فى المذهب الكاثوليكى لقبه باسمه فأصبح يسمى دون فيليب ٠ اما الثانى فكان سكرتيرا أول فى البعثة وهو اروج بك (١٦) الذى قبلت ملكة اسبانيا

---

١٥ ـ حصل حسين على بك ومرافقوه اثناء سفرهم على مبالغ كبيرة بالاضافة الى كئوس من الذهب والفضه والاشياء القيمة الكثيره الاخرى يصل مجموعها الى ٢١٦٠٠ دوقه (أى اكثر من سبعة الاف جنيه استرلينى) اذ اعطاه قيصر روسيا ٣٨٠٠ وامبراطور المانيا ٤٨٠٠ والبابا ٢٠٠٠ وملك اسبانيا ١١٠٠٠ ٠

(١٦) بعد ان دخل أروج بك فى الدين المسيحى سمى « دون جوان الايرانى » كان قد ولد عام ٩٦٧ هـ وعند سفره لاوربا كان فى حوالى الاربعين من عمره ٠ كان ابوه سلطان على بك من قواد القزلباشية المعروفين من قبيلة بيات الكردية لكنه قتل سنة ٩٩٣ هـ فى الحرب بين العثمانيين والصفويين فى عصر الملك محمد خدا بنده ، وكان هذا القائد رئيسا لكتيبة خاصة وبعد مقتله عين ابنه أروج بك لقيادتها ٠ وقد قتل دون جوان يوم ٤ محرم ١٠١٣ هـ (١٥ مايو ١٦٠٥ م) على

أن تكون أمه المتبناه أثناء تعميده ، وقد عرف بعد ذلك باسم دون جوان الايرانى • أما الثالث فاسمه بنياد بك وكان من أعضاء البعثة وقد لقبوه بعد دخوله فى المذهب الكاثوليكى باسم دون دييجو •

وقد استأجر حسين على بك امرأة عجوزا بربرية كانت قد اعتقت بعد خدمة طويلة على السفن الاسبانية لتقوم بقتل هؤلاء الثلاثة الذين كانوا قد كفروا فى رأيه ولولا أن الماركيز دى سانتكروز قائد الاسطول الاسبانى لم يهب لحماية اخوته الجدد فى الدين لتعرضوا للهسلاك •

= يد أحد الاسبان فى مدينة بلد الوليد • وحتى لا يذاع خبر مقتسله فقد وضعوا جسده فى قارب ودفعوه فى البحر وبعد بضعة ايام القته الامواج على الساحل فنهشته الكلاب وقد كتب هذا الرجل كتابا حوالى سنتى ١٠١٢ ـ ١٠١٣ هـ (١٦٠٤م) عن رحلته قسمه الى ثلاثة ابواب :

الباب الاول ـ مختصر عن ولايات واقاليم ايران ونظام الحكومة فى العصر الصفوى وعادات الناس والطوائف والقبائل الكبيرة التى تسكن كل ولاية وكذلك ملوك ايران من عصر النمرود حتى عهـد الشاه عباس الكبير •

الباب الثانى ـ يشتمل على عصر الملوك الصفويين وحروبهم مع السلاطين العثمانيين وأمراء الاوزبك •

الباب الثالث ـ يتضمن تفصيلات وصول السير أنتونى شيرلى الى البلاط الايرانى وسفر حسين على بك ومرافقيه منذ حركتهم من أصفهان حتى وصولهم الى مدينة لشبونة •

وقد كتب أروج بك أصل هذا الكتاب باللغة الفارسية وترجمـة الى اللغة الاسبانية وطبعه بمساعدة كاتب أسبانى اسمه ألفونسو ريمون • وقد أشار ألفونسو هذا فى المقدمة الى أروج بك على أنه الصديق الحميم وأنه قدم كتابه الى قسيس الملك الخاص وهو دون الفارودى كرافاخال ، وهذا القس هو الذى غسل أروج بك عند تعميده فى الكنيسة الملحقة بالقصر الملكى ، وأشار أروج بك الى أنه كان يكتب أحداث الكتاب يوما بيوم لكى يقدمها للشاه عباس عند عودته لايران • وقد ترجم هذا الكتاب المستشرق الانجليزى لوسترانج Le Strange وطبعه بالانجليزية عام ١٩٢٦ •

وفى منتصف عام ١٠١٠ هـ تحرك السفير الايرانى وكل مرافقيه على ظهر سفينة من لشبونة صوب أيران وكان من المفروض وصولهم الى ميناء هرمز فى أواخر نفس العام ولكن لا يعرف تاريخ وصول حسين على بك ولا نعرف شيئا عن مصيره أو مصير مرافقيه ٠

الاستيلاء على البحرين

كما سبق أن أشرنا كانت جزر البحرين تابعه لحكومة هرمز وفي دائرة نفوذ الحكومة البرتغالية منذ منتصف القرن العاشر الهجرى ٠ وفي عام ١٠١٠ هـ عندما توفى فرخ شاه امير هرمز وتولى ابنه فيروز شاه الامارة كان حاكم البحرين هو ركن الدين مسعود الذى كان اخا للرئيس شرف الدين لطف الله وزير هرمز ، فاعلن الاستقلال وشق عصا الطاعة عن امير هرمز ، ولكن خوفا من قيام سفن البرتغال بمساعدة فيروز شاه الذى كان تحت حمايتها ومهاجمة البحرين فانه طلب مساعدة احد كبار رجال فارس واسمه معين الدين فالى وكان على صلة قرابة به ، فقام معين الدين باخطار امام قلى بك بن الله وردى خان (١) امير أمراء فارس الذى كان يحكم هذا الاقليم بعد ابيه ، وكان امام قلى يطمع منذ مدة فى الاستيلاء على البحرين فانتهز الفرصة وارسل معين الدين فالى مع بعض الجند لمساعدة ركن الدين مسعود فى الظاهر ولكن فى الحقيقة للاستيلاء على البحرين ٠

حينما وصل معين الدين بجيشه الى البحرين وبقى بها بعض الوقت ذهب فجر ليلة من الليالى مع ابن عمة الرئيس منصور الى منزل ركن الدين وقتله فى مخدعه ، وحين علم جند ركن الدين بما حدث هبوا لمحاربة معين الدين انتقاما لاميرهم وتمكنوا من تضييق الخناق على معين الدين ولكن يشاء القدر ان الامير يوسف شاه أحد أمراء اقليم فارس عند عودته من مكة كان قد وقع فى قبضة قراصنة الخليج وفقد جزءا من أمواله فكان فى هذا الوقت يتجول فى البحر ومعه قوات من حملة البنادق للبحث عن هؤلاء القراصنة بناء على أوامر من الله وردى خان ووصل فى بحثه الى البحرين فاستطاع معين الدين بمساعدة يوسف شاه أن ينتصر على جيش البحرين ٠

---

(١) الله وردى خان تولى حكومة ولاية فارس سنة ١٠٠٤ هـ وظل فى هذا المنصب حتى وفاته عام ١٠٢٣ هـ ٠

حين ذاع خبر استيلاء الجنود الايرانيين على البحرين ارسل فيروز شاه امير هرمز والحاكم البرتغالى لها جيشا وبعض السفن الى جزر البحرين فاشتعلت الحرب بين الجنود الايرانيين والجنود البرتغاليين بعض الوقت فى البر والبحر ومع أن معين الدين والامير يوسف شاه قتلا في هذه الحرب الا أن النصر كان للايرانيين واضطرت السفن البرتغالية للعودة الى هرمز وخرجت البحرين من سيطرة البرتغال وخضعت لحكومة فارس وكان هذا فى منتصف رمضان سنة ١٠١٠هـ .

اول بعثة لانطونيو دى جوفيا الى ايران

فى الوقت الذى كان فيه حسين على بك بيات متوجها من روما الى اسبانيا (أوائل ١٠١٠ هـ) امر فيليب الثالث ملك اسبانيا نائبه فى الهند دوم ارياس سالدانيا (١) والكسيس دى منزيس (٢) اسقف ميناء جوا لكى يبعثا هيئة دينية للتبشير للمسيحية فى ايران • فسارع نائب الملك والاسقف بارسال ثلاثة من القسس الكاثوليك هم جيرومينو دى كروز وكريستوفولو دى سبريتو سانتو (ذو الروح المقدسه) وانطونيو دى جوفيا (٣) مع هيئة الى ايران على أن تكون رئاستهم لجوفيا وكان القسس الثلاثة من فرقة القديس اغوسطين •

غادر انطونيو دى جوفيا ومرافقوه ميناء جوا على الســاحل الغـربى للهند فى ٢٢ شعبان سنة ١٠١٠ هـ (١٥ فبراير ١٦٠٢م) والتقوا بالشاه عباس فى مدينة مشهد فى منتصف ربيع الاول من العام التالى وكان الشاه عباس قبل وصولهم الى مشهد قد ارسل جمــاعة من كبار قواده من بينهم روبرت شيرلى الانجليزى لاستقبالهم عنـد اقترابهم من مشهد •

وقد استقبل القسس الثلاثة بالترحاب البالغ وعرض جيرومينو دى كروز على الشاه عباس رسالة ملك اسبانيا والهدايا التى ارسلها له نائب الملك فى الهند ، كما قدم ايضا نسخة من كتاب « شرح حياة عيسى » مجلدة جلدا فاخرا مع بعض صور للبابا مقدمة من اسقف جـوا • وكان لانطونيو دى جوفيا ثلاثة اهداف :

---

(١) Arias Saldanha

(٢) Alexis de Menezes

(٣) Cristofolo de Sprito Santo antonio de Jouvea

أولها أن يقوى هيكل المصالح التجارية البرتغالية الذى كان قد ضعف نتيجة لاستيلاء ايران على جزر البحرين ٠

ثانيها أن يمنع الشاه عباس من عقد اتفاقيات تجارية مع التجار الانجليز والا يسمح لسفنهم بالمجيء الى الخليج ٠

والثالث أن يحصل من الشاه عباس على اذن بالتبشير للدين المسيحى فى ايران ٠

وقد تحدث معه الشاه عباس مبديا موافقته ثم اصطحبه ورفاقه الى كاشان ثم اصفهان حيث وافق على ان يقيموا فيها ديرا وكنيسة بل أنه دفع من خزانته تكاليف تزيينها وما تحتاجه من قيشانى ٠ وقد وعد سفراء أسبانيا وعودا طيبة فيما يتعلق بالمسائل الدينية واعطاء الحرية للمبشرين المسيحيين فى ايران وذلك لكى يثير بابا روما وملك اسبانيا ضد السلطان العثمانى ويعقد معهم محالفات ضد هذا العدو ولكنه بذكاء أوكل انجاز وعوده الى الوقت الذى يقوم فيه البابا وملك أسبانيا رسميا بمحاربة السلطان العثمانى ، وقد كتب انطونيو دى جوفيا تفصيلات هذه المحادثات فى كتاب رحلته وخلاصتها « بعد بضعة أيام استدعانا الشاه عباس نحن الثلاثة لمقابلته يوم السبت ١١ فبراير ١٦٠٢ م ومعنا الراهب فرانشيسكو دى كوستا الذى كان قد جاء من عند البابا وأخذنا الى قصر الحريم وهناك قال لنا « أريد أن تدونوا ما أقوله لكم ثم طلب قلما ومحبرة وأمر ان يكتبوا ما يقول ثم قال : أنا مستعد لاقامة الكنائس فى ايران وأرغب كثيرا فى أن يأتى كل المسيحيين رجالا ونساء الى بلدى ولكن رجال الدين عندى لايقبلون هذا ويمنعوننى وأخشى أن أقدمت على هذا أن يقتلونى فان كنتم تقبلون أن أقوم بما ترغبون مع وجود هذا الخطر فلا مانع عند ولكننى أرى من الافضل أن يقوم ملوككم بالدخول فى الحرب مع الاتراك أولا وبعد ذلك تقومون ببناء الكنائس وفى هذه الحال تستطيعون اقامة الكنائس فى جميع مدن ايران الى جانب مدينة أصفهان لانه اذا أراد رجال

الدين الاعتراض ومنع هذا العمل فسوف أقول لهم انه لم يعد لهم حق الاعتراض أبدا لانني لا أستطيع العمل ضد رغبة وارادة الاشخاص الذين يساعدونني ضد اعداء ايران ٠٠٠ سوف أرسل رجالا مخصوصين لكي يقوموا بكل ما تشاءون وعلى نفقتي الخاصة وسوف امر جميع التجار من مسيحيين ويهود ومسلمين وغيرهم بالتجارة مع هرمز ، وأرجو أن تكتبوا الى البابا والى دون فيليب ملككم أنني احبهما كأبي وأخي » ٠ ثم ختم ما كتبوه بالخاتم الخاص الذى كان يحمله فى اصبعه ٠

بعد هذا بفترة وجيزة وحينما طمأنه « انطونيو دى جوفيا » أن نائب الملك فى الهند لن يهاجم سواحل ايران الجنوبية ، خرج الشاه عباس فجأة مع جيش منتخب مختار من مدينة اصفهان فى السابع من ربيع الثانى سنة ١٠١٢ هـ وهجم على اذربيجان ودخل فى حرب مع السلطان العثماني محمد خان الثالث ، وفى نفس الوقت أرسل أحد كبار قواده وهو الله وردى بك التركمانى مع رسالة وهدايا بصحبة انطونيو دى جوفيا الى اسبانيا حتى يعقد اتفاقية مع فيليب الثالث ملك أسبانيا ضد الاتراك العثمانيين ٠

وقد عبر الشاه عباس فى رسالته عن سروره من ارسال السفراء والرسائل الى بلاط ايران مما أدى الى تقوية علاقات الصداقة والمودة بين الدولتين ثم اشاد بالقسس الثلاثة من جماعة سان اغسطين الذين كانوا قد جاءوا كسفراء الى ايران وقال انه تلقاهم بكثير من الترحاب وسمح لهم باقامة شعائرهم الدينية بحرية تامة فى ايران ثم اشار الى حسن معاملته لكل المسيحيين خاصة الاسبان الذين يأتون الى ايران من المستعمرات البرتغالية لاسبانيا فى الهند ، وقد شهد سفراؤه على هذا ٠

ثم ذكر أنه يرسل الله وردى بك التركمانى أحد كبار قواد ايران الذين يطمئن اليهم ويعتمد عليهم مع انطونيو دى جوفيا كسفير اليه

عن طريق الهند وانه استبقى القسس الاخرين فى ايران وهو يتوقع ان يعيد الملك سفيره الله وردى بك الى ايران فى اقرب وقت ، ثم اشار الى العلاقات الايرانية الانجليزية وقال انه سيعمل طبقا لما يريده ملك اسبانيا حفاظا على الصداقة الاسبانية الايرانية ·

وبعد مدة قصيرة وبينما كان الشاه عباس يهاجم اذربيجان وارمينيا وكان مشغولا بالقتال مع الجيش العثمانى على مقربة من قلعة قارص وصل مبعوث جديد من قبل ملك اسبانيا اسمه لويس بريرا دى لازردا (٤) على رأس بعثة من نحو ٥٠ شخصا ولما كان الشاه بعيدا عن العاصمة فقد ذهب السفير الى ارمينيا وقابل الشاه فى المعسكر الملكى فى جمادى الاولى سنة ١٠١٣ هـ بناء على أوامر الشاه عباس ·

ولم نقف على الهدف من بعثة لويس بريرا او مضمون الرسائل التى احضرها للشاه عباس ولكن كل ما نعرفه هو ان شاه ايران ارسل معه الى اسبانيا احد كبار قواده وهو امام قلى بك باكيزه التركمانى وهو الذى كان قد ذهب قبل هذا فى سفاره الى بلاط قيصر موسكو كما سبق ان ذكرنا ·

---

(٤) Lauis Pereira de Lazarda

اول سفارة لروبرت شيرلي الى اوربا

كان الشاه عباس ينتظر الفرصة دائما لكي يستعيد جـــزيرة هرمز ومراكز التجارة الاسبانية والبرتغالية على السواحل الايرانية للخليج من السيطرة الاسبانية ولكن تحقيق هذا الهدف كان يبدو مستحيلا باستخدام القوات البرية وحدها ، ولما كان شاه ايران لا يمتلك سـفنا حربية فقد اراد ان يتحد مع احدى الدول الاوربية المنافسة لاسـبانيا والتي لها قوات بحرية مثل انجلترا او هولندا ويحقق هدفه بمساعدة سفن تلك الدولة • ومن ناحية اخرى كان الشاه عباس يستطيع ان يحارب اسبانيا بكل ارتياح اذا اطمأن من ناحية الاتراك العثمانيين ولهذا كان يسعى دائما لتشكيل اتحاد مع ملوك اوربا المسيحيين ضد الدولة العثمانية لكي يهزم عدوه الغربي القوى ولما ظل حتى عـام ١٠١٦هـ دون ان يحصل على نتيجة من قدوم السفراء من اوربا وذهابهم اليها والعكس فقد سارع بارسال روبرت شيرلي الذى سبق ان اشرنا اليه من قبل ــ مثل اخيه ــ مع رسائل وهدايا كثيرة وبصحبته جماعة من الايرانيين الى بلاط كبار ملوك اوربا وكان هذا الرجل الانجليزى خلال اقامته في ايران قد ادى خدمات جليلة للشاه عباس ــ كما سنبين ذلك بالتفصيل فيما بعد ــ وخاصة البطولات التي كان قد ابداها في الحروب الايرانية العثمانية •

تحرك روبرت شيرلي ومرافقوه في ٢٤ شوال سنة ١٠١٦ هـ (١٢ فبراير ١٦٠٨ م) من اصفهان وتوجهوا الى اوربا عن طريق مازندران وبحر قزوين وكان من بين مرافقيه الكابتن توماس باول (١) الضابط الانجليزى الذى ادى خدمات كثيرة في تدريب الجيش الايراني • وبعد

(١) Thomas Powel

عبورهم روسيا وصلوا الى مدينة كراكوفيا (٢) التى كانت عاصمة بولندا انذاك وقد استقبلهم ملكها سيجيسموند (٣) بكثير من الترحاب والاحترام ولا نعرف مدة بقاء روبرت شيرلى فى بلاط ملك بولندا ولكن ما نعلمه أن شيرلى كان فى مدينة براغ فى ربيع الاول سنة ١٠١٨ هـ (يونيو ١٦٠٩) •

وفى مدينة براغ استبقى رودلف الثانى امبراطور المانيا روبرت شيرلى ومرافقيه مدة فى بلاطه ومنحه رتبة فارس كونت دى بلاتين(٤) بسبب الخدمات العظيمة التى اداها للعالم المسيحى عن طريق الحرب التى خاضها ضد الاتراك العثمانيين ، كما اعطاه رسالة الى جيمس الاول ملك انجلترا شرح فيها خدمات روبرت شيرلى للمسيحيين الايرانيين • وقد أراد روبرت شيرلى أن يذهب مباشرة من براغ الى انجلترا ولكن حينما علم كونت سالزبورى وزير جيمس الاول بهذا أبلغه أن ملك انجلترا يفضل أن يذهب الى انجلترا بعد انتهاء مهمته فى بلاط كل ملوك اوربا •

لهذا السبب توجه روبرت شيرلى الى ايطاليا فوصل مدينة روما يوم الاحد ٢٨ جمادى الثانى سنة ١٠١٨ هـ (سبتمبر ١٦٠٩ م) بكثير من الاحترام والعظمة • وفى اليوم التالى حينما قابل البابا بول الخامس قدم اليه رسالة الشاه عباس وأشار الى رغبة الشاه الايرانى التامة فى الاتحاد مع الملوك المسيحيين ضد السلطان العثمانى ، وقد تحدث اليه البابا بعطف ومحبة • وفى مقابلة أخرى منحه لقب كونت قصر لاتران المقدس (*) •

---

(٢) Cracovie

(٣) Sigismond

(٤) Conte de Palatin

(*) قصر لاتران كان قد بناه بلوتيوس لاترانوس أحد معاصرى نيرون امبراطور روما والذى قتله نيرون لكى يصادر أمواله ، وقد منح قسطنطين الكبير امبراطور روما هذا القصر للبابا ملكيا ، وظل مدة مقرا للبابا ولكنه تحول الى متحف للاثار المسيحية منذ ١٢٥٩ هـ (١٨٤٣) ولازال لليوم تابعا للبابا •

وعند مغادرة روبرت شيرلى لروما أعطاه البابا والكاردينال بورجيزى هدايا كثيرة وتوجه شيرلى من روما الى ميلانو ومن هناك الى ميناء جنوا ثم توجه الى برشلونة عن طريق البحر .

وحينما وصل الى برشلونه طلبوا منه ان يبقى فى تلك المدينة انتظارا لاوامر الملك فقد كان ملك أسبانيا ووزيره دون ليروا ينظران الى بعثة روبرت شيرلى بعين الشك وقال برادو - احد سكرتيرى ملك أسبانيا لفرانسيس كوتينجتون سفير انجلترا انه لما كان هناك اشخاص كثيرون ياتون من تلك البلاد البعيدة (ايران) ويدعون انهم سفراء ، لهذا فان جلالة الملك لن يقابل شيرلى حتى يتاكد من صحة سفارة مثل هؤلاء الاشخاص الى جانب أن هذا الشخص لا يبدو انه رجل عاقل لانه لو كان عاقلا لما وضع على راسه عمامة المسلمين بينما هو رجل مسيحى (**) ولهذا السبب اضطر روبرت شيرلى الى السفر على نفقته من برشلونة الى الكالا ومنها الى ارانخويز محل اقامة الملك فى الربيع وحينما قابله الملك فى شوال سنة ١٠١٨ هـ (يناير ١٦١٠) قدم اليه رسالتين كانتا معه من الشاه عباس وكذلك رسالة شفوية من فيليب الثالث الذى أراد أن يتحد مع بقية ملوك أوربا ويشن حربا شديدة على السلطان العثمانى ، ولكن الملك رد عليه ردا مختصرا وتحدثت معه الملكة فى الموضوعات العادية وقابلاه ببرود مما أغضب روبرت شيرلى وجعله يشتكى الى وزير الملك .

ذهب روبرت شيرلى من ارانخويز الى مدريد وظل هناك شهرين ضيفا على ملك أسبانيا ، وحينما علم أن ملك انجلترا مستعد لمقابلته كسفير لجسد فى السعى للسفر الى انجلترا وذهب لمقابلة فيليب الثالث فى منتصف ذى الحجة سنة ١٠١٨ (مارس ١٦١٠) ليحصل على

(**) كان روبرت شيرلى يرتدى الملابس الايرانية ويضع على رأسه عمامة القزلباشية باذن من الشاه عباس مع وضع صليب صغير عليهما .

اذن بالسفر فأعطاه ملك أسبانيا رد خطابات الشاه عباس وأربعــة الاف دوقة له شخصيا ، ولكن روبرت شيرلى أضطر للبقاء فى أسبانيا حتى صيف ١٠٢٠ وفى هذه المــدة أحضر زوجته (٥) التى كانت قد بقيت فى بولندا الى مدريد وانذاك وصل انطونيو دى جوبا ودنجيزيك روملو الى اسبانيا فى شهر جمادى الاولى ١٠١٩ (١٦١٠ م) وكانا قد غادرا ايران متجهين الى اسبانيا سنة ١٠١٧ هـ (١٦٠٨ م) كما سيأتى ذكره فيما بعد وقدما هدايا قيمة من الحرير والاقمشة الحريرية والجواهر الثمينه لفيليب الثالث فوافق الملك الاسبانى الى حد ما على قبول مقترحات روبرت شيرلى فيما يتعلق بتجارة ايران وأسبانيا وشروط الشاه عباس لارسال حرير ايران عن طريق هرمز والهند الى أوربا وتقرر أن يعود روبرت شيرلى بالسفينة من ميناء ليشبونه الى ايران ٠

ولـما كان رد الملك النهائى على مقترحاته قد تاخر فقد صــمم روبرت شيرلى على الذهاب الى انجلترا وعرض مقترحاته التجـارية على جيمس الاول ٠ ويتضح من الرسائل التى كتبها كيتنجين سفير انجلترا الى لورد سالزبورى وزير جيمس الاول أن روبرت شيرلى كان يخشى من معاملة ملك انجلترا له باعتباره أحد الرعايا الانجليز ولا يستقبله بالتشريفات والتقـاليد التى يستقبل بهـا السفراء الاجانب ولهذا سوف يعد مقصرا ومسئولا أمام الشاه عباس ، كما كان يعتقد أن البلاط الاسبانى سوف يعارض سفره الى انجلترا وكان يريد أن يعرف ماذا سيفعل ملك انجلترا لكى يحصل له على اذن بالخروج من أسبانيا ٠ كما كان قد أبلغ الوزير بمضمون الموضوعات التى كان يريد عرضها باسم الشاه عباس على ملك انجلترا ٠ وبناء على مقترحاته فان الشاه عباس كان يوافق على أن يقيم التجار الانجليز فى ميناءين من موانى جنوب ايران مراكز تجارية وأن يكون للحكومة الانجليزية

---

(٥) اسمها تريزيا وكانت بنت أحد كبار الشركس واسمه اسماعيل خان وقد زوج الشــاه عباس هذه الفتاة لروبرت شيرلى سنة ١٠١٦هـ/ ١٦٠٧ م ٠

ممثلون سياسيون فى الميناثين ، وان يكون لموظفي شركة الهند الشرقية الحرية الكاملة في شئونهم التجارية فى الميناثين وكان كوتينجين قد سال شيرلى عن سبب عدم قبول ملك اسبانيا لمقترحاته • ورد شيرلى قائلا أن ذلك لسببين : احدهما ان فيليب الثالث لا يرغب في الدخول في حرب مع السلطان العثماني • والثاني انه لا يريد ان يتنازل عن الرسوم الجمركية الباهظة التي يحصل عليها من الصادرات الاسبانية للدول الشرقية •

وكان الهدف الأصلى من وراء ذهاب شيرلى الى انجلترا هو ان يعقد اتفاقية تجارية مع جيمس الأول بناء على أوامر الشاه عباس ويفتح طريقا جديدة لتصدير الحرير الايرانى وبقية البضائع الايرانية الى أوربا،حتى لا يضطر التجار الايرانيون الى أرسال تجارتهم الى اوربا عن طريق الأراضى العثمانية ، وبهذا يحرم السلطان العثماني من الرسوم الجمركية الباهظة التي كان يتقاضاها على مرور البضائع الايرانية •

ولقد ابتلى روبرت شيرلى فى أواخر أيام اقامته فى اسبانيا بعداوة ومخالفة أخيه السير انتونى شيرلى الذى كان قد جاء من ايطاليا الى اسبانيا مسكينا مفلسا ، فقد كان يتهمه بأن الغرض من ذهابه الى انجلترا هو عدائه للحكومة الاسبانية والقيام بالتحريض ضدها • وكان روبرت يخشى أن يدسوا له السم فى اسبانيا ، وكان يسعى لمغادرة تلك البلاد بأسرع ما يمكن ، واستطاع فى النهاية أن يحقق هدفه ويتمكن مع زوجته تريزيا فى ربيع الاخر سنة ١٠٢٠ هـ (يونيو ١٦١١م) من رؤية بيت ابائه فى انجلترا رغم مؤمرات أخيه،واستقبله جيمس الاول ملك انجلترا فى٢٣ رجب من نفس العام (أول اكتوبر ١٦١١م) فى قصر هميتون كورت(٦) واطلع على خطابات اعتماده ، وبعد اثنى عشر يوما كلف أربعة من

---

(٦) قصر هميتون كورت احد القصور الملكية الانجليزية فى قرية هميتون على مقربة من لندن على شاطىء نهر التيمز وهو من القصور القديمة الجميلة فى انجلترا •

التجار الانجليز الأعضاء في شركة الهند الشرقية ببحث مقترحات شيرلي. وسوف نتحدث بالتفصيل عن سفارته الى انجلترا في الفصل الخاص بعلاقة الشاه عباس مع الحكومة الانجليزية .

بعد أن أقام روبرت شيرلي نحو عام ونصف في انجلترا صمم على العودة الى ايران وبناء على أمر جيمس الأول فقد كلفت احدى السفن الانجليزية بتوصيله ومرافقيه عن طريق البحر عبر جنوب افريقيا . وقد وصل شيرلي وزوجته (٧) ومرافقوه في أواخر سنة ١٠٢٣هـ الى ساحل الهند ، وفي جمادى الاولى من العام التالي وصلوا الى اصفهان

---

(٧) وضعت تريزيا زوجة روبرت شيرلي طفلا في انجلترا سمياه هنري ، وقد تركه شيرلي في انجلترا عند عودته الى ايران .

بقية قصة السير انتوني شيرلي

بعد ان انفصل السير انتوني شيرلي في مدينة روما عن حسين علي بك بيات سفير الشاه عباس في المحرم سنة ١٠١٠ هـ (يوليو ١٦٠١ م) وكما سبق أن ذكرنا ذهب الى ميناء انكونا ومن هناك توجه الى فينسيا حيث بقي هناك ٣ سنوات . ولما كان اثناء اقامته الاولى في مدينة براغ (١٠٠٩ هـ / ١٦٠٠ م) قد ترك المذهب الرسمي لانجلترا ودخل في المذهب الكاثوليكي فقد غضبت عليه اليزابيث ملكة انجلترا وحرمته من حمايتها وحتى من العودة الى انجلترا ولكنه في سنة ١٦٠٥ م (١٠١٣ ـ ١٠١٤ هـ) عاد مرة ثانية الى مدينة براغ ، فكلفه رودلف الثاني امبراطور المانيا بسفارة الى مراكش وفي نهاية هذه البعثه سافر الى ليشبونه عاصمة البرتغال . وفي هذا الوقت كان فيليب الثالث ملك أسبانيا يريد ارسال انطونيو دي جويا القس في جماعة سان اغسطين كسفير الى الشاه عباس مرة ثانية لكي يشكو من حملة خان فارس على جزر البحرين وممتلكات البرتغال على ساحل الخليج ولكي يزيد من أهمية هذه البعثة ويحملها بخبر تحرك عسكري جديد ضد السلطان العثماني وفي نفس الوقت يرضي الشاه عباس الذي كان دائم الشكوى من تهاون وحياد حلفائه الاوربيين . لهذا فقد عين السير انتوني شيرلي في خدمته وكفله بقيادة مجموعة صغيرة من السفن الاسبانية لكي يتجول بها في البحر المتوسط ويحارب بكل قواته ومشيئته القوات البحرية العثمانية والهولندية سواء في البحر او البر .

وكان السير انتوني شيرلي قد قطع اخباره مدة عن البلاط الايراني ولهذا سارع بكتابة رسالة الى الشاه عباس يعلمه بمهمته العظيمة الجديدة . وقد وصلت رسالته في جمادى الاخرة سنة ١٠١٧ هـ (اغسطس ١٦٠٨) على يد قسيس برتغالي (١) الى اصفهان

---

(١) ذكر انطونيو دي جويا اسم هذا القسيس في رحلته الثانية وهو دومينيكو ستروبن Dominico Stropen

وقدمها انطونيو جويا الذى كان موجودا انذاك فى المدينة الى الشاه عباس ، ومضمون هذه الرسالة التى ترجمت فى ذلك الوقت الى الفارسية بواسطة أحد القسس الكرمليين المقيمين فى أصفهان هو :

« أعرض على الجناب العالى نائب الامام الموفق السعيد الاشرف الاقدس الارفع الاعلى خلد الله ملكة انه منذ حرمت من خدمتكم فاننى لم أتوان دقيقة واحدة عن الخدمات التى كنتم كلفتمونى بها . ولم يحدث أى تقصير منى فى أى امر ولو اننى تجرعت محنة هذا السفر وقاسيت ألم الغربة ولكننى جعلت ملك الفرنج صديقا صدوقا لكم . وقرر ملك اسبانيا وصمم على أن يحارب الروم (العثمانيين) دائما بشكل لا يقبل الصلح أبدا وعين العبد الحقير (شيرلى) قائدا وأصدر امرا بأن افعل ما اشاء فى البر والبحر ولن يعفنى من خدمته وما يحدث بعد هذا سوف أعرضه على جلالة الهمايون وقد ذكر قبل هذا أن ملك المجر تصالح مع سلطان الروم (العثمانى) وكان هذا ضدنا ولكن الان ازدادت عدواتهما وقد جمعوا سفنا كثيرة وجيوشا لاتحصى واتفق ملوك الفرنجة واتحدوا على محاربة الاتراك ولما كانت الصداقة الوطيدة تربط بين الشاه الاعلى وملك اسبانيا فقد كان من الضرورى أن أذكر بعض الاشياء التالية :

فيما يتعلق بالحرير فلقد تقرر أن تتم تجارته فى هرمز لان الفرنجة يحملون كل عام كثيرا من الذهب وتجارة كثيرة من أدوات الحرب الى سلطان الروم ويتاجرون فيها فاذا توقف تعامل الجانبين ازدادت عداوتهما . وقد ارسل ملك اسبانيا امرا الى قائد هرمز بألا يتقاضى نفقات أزيد من الواقع من العجم التابعين للشاه والذين يحضرون الحرير الى هرمز وأن يرعاهم ويحترمهم وتقرر أن يتم التعامل على الحرير فى هرمز . ومن المتوقع انه حين يقرأ الشاه الرسالة أن يرسل ما يراه من هدايا لان ملك اسبانيا ابدى من المحبة أن يقوم ملوك الفرنجة بتقديم أية مطالبات يطالب بها الشاه وسوف اقوم بأى عمل يجب اتخاذه امره أعلى .

أمر الشاه عباس باعداد رد على رسالة السير أنتونى شيرلى بعد بضعة أيام من استلامها وقد أرسل الرد مع نفس القسيس الذى أحضر الرسالة ومضمونه :

الأمر الهمايونى ان الأمير العزيز البيك زاده الاكرم الدون انطونيو شيرلى قد حظى بغاية الشفقة الملكية وافتخر بالمراحم الهمايونية الوافرة ولتعلم ان عرضته وكتبته للسرير (العرش) الاعلى وارسلته مع رسولك قد وصل وعرف مضمونه وانك منذ ذهبت من البلاط الاعلى لم تقصر فى خدمتك ولم تنسنا ولم تنصرف عن عداوة أعدائنا وأنك تسعى فى زيادة محبة وصداقة ملوك الفرنجة وملك المغرب مع جلالة الهمايون • وقد عرف انحيازك لنا واخلاصك وانك لاتقصر فى الخدمة وماذكرته من انك الآن فى خدمة صاحب الجلالة الملك الرفيع العظيم عالى الجاه ملك الفرنجة • ولما كان قد منحك قيادة البحر فقد سرنا هذا وأسعدنا وما شرحته عما يكنه من محبة لنا فنحن كذلك لدينا عشرة اضعاف هذه المحبة له ونحن نسعد لانتصاراته وفتوحاته وان ماقلته من انه سعى ويسعى حتى لا يحدث صلح بين ملوك الفرنجة وجماعة الاتراك وان ماذكر من ان ملك المجر قد تصالح مع الروم وهو خطأ وانك ذهبت الى هناك وازلت هذا الصلح ولعلك من الذين يعلمون ما هى الحروب العظيمة التى وقعت بيننا وبين الجيوش الرومية (التركية)وما أخذناه منهم من قلاع حصينة وعلى مدى هذه السنين التى حاربناهم فيها لم يحدث من سلاطين الفرنجه أية حركة ولم نسمع أنهم قد تحركوا من الناحية الاخرى • وعلى أية حال فنحن معهم فى حروب ومناوشات على هذا النهج ولن نكف عن حربهم ويجب عليك أن تسعى بشكل ما حتى يتحرك الفرنجة لمحاربة الاتراك ولا يقصروا فى هذا السبيل •

اما ماكتبته عن موضوع الحرير وحتى لايحمل الحرير بعد هذا من بلاد العجم الى حلب ويأخذوه الى هرمز ويبيعونه هناك ، ومما يبديه الفرنج للروم (الاتراك) من صداقة بسبب الذهاب والمجىء الى حلب وأخذ الحرير وان هذا سوف يقضى عليه فهذا أمر جيد فما افضل أن يحمل الحرير الى هرمز ويحضر تجار الفرنجة تجارتهم ومتاعهم الى هناك ويحملون الحرير بدلها ، وسوف نأمر — ان شاء الله تعالى منذ الآن ان يحمل تجار العجم الحرير الى هرمز ويبيعونه هناك وعليهم ان يأمروا بحسن معاملة التجار

ف هرمز وإلا يأخذوا منهم رسوما زائدة حتى يبعث هذا على اقبال التجار فانه حينما يسمع التاجر ان الرسوم أقل ، واكثر اقتصادا ف الذهاب الى هرمز فانه سوف يحمل الحرير الى هرمز لفائدته وعليك ان تبدى ولاءك ف كل شيء وأن تعرض علينا كل الحقائق والاحوال والاخبار هناك وان تقدم أية مطالب قد تكون لك لأنها سوف تقترن بالانجاز والسرعة · تحريرا ف جمادى الثانى سنة ١٠١٧ هـ » ·

بعد ان ارسل السير أنتونى شيرلى خبر توليه قيادة القوات البحرية الاسبانية الى الشاه عباس سافر الى ميناء نابولى سنة ١٠١٦ هـ وأصبح عضوا بالمجلس الاستشارى للحكومة هناك (٢) ، ثم عاد فى سنة ١٠١٩ هـ (١٦١٠ م) الى مدريد وهناك ـ كما سبق أن ذكرنا ـ تقابل مع أخيه روبرت شيرلى الذى كان قد أرسل الى بلاط فيليب الثالث وهناك خالفه وعاداه · وليس لدينا علم تام عما حدث له على مدى خمسة وعشرين سـنة وكل مانعلمه أنه كان يتقاضى راتبا من ملك أسبانيا وكان يعيش ف فقر وعوز حتى توفى سنة ١٦٣٥ م (١٠٤٤ ـ ١٠٤٥ هـ) ·

---

(٢) حرض السير أنتونى شيرلى نائب الملك الاسبانى ف نابولى وهو الكونت دى بنافنت Conte de Benavent على الكتابة للشاه عباس حتى حتى يرسل حرير ايران عن طريق هرمز بدلا من الاراضى العثمانية فكتب الكونت رسالة ف هذا الصدد أرسلها مع قسيس الى بلاط ايران وأمر الشاه حاتم بك اعتماد الدولة أن يرد على خطاب نائب الملك بالموافقة على اقتراحه وحتى يبرهن على حسن نيته فانه سيرسل لاوربا مالديه من حرير ف أصفهان مع انطونيو دى جوفيا ودنكيز بك روملو اللذان سيذهبان ف سفارة الى أسبانيا حتى يقع ماقد يكون من أخطار عليه شخصيا وبهذا يطمئن التجار الايرانيون ويرسلون حريرهم الى أوربا عن طريق هرمز ثم أمر بحمل ما ف أصفهان من حرير لكى يرسل مع السفراء (رحلة جوفيا ص ٤٦٧ و ٤٦٨) ·

السفارة الثانية لانطونيو دى جوفيا(١)

بعد ان استولى أمير أمراء فارس فى سنة ١٠١٠ هـ على جزر البحرين مع بعض القواعد العسكرية والتجارية للبرتغال فى الخليج بناء على أوامر الشاه عباس أرسل الحاكم البرتغالي لجزيرة هرمز تقريرا فى هذا الصدد الى ملك اسبانيا ، واشتكى من السلوك العدائى للشاه عباس وحاكم اقليم فارس • وقد وصل هذا التقرير فى نفس الوقت الذى وصل فيه انطونيو دى جوفيا واله وردى بيك التركمانى مع رسالة وهدايا من الشاه عباس الى البلاط الاسبانى • وعندما علم فيليب الثالث بهجوم القوات الايرانية على البحرين اعاد انطونيو دى جوفيا مع الرسالة والهدايا مرة أخرى الى ايران •

وكان ملك اسبانيا قد كتب رسالته ؛ أنه حتى تاريخ كتابة الرسالة (رمضان ١٠١٦ هـ ــ يونيو ١٦٠٨ م) فان سفيره لويس بريرا دى لازردا(٢) وأمام قلى بك باكيزه التركمانى لم يكونا قد وصلا الى أسبانيا بسبب عدم وجود سفن تحملهم من الهند كما انه لا يعلم شيئا عن أخبار صديقه العزيز الشاهنشاه الصفوى فانه يرسل أنطونيو دى جوفيا كسفير اليه ، كما هنأ الشاه عباس على انتصاراته وحروبه مع العثمانيين وذكر ان قواته البحرية فى البحر الابيض المتوسط قد الحقت بالسلطان العثمانى خسائر فادحة كما تمنى من الشاه أن يعد الامبراطورية الاسبانية مثل ايران كأنها ملك له وتحدث عن الاستيلاء على البحرين وقال أنه لما كانت الصداقة وطيدة بين ملكى ايران وأسبانيا فانه يجب على مرؤسيهما أن تقوم بينهم أواصر الصداقة والمودة وعاتبه على سلوك أمير امراء فارس لاستيلائه على البحرين والتطاول على بعض القلاع وموانى ساحل ايران التى تتعلق بأمير هرمز التابع له • وكتب فى نهاية الرسالة انه يأمل أن يكون الشاه عباس راضيا عن القسس الكاثوليك والمبشرين المقيمين فى ايران ويرجو الا يتوانى شساه ايران عن بذل رعايته وحمايته لرجال الدين المسيحي الذين جاءوا الى ايران •

حينما وصل انطونيو دى جوفيا من سبانيا الى الهند أرسل دوم الكسيس دى منزيس أسقف ميناء جواقسيسا آخر اسمه غليوم دى جيسوس برفقة

(١) Antonio de jouvea

(٢) Luis Perierra de Lazerda

انطونيو دى جوفيا الى ايران بناء على أوامر فيليب الثالث ملك اسـسبانيا فوصل الاثنان من الهند الى اصفهان فى منتصف ربيع الأول سنة ١٠١٧ هـ (أواخر يونيو ١٦٠٨ م) وبعد ستة أيام من وصولهما ذهب الشاه عباس الى همدان وأمر المضيف السلطانى* بأن يصحب انطونيو دى جوفيا ومرافقيه ايضا الى همـدان .

فى نفس اليوم الذى التقى فيه القس الاسبانى بالشاه وقدم رسالة ملك أسبانيا وهداياه قال له الشاه عباس أن عليه أن يعود مرة أخرى الى روما وأسبانيا ويحرض البابا وملك أسبانيا على حرب الاتراك العثمانيين وكتب أنطونيو دى جوفيا نفسه فى هذا الشأن يقول :

« فى نفس يوم تقديم الهدايا للشاه قال لى أنه يجب على أن أذهب مرة أخرى الى أسبانيا وروما مع السفير الذى يعينه وأن أحرض البابا وملك أسبانيا على حرب الاتراك ، فقلت ان أوامر ملك أسبانيا عكس هذا ، فقد أراد أن أقيم فى بلاط جلالتكم فقال الملك لابد أنك تذكر انه فى رحلتك الاولى حرضتنى على حرب الاتراك والآن يجب أن تحث ملوك الفرنج على الحرب، فعدت الى خيمتى وحزنت من التفكير فى هذا السفر الطويل وبعد هذا مرضت وطلبت الاذن للعودة الى اصفهان (لان معسكر الشاه كان قرب همدان) ولكن الشاه لم يأذن لى وكلف أطباءه بعلاجى ولكنى ذهبت فى النهاية الى اصفهان وعرضت أمر الشاه على كل القسس الذين كانوا فى تلك المدينة وتقرر أن أقبل هذه السفارة اذا أصر الشاه على طلبه » .

وكان الشاه عباس قبل هذا ببضعة أشهر (فى سنة ١٠١٦ هـ) عندما كان يحاصر قلعة شماخى فى منطقة شروان علم عن طريق جواسيسه أن رودلف الثانى امبراطور المانيا عقد صلحا مع السلطان احمد خان العثمانى فتألم جدا من هذا الخبر وتغير لأن الامبراطور كان قد كتب اليه رسـالة وتعهد بالا يعقد صلحا ابدا مع السلطان العثمانى ولهذا كان الشـاه عباس يحترمه أكثر من كل ملوك الفرنجة ويعزه ويقول أنطونيو دى جوفيـسـا فى هذا الشـأن :

---

* المضيف السلطانى أو الملكى هو المسئول عن استقبال ضيوف الملك واقامتهم والقيام نحوهم بواجب الضيافة .

« كان امبراطور المانيا خصوصا قد كتب رسالة الى الشاه عباس وعده بالا يعقد مطلقا مع صلحا السلطان العثماني . وكان للشاه عباس يحتفظ بهذه الرسالة ويعرضها على ذات يوم وكان يعتقد ان امبراطور المانيا سوف يبر بوعده ولهذا كان يحترمه جدا حتى انه وضع صورة له فى مدخل حجرته الخاصة وكان يحني رأسه احتراما له فى كل مرة يدخل فيها حجرته(٢) . وقد تعجبت من هذا العمل الذى شهدته بنفسى ذات يوم ولما رأى الشــاه تعجبي سألنى هل تعرف هذا الرجل ؟ فقلت لا اعرفه قال هــذه صــورة امبراطور المــانيا والذى يستحق الاحترام لانه يحارب الاتراك » .

وقد غضب الشاه من صلح امبراطور المانيا والسلطان العثماني وتأثر لدرجة انه قال يوما لانطونيو دى جوفيا ومرافقيه يوبخهم « أن المسيحيين لم يعودا اقوياء كما كانوا فى السابق كما انهم لايرتبطون باقوالهم أو قراراتهم .. لقد أخذت بقوة سيفي مائة وخمسا وعشرين قلعة من الاتراك ولكن ملوك الفرنجة بدلا من ان يستغلوا هذه الفرصة المناسبة يتجهون للصلح مع السلطان العثماني . ومع هذا الوضع كيف تتوقعون أن اسمح لكم ببناء كنيسة فى بلدى واشجع الارمن على طاعة البابا الاعظم واترككم تحتون الاجراس فى البلاد الايرانية اذهبوا واشكروا لانني لا احطم نواقيسكم ولااهدم كنائسكم ولا اخرجكم من البلاد... » فقال احد القسس اذا كان ملك المانيا قد تصالح مع الاتراك فما ذنب ملك اسبانيا الذى ارسلنا كسفراء وكذلك البابا الاعظم الذى لم يكن له شأن فى امر الصلح ؟ « فاجاب الشاه لقد ذكرتم مرارا ان ملك اسبانيا تربطه قرابة بملك المانيا وكلاهما يطيع البابا وعلى هذا فمن المؤكد انهم قد تشاوروا معا فى مثل هذا الامر الهام » .

بعد أن عاد انطونيو دى جوفيا من اصفهان الى المعسكر الملكي احضره الشاه عباس على الفور وقال له أشياء من الافضل أن ننقلها عينا من رحلة ذلك القسيس حيث كتب :

---

(٢) كان الشاه عباس يتحني احتراما لصورة امبراطور المانيا التى وضعها أعلى مدخل حجرته الخاصة كلما دخل اليها لمجرد انه ارسل له رسالة يتعهد بالا يعقد صلحا مع العثمانيين ، الى هذا الحد بلغ احترامه لمن يحارب العثمانيين (المترجم) .

« ابدى الشاه سرورا لعودتي وحينما راى ان حالتي حسنة قال اذا لم يكن مرضك مصطنعا فهو لم يكن خطرا ايضا فقلت ان المسيحيين قليلا ما يكذبون خصوصا وان عملنا يستلزم الصدق ولكن العناية الملكية شملتني، فقد شفيت بسرعة فقهقه الشاه وقال لقد تصورت انك مرضت خوفا من العودة الى اسبانيا فاجبت « توجد علل كثيرة يمكن ان تمنعني من العودة الى اسبانيا الاول : ان ملك اسبانيا امر ان ابقى في ايران • الثاني ان امام على بيك باكيزه الذى ارسلته جلالتك مع لويس بربيرا الى اسبانيا لم يعد للان كما ان روبرت شيرلى لم يعد ايضا واعتقد ان موضوع هذه السفارات جميعا واحد واخيرا فان ذهابي لا فائدة منه • فقال الشاه : فيما يتعلق بامر الملك والذى قال لك ابق في ايران فانني اتحمل مسئوليته واما عن كثرة عدد السفراء فهذا لا يدعو للعجب لانني اقحمت على امر عظيم واذا قدر ان ادافع وحدى امام الاتراك فانني سوف اهزم(٣) ، خاصة وان التتار (الاوزبك) يهددونني من الناحية الاخرى ، وعلى هذا فان ارسال عدة سفراء ليس امرا غريبا فعلى ان اجبر ملوك اوربا على الوفاء بتعهداتهم ويجب عليك ان تذهب وتحدث البابا على معاتبة الامبراطور الالماني لتصالحه مع الاتراك العثمانيين ، وتطلب منه ان يدخل في الحرب ضد السلطان العثماني لانه من غير المستحب عند الله ان يضع البابا وبقية حكام الفرنج يداى في هذا الامر الخطير ثم يتصالحون ويتصادقون مع الاتراك وانت نفسك الذى كنت سبب حربي مع الاتراك فانت ايضا يجب ان تضحي في هذا السبيل » •

وكانت بضعة قطرات من الدموع قد تساقطت اثناء هذا الحديث من عيني الشاه من الحزن او من التاثر • فقلت « كنت ارجو ان تكون ارادة كل ملوك اوربا مرتبطة برغبتي حتى كنت ادفعهم جميعا لحرب السلطان العثماني ولكنني اسف لان الامر غير هذا • وعلى اية حال فحينما يشاء الملك فانني ساكون مستعدا للحركة • فسر الشاه كثيرا ورجوته ان يعد الخطابات الرسمية وان يسمح لي ان اصطحب معي خليفة الارمن لمقابلة البابا الاعظم• فقال الشاه : تعلم انني اعطيت الحرية للمسيحيين كافة في ايران ولااستطيع

---

(٣) وهذا اعتراف خطير من الشاه عباس ان انتصاراته على العثمانيين كانت بمساعدة الدول المسيحية التي كانت تساعد الشاه عباس كما كانت تهاجمهم العثمانيين من الغرب (المترجم) •

ان أجبر خليفة الارمن على أن ياتى معك · ولكن اذا ارضيته فلا شأن لى والحقيقة أننى أرغب فى أن يرسل حضرة البابا قسا كبيرا الى ايران ليكون خليفة لـكل المسيحيين »(٤) ·

بعد هذا استدعى الشاه عباس أحد قواده المشهورين واسمه دنجيز بك قورجى روملو والذى كان حاكما على مدينة كمره وأمره بالاستعداد للسفر وأن يذهب الى أسبانيا وايطاليا بصحبة انطونيو دى جوفيا · كما كتبوا بناء على أوامره رسائل الى البابا وملك أسبانيا وقرأوها فى حضـــور القس ودنجيـــز بك ثم ســـلمها لدنجيز بك وأذن له والقس فى السفر ، كما أرســـل معه أحد كبار التجار الارمن واســـمه خواجه صفر مع خمسين حملا من الحرير لكى يبيعها فى أسبانيا ويفتتح طريق تجارة الحرير الايرانى الذى كان احتكارا للشاه وحده مع أسبانيا وبقية الدول الاوروبية عن طريق البحر عبر الهند وجنوب أفريقيا ·

ويبدو أن الشاه عباس كتب رسالة على حدة مع كلا السفيرين الى ملك أسبانيا ، فقد جاء فى مقدمة الرسالة التى أعطيت لانطونيو جوفيا :

انا سالم بحمد الله ودائما فى حـرب ضد الاتراك العثمانيين الاعداء المشتركين لبلدينا ، وسوف أحصل على انتصارات جديدة وقد وصلت الى ما طلبت حتى الان · ثم ابدى شكره على أن ارسل ملك اسبانيا هذا القس كسفير اليه مرة أخرة ، ثم طلب منه أن يرسل رجلا لائقا كقنصل فى أيران يقيم بها ويقف على شئون المسيحيين ويعمل على محاكمة ومجازاة المجرمين المسيحيين طبقا لمبادىء وقوانين المسيحية·

ثم كتب بعد ذلك يقول « ان جلالتك أرسلت منذ سبع سنوات نفس هذا القس انطوان (انطونيو دى جوفيا) كســفير الى لكى يحرضنى على حرب الاتراك العثمانيين ولا شك انكم علمتم بالحروب التى خضتها

---

(٤) رحلة انطونيو دى جوفيا ص ٤٥٢ ــ ٤٥٥ ·

ضد الاتراك بناء على رغبتك وكلام هذا القس وتعلمون انني استوليت منهم على مدن وقلاع كثيرة ٠ ومن مقتضيات المحبة والصداقة انني لما كانت قد قمت بواجبي ان تشجع جلالتك حلفاءك واصدقاءك ومرؤوسيك على محاربة السلطان العثماني ٠ وكما لاحظتم جلالتكم انني احب المسيحيين ولهذا فانني ارغب أن يرسل من عندكم قس ذو قدر لتكون له الرئاسة على كل المسيحيين في ممالكي ويقيم في اوتش كليسا التي هي مركز كل ارمينيا ومكان مقدس في كل البلاد التابعة الي ونظرا للمحبة التي أكنها لكم فقد منحت كل القسس والروحانيين المسيحيين المقيمين في عاصمتي منازل ومساكن لائقة ويستطيعون جميعا اقامة منازل اخرى طبقا لرسومهم ورغبتهم وبهذه الرسالة التي تعبر عن علاقتي بجلالتكم والتي يحملها دنجيز بك احد كبار رجال بلاطي وجيشي فانني اتوقع أن تسمحوا له بالعودة بأسرع ما يمكن وسوف يعرض عليكم بعض الموضوعات التي لم تذكر في هذه الرسالة ٠ وفيما يتعلق بتجارة الحرير فانني ساحاول ان اخرجها من يد الاتراك العثمانيين واحولها لرجالكم وأدير تجارته عن طريق هرمز ويكون من الاحسن لو أرسلت احدا من قبلك الى جزيرة هرمز ليحافظ على مصالح التجار الايرانيين حتى لا يتضرر الاشخاص الذين يحملون الحرير من اصفهان الى هناك ولا تلحقهم خسائر ما (٥) ٠

وقد كرر الشاه عباس نفس هذه الموضوعات تقريبا في الرسالة الاخرى التي بعثها مع دنجيز بك روملو الى فيليب الثالث مع قليل من الزيادة او النقص ٠ ولما كان ملك اسبانيا قد طلب منه أن يكف يد التجار الانجليز عن تجارة الحرير الايراني والا يسمح لسفن هذه الدولة بالدخول للموانئ الايرانية ، فقد اشار الى هذا في رسالته فقال :

---

(٥) ترجمة من رسالة الشاه عباس باللغة الفرنسية في رحلة انطونيو دى جوفيا ٠

« أما ما سبق أن ذكرتموه من عدم استقامة جماعة الانجليز والتوصية بالكابتن جرون وجماعته من الفرنج فانه قبل وصـــول رسالتكم المحترمة كنت قد أمرت الامراء العظام فى ولايتى فارس ولار الامتناع عن حسن معاملة تلك الجماعة وأن يسـلكوا معهـم سلوكا يرضى عنه اتباعكم ويشكروه والا يتوانوا عن امدادهم واسعادهم وقد جاء بعض الانجليز الى البلاط العـالى وطالبوا كثيرا بالتجارة فى الحرير وان شاء الله تعـالى فانه عند بحث هذا الامر سوف يحدث ما يرضى ملازميكم والتابعين لكم ولن يحـــدث ما يغضب الكابتن المذكـور والتابعين لكم » •

وفى نهاية الرسالة اشار الى انه ارسل بعض الحرير « لفتح الطريق البصرى وطمأنة التجار الفرنجة » مع سفيره ولكنه لم يشر فى رسالتيه الى جزر البحرين أو المناطق الساحلية للخليج والتى كان قد استولى عليها من أمير هرمز •

وقبل أن يتحرك انطونيو دى جوفيا ودنجيزبك الى اسبانيا شاع أن الشاه عباس يريد أن يعقد صلحا مع السلطان العثمانى لانه الى جانب الرسائل المتبادلة بين أم السلطان العثمانى وزينب بيجم عمة الشاه عباس فان رجال الحكومة العثمانية استطاعوا أن يتقربوا للشاه عباس عن طريق حاتم بيك اعتماد الدولة وبعض زعماء الدولة كما أن شريف مكة الذى كان قد ذهب الى استانبول ارسل من هناك رسائل للشاه عباس يدعوه لترك العدواة التى تضر جميع المسلمين • وقد كتب انطونيو دى جوفيا فى هذا الشأن يقول :

« يبدو أن الشاه رضى بالصلح ، ومع أن هذه المسائل من الاسرار السياسية فقد سمعت أن الشاه اختار أحد الباشوات الاتراك والذى كان قد وقع اسيرا فى الحرب ليكون سفيرا ويرسله الى استانبول

للاعداد للصلح . ولهذا أفشيت (٦) موضوع سفارتى على الفور لكى تصل الى مسامع الجواسيس الاتراك الذين من الممكن ان يكونوا فى معسكر الشاه والى الباشا الذى تقرر سفره للوساطة وأشعت ان الشاه بعثنى الى بلاد الفرنج لكى اثير الملوك المسيحيين ضد الاتراك كى لا يهدأ وحتى يقضوا على السلطان العثمانى . كما أن الشاه يريد ان يجعل تجارة الحرير عن طريق هرمز لكى يحرم الاتراك من أرباحه وكان هدفى من هذا ان يدرك السلطان العثمانى ان الشاه عباس يخدعه وفى الوقت الذى يتحدث فيه عن الصلح يشجع المسيحيين على قتاله حتى لا يثق فى كلام الشاه ويحتفظ بجيش مستعد للحرب على حدود ايران . ويحتفظ شاه ايران أيضا بجيش مجهز على الحدود العثمانية لانه كلما انشغل هذان العدوان بالحرب فان العالم المسيحى يبقى فى سلام وطمأنينة » .

(٦) تآمر انطونيو دى جوفيا ضد الشاه عباس حتى لا يعقد صلحا مع الاتراك ويظل كلاهما يحتفظ بجيشه على الحدود فتتوقف فتوحات العثمانيين فى أوربا ويتوقف توجه الشاه عباس لمناطق الخليج واستعادتها من الاسبان .

السفارة الثالثة لدون انطونيو دى جوفيا الى ايران

عـاد الدون أنطونيو دى جوفيا ودنجيز بك روملو من أسبانيا الى ايران فى أواخر سنة ١٠٢١ هـ وهو الى جانب سفارته لفيليب الثالث كان يحمل عنوان مندوب البابا ايضا وعند وصوله الى اصفهـــان كان الشاه عباس فى مازندران لكنه عاد فى الثلاثين من المحـرم من العام التالى الى العاصمة وطلب الدون انطونيو لمقابلته فى ميدان نقش جهان (*) . ولكنه هذه المرة قابله بمرارة ، وحينما ذهب القس ودنجيز بك لمقابلته امر فى البداية فمثلوا بدنجيز أمام عينى الدون انطونيو ثم شنقوه ، وكان سبب شنقه بعض الاخطاء التى حـدثت منه أثناء سفارته أولها أنه فى ميناء جوا المركز التجـارى للبرتغاليين فى غرب الهند رفع ختم الرسالة التى كان الشاه قد كتبها لفيليب الثالث بناء على طلب نائب ملك البرتغال واوقفه على مضمونها ثم انه خلافا للعرف والتقاليد السياسية لبس الملابس السوداء حـدادا على وفاة ملكة اسبانيا فى مدريد بينما لا يجب على السفراء تغيير ملابس بلادهم العـادية .

كما انه قام ببيع الرسالة التى كان يحملها من الشاه عباس الى بابا روما لتاجر كان ذاهبا الى روما ادعى فى بلاط البابا أنه سفير ايران . وقد استفاد من هذا المنصب المزعوم . اما اكبر عيوب دنجيز بك فهو اهداؤه خمسين حملا من الحرير الى ملك اسبانيا وكان الشاه عباس قد أرسلها برفقته مع خواجه صفر الارمنى ماخذها منـه باغواء انطونيو دى جوفيا ، كما انه بسبب سوء سلوكه دفع جماعة من مرافقيه لدخول المسيحية والبقاء فى أسبانيا (١) .

(*) اكبر ميدان فى اصفهان ومن اكبر ميادين العـالم

(١) عندما كان الدون انطونيو دى جوفيا ودنجيز بك متوجهين الى أوربا ولكى يقـدم القسيس خدمة لسيده ملك اسبانيا فقد اقنع

وقد كتب اسكندر بك التركمانى فى كتابه « تاريخ عــالم اراى عباسى » تفاصيل قتل دنجيز بك فى أحداث سنة ١٠٢٢ هـ فقــال :

فى هذه السنة جاء الرسل والقسس الفرنج الذين كانوا عبارة عن علماء ورهبان مسيحيين موفدين من قبل ملك اسبانيا اكبر ملوك الفرنج الى بلاط الشاه وتشرفوا بمقابلة ملك العــالم (عباس) فى ميدان نقش جهان وعرضوا التحف والهدايا وادوا التحـية والرسالة وحظوا بالعناية الملكية ، ولمــا كان سلاطين المسيحيين وحكام الممالك المسيحية جميعا لهم علاقات طيبة مع الشاه الاعلى وكان طريق التراسل والسفر مفتوحا لهذا كان قد أرسل قبل هذا دنجيز بك روملو الذى كان رجلا طلق اللسان ليقا كسفير الى بلاد الفرنج • وقد بدرت منه هناك بعض الاعمال نتيجة للطمع والبخل لم يرضى عنها الشاه ،

=

دنجيز بك أن بيع الحرير فى أسبانيا بواسطة مندوبى شاه ايران لا يليق بمقامه واقنع دنجيز بك من قبيــل الخير والنصح ـ أن يأخذ الحرير من خواجه صفر ويقدمه كهدية من الشاه عباس الى ملك اسبانيا وقد خدع السفير واعد الحرير لتقديمة كهدية ولكن خواجه صفر الــذى كانت لديه تعليمات اخرى من الشاه عباس عارض هذا ، ولمــا لم يستطع ان يثنيه عن عزمه ترك البعثة احتجاجا على هذا التصرف وعاد الى ايران واخبر الشاه عباس بما حدث •

يقولون انه عندما قابل فيليب الثالث دنجيز بك وأنطونيو دى جوفيا وقدموا اليه حرير ملك ايران كهدية له تعجب من هذه الهدية الغريبة وقال بتهكم « يبدو أن ملككم ظن انني امرأة وأرسل الى كل هذا الحرير الخام لكى اشتغل بنسجه » • ثم قدم احمال الحرير هذه هدية للملكة اسبانيا فى نفس الجلسة فاهدتها بدورها الى أحد الأديرة فى قرية اغوسطين وبهذا وبدلا من ان يباع حرير شاه ايران فى اسبانيا فانه انفق فى سبيل الكنيسة والتبشير •

وقد نال القس « أنطونيو دى جوفيا لقب اسقف تقديرا لخدمته هذه ثم امر مرة اخرى أن يحمل هدايا ورسائل ملك أسبانيا ويعود مع دنجيز بك الى ايران •

وكانت قد عرضت عليه وفي هذا الوقت الذى عاد فيه مع الرسل المذكورين حل عليه الغضب فى الحال · وكلما حاول أن يتحدث للاعتذار عن اخطائه فانه لم يسمح له وقام جنود تعذيب الشاه بالتمثيل به وعلقوه على المشنقة مقلوبا للعبره ثم حكم عليه بالاعدام ونال جزاءه وفضيحته التى لا اراها الله لأحد · وكان من أعماله القبيحة انه فى ناحية جوا وبناء على طلب بوزره حاكمها وقائد موانى الفرنج فض الختم الشريف عن رسالة الشاه الى ملك أسبانيا وأعلمه بمضمونها · وهذه الخيانة فى خدمة السلاطين خطأ عظيم · وكما أنه من التقاليد القديمة أن مبعوثى مختلف السلاطين يلبسون ملابس بلادهم التى جرى العرف والعادة عليها فى كل بلد يذهبون اليه ويسلكوا سلوكهم العادى فى كل الأمور ولم يأمر الملوك فى أى عصر أو زمان بتغيير العرف والعاده الجارية · وحينما كان دنجيز بك فى عاصمة ملك اسبانيا وتوفيت زوجة الملك ولبس الملك ورجال الجيش الملابس السوداء كالعرف والعادة وكان الواجب لو كلفوه بهذا أن يقول الحمد لله ان ملكى وولى نعمتى سالم ويقين · فلا يليق بى أن البس ملابس للحداد وكان هذا عذرا مقبولا ومستساغا · ثم أن الرسالة التى كتبها جلالة الشاه المعظم الى البابا الذى هو خليفة الامة المسيحية والجالس مكان أصحاب عيسى عليه السلام وارسلها مع دنجيز بك الذى قام ببيعها لقاء مبلغ من المال الى تاجر على أن يدعى هذا التاجر أنه دنجيز بك ويوصل الرسالة الى دار الخلافة الفرنجية ويستفيد من ورائها · وكان هذا امرا غير مستحب فقد كان يجب اذا تعذر ذهابه الى تلك الولاية أن يعيد الرسالة ثانية ويذكر الحقيقة ولكنه لم يحترم كتاب اعتماده أو رسالة ولى نعمته · بل انه فى الواقع باعها الى تاجر مجهول وتهاون فى هذه المهمة · اما أعظم أخطائه والتى استوجبت قتله أنه أساء السلوك مع المرافقين الذين اصطحبهم معه وعمل على ايذائهم حتى أن بعضهم فضل الدخول فى المسيحية ليتخلص من ظلمه وبقوا فى بلاد الفرنج · وكانت الحمية الاسلامية تستوجب قتله فنال جــــزاءه ·

بعد قتل دنجيز بك امر الشاه عباس بمصادرة كل أمواله وحتى نسائه وابنائه ووهبهم الى شخص من فينسيا اسـمه مـايكل انجلـو كريستيانو البينيو كان يعيش فى بـلاط الشاه ٠ وكان الملك يهتم به ويرعاه وبهذا العمل ـ فى اعتقاده ـ عاقب مخطئا وكافأ مخلصا ، فمنح نساء رجل مسلم الى رجل مسيحى دليل على غاية الغضب وعدم الرضى عن السفير المخطىء ٠

بعد هذا سأل الشاه انطونيو دى جوفيا سفير ملك أسبانيا ان كان قد احضر ثمن الحرير الشاهانى ام لا ؟ فاجاب القس ، أن ملك أسبانيا ليس تاجرا وليس له شأن بالبيع والشراء ولكنه أرسل هدايا الى الشاه فى مقابل الحرير الذى أهداه اليه دنجيز بك « فقال الشـاه اذا كانت هدايا ملك اسبانيا قد ارسلت فى مقابل هداياه فيجب أن يحسبوا اذا كانت تساويها فى القيمة أم لا ٠ فلما حسبوا قيمتها وجدوا أن هدايا فيليب الثالث لا تساوى اكثر من خمس ثمن هداياه فتظاهر بالغضب وقال معاتبا وشاكيا للقس « لمـاذا لم يرسل ملك اسبانيا ثمن حريرى ؟ ولكن حزنه وعدم رضاه كان بسبب أن ملك اسبانيا لم يدخل فى حرب ضد السلطان العثمانى بناء على كلامه ووعوده السابقة ، كما أن رجـاله البرتغاليين فى جزر هرمز وقشم والبلاد التابعة لهم كانوا يسيئون الى الايرانيين ٠ ولهذا اراد أن يجعـل موضوع الحرير ذريعة ووسيلة لاعلان الحرب واخـــراج البرتغاليين من جزر الخليج ٠

ولقد هرب انطونيو دى جوفيا من اصفهان الى جزيرة هرمز خوفا من الشاه عباس ولكن الشاه أرسل الى امام قلى خان أمير امراء فارس أمرا بأن يتحفظ عليه فى مدينة شيراز ويأخذ منه ثمن الحرير الذى أهداه دنجيز بك الى ملك أسبانيا بايعاز منه ٠ وقد تحفظ امامقلى خان مدة على القس فى شيراز ولكنه لم يستطع أن يحصل منه على شىء ولهذا طلب من الشاه أوامر جديدة فى هذا الشأن ولما لم يصله

رد صريح فقد سمح للقس بالذهاب الى هرمز ٠ ولما علم الشاه وكان في مازندران بذهاب القس غضب غضبا شديدا وكتب رسالة عتاب الى امامقلي خان الذي خاف لدرجة انه استعد للهجوم على قلعة جمبرون وجزيرة هرمز واخراج البرتغاليين من المياه الايرانية اذا سمح له الشاه ، ولكن الشاه لم يأذن له لان مثل هذه الحملة كانت من الممكن أن تتسبب في قطع العلاقات بين ايران واسبانيا ، كما أن حاكم اصفهان الذي كان قد شجع الشاه على ارسال الحرير الى اسبانيا اخذ يعد لجمع قيمته بأية طريقة خوفا من غضب الشاه كما طلب من قسس الكرمليين في اصفهان أن يسلموه كنيسة الاغسطيين التي ينتمي اليها انطونيو دي جوفيا حتى يستولي على ما بها من اموال في مقابل ثمن حرير الشاه ٠

السفارة الثانية لروبرت شيرلى الى اوربا

سبق أن ذكرنا أن روبرت شيرلى غادر انجلترا سنة١٠٢١هـ وذهب الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح ، ولما كان مكلفا من الشاه عباس بالذهاب الى ملكها جهانجيز الجوركانى ، فقد توجه من جوا الى اجره عاصمة ملوك الهند ٠ وبعد انتهاء ماموريته عاد الى ايران حاملا رسالة جهانجير وهداياه ، وكان من بينها فيلان فوصل اصفهان سنة ١٠٢٤ هـ ٠

وكان فيليب الثالث قد وعد الشاه عباس فى الرسالة التى ارسلها مع شيرلى انه سيدخل قريبا فى الحرب ضد السلطان العثمانى بمساعدة بابا روما وبقية حكام أوربا ٠ وانهم سوف يرسلون سفنا للبحر الاحمر ليمنعوا وصول البضائع الهندية التى كانت ترسل عن هذا الطريق الى الامبراطورية العثمانية ٠

ولم تسفر رحلة روبرت شيرلى الى اوربا عن نتائج ذات قيمة ، ولكن الاستقبالات الحارة التى استقبله بها امبراطور المانيا وبابا روما وملك اسبانيا دفعت الشاه عباس الى اعادة ارساله مرة أخرى الى اوربا املا الحصول على نتيجة من خطواته السياسية والتجارية التى استمرت بضع سنين ، ولهذا أمر روبرت شيرلى بعد اربعة أشهر من وصوله أى فى رمضان سنة ١٠٢٤ هـ بالذهاب الى أسبانيا عن طريق جزيرة هرمز والهند وجنوب افريقيا وأرسل معه أحد القسس الكرمليين المقيمين فى أصفهان وكان أسمه القس ريدمتودى لاكروز (١) وكتب الشاه عباس فى الرسالة التى بعثها معه الى فيليب الثالث ملك أسبانيا :

« بعد الالقاب والمجاملات ــ لما كانت سبل المحبة والصداقة

---

(١) Pere Redemeto de la Crug

لحضرات السلاطين المسيحيين قوية معه ومستحكمة وخاصة مع جلالتكم وكان الرسل الحكماء وخاصة من القسس العظام يترددون فيمـــا بيننا وفتحت ابواب المراسلات والكتب ولهــذا ارسلنـــا الملك المعظم المكرم الدون البرت شيرلى الذى كان فى خدمتنا الشريفة كسفير اليكم ليجدد اسس الصداقة . كما أرسلنا معه احد القسس العظام هو القس ردمتو وهو من الرجال الحكماء المتزنين الصادقين للاطمئنان والاعتماد وقد أرسلنا رسالة شفوية ونتوقع وننتظر ان جلالتكم الرفيع المنزلة ستبقون باب التراسل والصداقة مفتوحا ويكتب لنا عن أحواله التى تبعث السرور والفرح عند احبائه وأصدقائه وأن يذكر أى خدمة تكون حتى ننجزها ولا نزيد اكثر من هذا (٢) .

وقد توجه شيرلى مع رفاقه فى نفس الشهر (رمضان ١٠٢٤ هـ) الى اوربا عن طريق هرمز والهند وكان مكلفا من الشاه عباس بأجراء مباحثات مع المسئولين البرتغاليين فى هرمز والهند ويعقد معاهدات صداقة ، لان الحكومة الاسبانية ــ كما سنذكر فيما بعد ــ كانت قد استردت منهم فى سنة ١٠٢٢ هـ ميناء جمبرون (بندر عباس الحالى الذى كان من القواعد البحرية البرتغالية القوية على ساحل ايران ، كما استردت بعض القلاع الاخرى الساحلية ، ولهـذا السبب فسان المسئولين البرتغاليين التابعين للحكومة الاسبانية فى جزيرة هرمز ومناطق سيطرتهم الاخرى كانوا يسيئون جدا للرعايا والتجار الايرانيين وقد استطاع روبرت شيرلى ارضاء حاكم قلعة هرمز البرتغالى حتى يكف يده عن معاداة الحكومة الايرانية الى أن تتضح نتيجة بعثته ومفاوضاته مع ملك اسبانيا - ولكنه لم يوفق لعقد اتفاقية صداقة فى مستعمرة جوا الهندية لان البرتغاليين كانوا يريدون ان تعيد الحكومة الايرانية الى حكومة أسبانيا المستعمرات البرتغالية القديمة فى الخليج مثل جزر البحرين وميناء جمبرون وبعض الموانى الساحلية الاخرى .

---

(٢) من مجموعة مراسلات الشاه عباس المحفوظة فى المكتبة الوطنية فى مدينة نابولى .

وبعد أن قضى شيرلى عشرة أشهر فى ميناء جوا توجه الى أسبانيا على ظهر احدى السفن الاسبانية ٠ وفى هذا الوقت كانت شركة الهند الشرقية التى أسست سنة ١٠٠٩ هـ (١٦٠٠ م) قد ازدهرت فى الهند واعترضت على سفر روبرت شيرلى الى اسبانيا لان مسئولى هذه الشركة فى الهند ـ كما سنفصل هذا عند الحديث عن علاقات الشاه عباس مع الانجليز ـ كانوا قد علموا بأهداف هذه الرحلة والتى منها احتكار تجارة حرير ايران عن طريق أسبانيا بواسطة أعوانهم وجواسيسهم فى أصفهان ، وعدوا هذا ضد مصالحهم التجارية ، ولهذا أصدروا امرا الى سفنهم بالهجوم على السفن البرتغالية فى ميناء جوا والقاء القبض على روبرت شيرلى ولكن السفينة التى كانت تحمل شيرلى استطاعت الافلات من أيديهم ووصلت فى سنة ١٠٢٦ هـ (اكتوبر ١٦١٧ م) الى ميناء لشبونه عاصمة البرتغال ٠

بقى شيرلى حتى أواخر سنة ١٠٣١ هـ (١٦٢٢ م) فى اسبانيا وقد حاول اثناء هذه المدة تحريض أسبانيا على الحرب ضد الدولة العثمانية ولكى يصل الى غرضه هذا فقد وعد فيليب الثالث ـ بناء على تعليمات من الشاه عباس ـ أن يحصل على موافقة الشاه عباس على أعادة ميناء جمبرون اذا استولت السفن الحربية الاسبانية على مدخل البحر الاحمر واغلقت طريق التجارة العثمانية مع الهند والحجاز ومصر ، وكان ملك اسبانيا يتوقع اعادة جزر البحرين أيضا فى مقابل هذا الاجراء ٠ ولما كان روبرت شيرلى غير مستعد لاعطاء وعود فى هذا الصدد فان فيليب الثالث رفض قبول مقترحاته ولانه كان يشك أصلا فى سفارة شيرلى فقد بعث برسالة الى دون جارسيا دى سيلفا فيجورا الذى كان سفيرا له فى البلاط الايرانى انذاك وأمره أن يتحدث مع شاه ايران بخصوص مقترحات شيرلى ويخبره انه فى حالة أعادة الحكومة الايرانية لميناء جمبرون والقلاع الساحلية للخليج على الاقل الى الحكومة الاسبانية فان ملك اسبانيا سوف يدخل

فى حرب مع الحكومة العثمانية وسوف يغلق طريق تجارة اسيا والهند فى وجه الدولة العثمانية عن هذا الطريق ، كما طلب روبرت شيرلى سفير الشاه عباس · وقد كتب روبرت شيرلى عدة خطابات الى الشاه عباس عن مفاوضاته مع ملك اسبانيا اثناء اقامته فى تلك البـــلاد من بينها رسالة بعثها مع القس رستودى لاكروز سوف نتحـــدث عن مضمونها فى الصفحات القادمة ·

ولما لم يحصل شيرلى على ما كان يتمناه من سفارته فى اسبانيا فانه سافر من لشبونه الى روما بالسفينة ، وفى سنة ١٠٣٢ هـ توجه من ايطاليا الى انجلترا وظل هناك ثلاث سنوات لعقد معاهدات سياسية وتجارية كما سنذكر عند شرح تاريخ العـــلاقات السياسية بين الشاه عباس وانجلترا ، وفى النهاية عاد الى ايران سنة ١٠٣٦ هـ (١٦٢٧م)·

سفارة دون جارسيادى سيلفا فيجورا لايران

بعد ان وعد روبرت شيرلى فى سفارته الاولى فيليب الثالث أن الشاه عباس مستعد لاعطاء احتكار تجـارة الحرير الايرانى الى التجار البرتغاليين مع بعض الشروط راى ملك اسبانيا ارسال سفير الى بلاط الشاه عباس للوقوف على حقيقة الامر ومعرفة الاوضاع التجـارية الايرانية • لهذا ارسل أحد رجال اسبانيا المعروفين اسمه دون جارسيا دى سيلفا فيجورا وهو من عائلة فريا الكبيرة المعروفة على راس بعثة كبيرة مع رسالة ودية وهدايا قيمة الى ايران •

غادر هذا السفير اسبانيا فى بداية عام ١٠٢٣ هـ (١٦١٤م) ووصل الى جـوا مركز التجارة البرتغالية فى الهند فى رمضان من نفس العـام وهناك علم ان الشاه عباس استولى أيضا على جزيرة كيش (قيس) وقلعة جمبرون •

قام المسئولون البرتغاليون التابعين لاسبانيا فى ميناء جـــوا والذين كانوا فى الباطن غير راضين عن الحكومة الاسبانية والذين لم يستطيعوا رؤية اسبانى مرسل فى مهمة خطيرة بابقاء الســفير الاسبانى مدة ثلاث سنوات فى الهند واختلقوا الموانع المختلفة للحيلولة دون سفره الى ايران وفى النهاية سافر دون جارسيا بسفينة صغيرة من ميناء جوا فى ٨ ربيع الاول سنة ١٠٢٦ هـ ووصل بعد خمســة اسابيع الى جزيرة هرمز وفى الجزيرة خالفه المسئولون البرتغاليون أيضا ولكنه استطاع أن يصل الى شيراز عن طريق لار وظل فى هذه المدينة فى انتظار اوامر الشاه عباس ، وبعد أربعة اشهر وصلة الامر من الشاه عباس الذى كان انذاك فى فرح اباد فى مازندران لكى يذهب الى اصفهان فتوجه من شيراز الى العاصمة اصفهان وبقى حتى ٢٣ جماد الاولى ١٠٢٧ هـ حين توجه الى قزوين بناء على أمر الشاه الذى كان قد ذهب الى هنـــاك •

وقد كتب بيترو دلا فاله الرحالة الايطالي ــ الذي كان في ايران في ذلك الوقت وكان يرافق الشاه عباس في تنقلاته ــ في كتاب رحلته تفصيلات عن وصول دون جارسيا الى قزوين ومراسم استقبال البلاط الايراني له ومحادثاته مع الشاه عباس وكل جزئيات سفره ورحلته ، ولما كان هذا يعد من اصدق ما يعكس الاوضاع الاجتماعية والسياسية والادارية في ايران اثناء حكم اعظم الملوك الصفويين كما يعد من اوثق المصادر التاريخية عن ذلك العصر ، لهذا فاننا ننقل اهم ما تضمنه في السطور القليلة التالية :

« امضى الشاه بقية اليوم في ارسال الاحكام والرسائل المختلفة وسماع موضوعات الخطابات التي وصلت من مختلف اقاليم البلاد ، وكان اغامير (٢) يقراها له بصوت مرتفع وكان من بينها عريضة حاكم اصفهان الذي يخبره بوصول السفير الاسباني ، وكان هذا السفير قد

---

(١) ولد بيترو دلا فاله Pietro della Valle في روما سنة ٩٩٤ هـ (١٥٨٦ م) ودرس الادب ثم اشترك في جيش البابا بول الخامس في حربه ضد فينيسيا وبعد الصلح التحق بسفينة متجهه لافريقيا للقضاء على القراصنة . ثم ذهب الى استانبول متوجها للقدس ثم ذهب للقاهرة ودمشق وحلب وبغداد . وهناك تزوج فتاة مسيحية اسمها ستي معاني اصلها من ماردين (تركيا) ثم ذهب لايران على امل ان يشترك مع الجيش الايراني في حروبه ضد العثمانيين ثم ذهب الى سواحل بحر قزوين واصفهان وشيراز وساحل الخليج حيث توفيت زوجته ستي معاني في مدينة ميناب ولهذا ذهب الى الهند في سفينة انجليزية وبعد عام عاد الى البصرة ومنها الى حلب واوربا فوصل روما سنة ١٦٢٦ فعينه البابا اوربان الثامن مرافقا له وكتب مشاهداته عن رحلاته في رسائل كان يبعثها لصديق له اسمه ماريو سكابينو في نابولي وقد جمعت ونشرت كوصف للدول التي زارها من مختلف النواحي السياسية والاجتماعية والعادات وغيرها .

(٢) اغامير هو ميرزا طاهر نطنزي المشهور بالامير « ابو المعالي » او اغامير كاتب الوقائع والكاتب ووزير غلمان وبنادقة الشاه عباس .

غادر أسبانيا قبل ذلك ببعض السنوات ولهذا كان البلاط الايرانى ينتظر وصوله ولكن طال بقاؤه فى الهند وهرمز كثيرا .

وكما هى عادة الشاه فقد طلب حضور رئيس بريد أصفهان وسأله شخصيا : أين أنزلتم السفير الاسبانى ؟ فاجاب اننا نستضيفه فى منزل جلال المنجم ، فقال الشاه اننى اشتريت هذا المنزل خصيصا لاستقبال ضيوفى الاجانب ثم التفت الى وسألنى « هل صحيح أن هذا السفير من رجال أسبانيا العظام كما يقولون ؟

فاجبت اننى لا أعرفه شخصيا ، ولكننى أعرف أنه من عائلة مشهورة ومعروفة جـدا » فسأل الملك وهل هذه العائلة من رعايا اسبانيا أم من رعايا البرتغال ؟ فقلت : يظهر أن هذه العائلة تنتسب للدولتين ولكنها تميل أكثر الى جانب اسبانيا ولافـراد هذه العائلة مراتب ومنازل رفيعة فى البلاط الاسبانى .

ويتحدث بيترو فى الجزء الاخر من الرسالة عن سفر الشـاه عباس من مازندران الى قزوين واشتغاله بالصيد فى منطقة جبل فيروز (فيروزكوه) ثم يتابع الحديث عن السفير الاسبانى فيقول :

« حينما اخبرونى أن أغامير قد وصل ونزل بالقرب من خيمتى عزمت على زيارته فى اقرب فرصة لاسأله عن أحوال الشاه ولهذا ذهبت الى خيمته فى يوم من ايام أواخر مايو (جمادى الاولى سنة ١٠٢٧ هـ) ووجدته فى خيمته وحيدا تقريبا لانه كان قد أرسل حريمه وكل حاشيته قبله الى قزوين . وكانت خيمته من الخيام الجـــديدة التى يطلقون عليها فى ايران أسم « شروانلى » لان هذه الخيام تستعمل فى ولاية شروان الشـــديدة البرد والكثيرة الامطار نظرا لان الخيام العـادية بقماشها الرقيق لا تقوام البرد القـارس فى هذه المناطق ، ولهذا يبطنونها من الخارج بلباد سميك ولـما كانت هذه الخيـام تصبح ثقيلة جدا فهم ينصبونها فوق أقواس من الخشب لتتحمل سقفها » .

كان اغامير يجلس مع شخصين من الايرانيين ولكنهما خرجا بعد قليل من دخولى وبقينا وحدنا وأخذنا نتحدث فى موضوعات مختلفة من بينها أنه قال ان السفير الاسبانى قادم من اصفهان لمقابلة الشاه وقد سمعت أنه غاضب على القسس البرتغاليين فى اصفهان وخاصة القس ملكيورد يزانج (١) مندوب ملك اسبانيا والرئيس الحالى للدير هناك • ووصف اغامير السفير الاسبانى بأنه خفيف العقل واثنى على القس ملكيور بسبب صداقته التى يظهرها للشاه وقال ان هذا السفير الجديد أرسل مبعوثا الى فرح اباد ويبدو أنه يسىء • الظن بى اذ أوصاه أن يسلم رسائله للشاه شخصيا ، وقد ظل مبعوثه عدة أيام فى انتظار مقابلة الشاه وفى النهاية لم يستطع رؤيته فأعاد السفير رسائله » •

بعد هذا كتب بيترو دلافاله فى رسالته الخامسة فى مايو ١٦١٩ يصف وصول السفير الاسبانى الى قزوين وترتيبات مقابلة الشاه له فقال :

« فى يوم الخميس ١٣ يونيو ١٦١٨ م (١٨ جمادى الثانى ١٠٢٧ هـ) علم ان السفير الاسبانى الذى جاء الى ايران عن طريق الهند وجزيرة هرمز وكانوا ينتظرون وصوله منذ مدة طويلة قد غادر اصفهان واقترب من قزوين وهو ينتظر أمر الشاه لدخول المدينة وكانوا قد أعدوا منزلا للسفير فى قزوين • فلما علمت بقدومه ارسلت على الفور مترجمى الى هناك لكى يهنئه بالوصول وليخبره أننى سأذهب لاستقباله بنفسى •

فى اليوم التالى أمر الشاه أن يستقبلوا السفير ويدخلوه المدينة وكنت أول شخص ذهب لا ستقباله على بعد ميل من المدينة وأبديت له من الاحترام ما استطعت حتى أننى ترجلت أمامه عن فرسى وهذا ليس

---

(١) Père Melchior des anges

معتادا فى ايران حتى ان الايرانيين لا يترجلون عن خيولهم امام الشاه أيضا وبعدى بقليل وصل حسين بك كبير الأمناء مع حاكم قزوين وداود خان شقيق امام قلى خان أمير أمراء فارس وقد ارتدوا ملابس فخمة مع صديريات من الأطلس المقصبة وعمامات محلاة بالجواهر والريش المختلف وسروج خيولهم ولجمها فضية وذهبية وبصحبتهم مئتان من الفرسان من عظماء المدنية وذلك لاستقبال السفير بناء على أمر الشاه ·

قال داود خان للسفير نحن جميعا عبيد الشاه وكان يقصد من هذا ان يظهر عظمة شاه ايران وجلاله · ثم سرنا جميعا فى اثر السفير اثنين اثنين · وقد سرت أنا وداود خان مع مترجم السفير ـ الذى كان يرتدى الملابس الأسبانية وعارى الرأس ويسير بيننا ، وكان كبير الأمناء والحاكم يسيران على بعد عدة أقدام أمامنا ·

كان السفير يتحدث طول الطريق مع داود خان ويبدى نحو أسرته كثيرا من الاحترام وقد اثنى كثيرا على شجاعة ابيه الله وردى خان ومهارته وابدى كثيرا من التأثر على وفاته واسفه كثيرا على عدم رؤيته ولكننى كنت أعجب من هذا الكلام لأن الله وردى خان مع كل شجاعته ومهارته لا يجب أن يكون موضع اعجاب أو ثناء سفير ملك اسبانيا لأنه كان قد استرد جزيرة البحرين اهم مركز لصيد اللؤلؤ من أمير هرمز وفى الواقع من البرتغاليين كما استعاد ابنه امام قلى خان أمير أمراء فارس الحالى قلعة ميناء جمبرون التى كان البرتغاليون يحتلونها مع مائتى ميل من البحر حولها ·

حتى لا اخرج عن الموضوع ، فقد كان السفير الاسبانى يدعى دون جارسيا دى سيلفا فيجورا وكان رجلا مسنا أبيض الشعر وقد تساقطت اسنانه ، ومع هذا فقد كان يبدو صحيح الجسم قويا ومع أنه فى العادة يسافر فى محفة (تخت روان) الا أنه دخل قزوين فى ذلك اليوم ممتطيا حصانا ·

كان السفير ومرافقوه يرتدون الملابس الاسبانية التى كانت تتميز بالياقات المنشاة المتعرجة الجميلة ولم يكن عدد مرافقيه يتجاوز العشرين أو الخمسة والعشرين وبعد أن أوصل أعيان ايران السفير الى منزله تركوه — كما هى العـادة فى ايران — دون أن يترجلوا من على ظهور خيولهم · فيما عداى أنا لاننا مواطنان ومعنا كبير الامناء بمقتضى واجبه ، فقد رافقناه الى حجرته · وقد ذكرت للسفير اننى مواطن له تبعا لمفهوم الايرانيين الذين يعدون جميع المسيحين الاوربيين من أى دولة كانت مواطنين لبعضهم · وقد بقيت لدى السفير اكثر من ساعة وتحدثت معه فى كل أمر خاصة فيما يتعلق بشئون اسبانيا ·

وفى يوم الاحد ٢٧ يونيو (٢٢ جمادى الثانى) سمح الشاه للسفير الاسبانى كى يتشرف بمقابلته فى احدى الحدائق الملكية وكانت تسمى حديقة الجنة وليس لها اى طريق سوى شارع واحد يمر بالقرب من القصر الملكى ·

كان الشاه قد وجه الدعوة الى شخصيات مختلفة كنت من بينهم وقد حضر هذا الحفل اكثر من مائة شخص من مختلف الدول يتحدثون بلغات مختلفة وكانوا يلبسون ملابسهم الوطنية ·

وقد اخبروا السفير منذ الصباح أنه يجب عليه مقابلة الشـــاه فاخذ فى اعداد نفسه وارتدى ملابس السفراء كما أمر مرافقيه أن يرتدوا الملابس الرسمية الاسبانية ولما كان يريد ان يعرض هدايا ملك اسبانيا على الشاه فى نفس هذا اليوم فقـد اختاروا خمسمائة شاب وسيم من ابناء المدينة وأرسلوهم اليه لكى يحمل كل منهم قطعة من الهدايا مهما صغر حجمها وذلك حتى تبدو قيمة الهدايا وكثرتها ·

وكانت هدايا السفير التى احضرها معه الى قزوين كما ذكرنا تساوى نحو مائة الف اكوى اسبانى · بالاضافة الى هذا فقد احضر ثلثمائة حمـل جمل من الفلفل من الهند كهدية تركها لرجال الشـاه

في اصفهان وكانت هداياه تضم بعض الاواني الذهبية والفضية والبللورية والجواهر والاحجار الكريمة ومن بينها صندوق به ستين سلسلة مختلفة محلاة بالزمرد والماس وانواع الجواهر الاخرى · وقد حملها ستون شخصا اي انه حسب العادة في ايران حمل كل شخص سلسلة كذلك كان من بين الهدايا بعض السروج واللجم المحلاة بالذهب والسهام والاقواس والبنادق ذات الفتيلة والات الحرب الاخرى المرصعة وكذلك خنجر وسيف مرصعان بالجواهر الثمينة كان ملك اسبانيا قد تمنطق بهما فقط في يوم زفافه وضمت الهدايا بعض المبارد والادوات الاخرى التي تستعمل في الحدادة والنجارة نظرا لان شاه ايران اثناء فراغه كان يحب هذه الاعمال اليدوية فارسل له ملك اسبانيا هذه الادوات لاسعاده وكان من بين الهدايا أيضا دروع اوربية ورماح هندية وملابس مختلفة وصور من بينها صورة ان النمساوية ملكة فرنسا الجديدة وصورة اخرى لبنت ملك اسبانيا الكبيرة والتي قدمها السفير كهدية منه للشاه عباس ·

حينما رتب عرض الهدايا حسب رغبة السفير خرج من منزله في الساعة الثانية بعد الظهر وتوجه للقصر الملكي وكما كانت العادة فان حملة الهدايا كانوا يتقدمون السفير واحدا وكان هو يسير في اثرهم وعلى هذا النحو مروا من الشرع الرئيسي في المدينة حتى وصلوا الى باب قصر الشاه وقد شاهدتهم من فوق سطح منزلي والسبب في انني لم اخرج ولم اذهب للقصر الملكي انني أعرف أن عرض الهدايا يستغرق وقتا طويلا والجلوس امام الشاه على الركبتين مدة طويلة على هذا النحو ليس أمرا سهلا ·

وعندما وصل السفير الى الباب الكبير للحديقه لم يكن الشاه قد وصل بعد ولهذا رجوا السفير أن يستريح في مكان للجلوس مستدير كانوا قد أعدوه مثل العرش وفرشوه بالسجاد تحت شجرة كبيرة · ولا شك ان روحه وجسمه كانا في عذاب · كانت روحه في عذاب

لاجلاسه مدة طويلة قرب طريق عام وهذا السلوك مع اشخاص في مقامه ومنزلته غير مقبول على الاطلاق في أوربا وكان في عذاب جسمي لجلوس رجل مسن مثله ساعتين اثناء الصيف وفي أشد ساعات النهار حرارة يمثل هذه الملابس الاسبانية الضيقة والياقات المرتفعة المنشاة ٠

واثناء جلوس هذا العجوز تحت الشجرة في انتظار أوامر الشاه أكتب لكم بضعة أسطر عن هذه الحديقة : ـ

يطلق الايرانيون على هذه الحديقة اسم حديقة الجنة وفي رأى انه من الافضل أن يطلقوا عليها اسم الحديقة البرية او الغابة الوطنية لانه لا يوجد في هذه الحديقة سوى اشجار الحور العالية الكثيفة التي تظللها من كل ناحية ، ولا توجد اشجار اخرى غيرها وطرقات هذه الحديقة عريضة جدا وتمتد على مدى البصر وعلى جانبي كل شارع نهيرات تتدفق فيها المياه ٠٠٠ وفي وسط الحديقة اقاموا مبنى صغيرا من عدة غرف وفي مقابل هذا المبنى بركة للمياه مربعة كبيرة وعلى احد جوانبها المواجهة للمبنى اقاموا سقيفة تدخل في بركة السباحة كأنها شبه جزيرة تحيط بها المياه من ثلاث جوانب ويحمل السقف اربعة أعمدة فقط بحيث يصبح المكان مفتوحا ولا يحول دون سريان الهواء وتحت السقف مكان غير متسع بحيث لا يجلس الا اشخاص قليلون يستطيعون التمتع بنسيم الحديقة وهوائها العليل ٠

وكان الشاه يريد أن يستقبل السفير الاسباني في هذا المكان الصغير ، ولكن عدد المدعوين كان كبيرا ولهذا أمر ففرشوا حول حوض السباحة بالابسطة ٠

وبعد أن وصل الشاه الى الحديقة وذهب الى شبه الجزيرة تلك ، أدخلوا السفير مع هداياه ومر الاشخاص الذين كانوا يحملون الهدايا بالترتيب من أمام الشاه ثم لفوا من خلف الضيوف حول حوض السباحة وذهبوا للمكان الذى حدد لهم ٠

ولم اكن فى الحديقة أثناء عرض الهدايا ولكن الذين حضروا قالوا أنه بعـد وصول السفير الاسبانى نهض الشاه من مكانه وذهب لاستقباله بكثير من الترحيب والمحبة وعندما رأى السفير الشاه أدى الاحترام الواجب وقبل يده وطرف ثوبه ثم قبل رسالة ملك اسبانيا واعطاها للشاه • بعد هذا ارشد الشاه سفير اسبانيا الى السقيفة التى سبق وصفها فحمله ستة من غلمان الشاه وبعده دخل السفير العثمانى ايضا •وكان هناك حاكم جيلان واحد كبار رجال كردستان وبعد دقيقة توجه الشاه الى هناك وكان يحمل فى يده احدى البنادق التى احضرها السفير الاسبانى كهدية وقد طلب من دون جارسيا بيانات عنها •

غير الشاه والاشخاص الاخرين الذين ذكرتهم كان يقف مترجم السفير الاسبانى بين الشاه والسفير عارى الراس ويقوم بترجمة كلام الاثنين وكان بقية الحاضرين ــ كما قلت ــ يجلسون حول حوض السباحة •

فى الناحية السفلى من حوض السباحة التى يدخل المدعوون من ناحيتها كانت سفرة العشاء معدة على الابسطة وكانت الاوانى الكبيرة الذهبية والفضية المملوءبالارز تبدو من بعيد كاهرامات مصر • وكان الخدم الخاص للشاه يقفون بملابسهم المازندرانية القصيرة استعدادا لتوزيع الطعام على الضيوف • وكان الانجليز اقل الضيوف عددا فى هذه الضيافة ، وقد جعلوهم فى اخر السفرة ولو لم يكن مندوب الانجليز المقيم فى ايران اكثر احتراما من مواطنية لما وجد مكانا مناسبا لجلوسه • وكان اتباع السفير الاسبانى سواء المخدومين أو الخدم يجلسون بعد الرعايا الانجليز ، ولم يكن يفصل بينهم الا مجرى الماء الخـارج من حوض السباحة • وكان المرافقون للسفير العثمانى يجلسون قبل مرافقى السفير الاسبانى وقبلهم بعض كبار العرب والاكراد الذين جاءوا من انحاء ايران المختلفة وكانوا ضيوفا على الشـاه وقبلهم كان يجلس شقيق امير مكران الولاية التى على حدود ايران وساحل بحر عمان •

وقد أجلسني كبير الامناء الذي نظم هذه الضيافة وأشرف على كل شيء فيها قبل شقيق امير مكران لانه اعتقد انني لما كنت لا أمثل اية دولة ، وجئت الى ايران برغبتي ، فانني أكثر اعزازا واحتراما من كل الاوربيين المدعوين لهذه الضيافة ، ولا يجب ان اجلس معهم في مكان واحد • ولم يكن يجلس قبلي سوى وزير مازندران وبعض كبار رجال تلك الولاية وذلك لخدماتهم الجليلة للشاه ولتشرفهم بالحصول على خلعته العادية وهي نصف جبة مقصبة بالذهب •

وأخذ الشاه يتحدث مع سفيري أسبانيا وتركيا في موضوعات مختلفة حتى الغروب ولم يتعرضوا للمسائل السياسية • وكانوا اثناء الحديث يتناولون كئوسا من الشراب او يأكلون بعض الفاكهة • ولم يقدم لنا شيء منها وأخذ كل واحد يتحدث مع من بجانبه • ولما اظلمت الدنيا احضروا أولا مصابيح شمعية كبيرة وضعوها خلفنا على مسافات معينة ، ثم فرشوا أمامنا مفارش مائدة صوفية ، ثم وضعوا عليها شموعا كبيرة ومصابيح (شمعية) مختلفة • وكان ضوء هذه المصابيح المنعكس على صفحة الحوض يختلط مع ضوء السماء الصافية على مياه الحوض الجميل ، وتلك الاشجار الخضراء الشاهقة مما يعطي صورة جميلة تبعث على البهجة ، لا يمكنني أن اتصور اجمل منها •

بعد أن رتبت الشموع والمصابيح بشكل معين احضروا العشاء وكان خدم الشاه يقدمون الشراب لمن يرغب في أباريق وكئوس من الذهب ، او يقدمون له الماء في اباريق كبيرة مملوءة بالثلج • وقد تم تناول العشاء بسرعة لان السفير الاسباني لم يستطع الجلوس على الارض بملابسه الضيقة اكثر من هذا مما دعاه الى الاستئذان من الشاه في الانصراف ، وقال له انه لو بقي أطول من ذلك على هذا الوضع فسيموت • وقد سمح له الشاه بالانصراف ، وبعد ذهابه نهض أيضا

السفير العثماني من باب الادب وبقى الشاه وحده ولم يمض الا القليل حتى طلبنا الاذن ايضا وخرجنا من الحديقة ... » .

نسيت أن أذكر أنه أثناء هذه الضيافة ـ كما هي العادة ـ لم ينقطع صوت الموسيقى وغناء المغنين ، ولكن هذا لم يمنع حديث الحاضرين لان العادة في مثل هذه الحفلات أن العزف والغناء يكون هادئا ... » .

وقد قابل السفير الاسباني الشاه عباس مرتين خلال شهر بعد هذا الحفل الرسمي ، وكانت المرة الاولى مصادفة اذ أن السفير كان قد خرج من منزله لزيارة صديق فالتقى بالشاه أثناء الطريق فاصطحبه الشاه معه الى احدى الحدائق الملكية القريبة من الميدان وهناك تناول معه الشراب مدة في حضور جماعة من رجال البلاط . وتحدث معه بحرارة في كثير من المسائل وبعد بضعة أيام عندما أراد الشاه استعراض هدايا حاكم مدينة شماخي ويوسف خان حاكم شروان في ميدان قزوين فقد دعى السفير الاسباني الى الميدان وتناول الحديث كل الموضوعات سوى الموضوعات السياسية .

وفي أواخر شهر رجب من نفس السنة علم أن الشاه ينوى الرحيل من قزوين والذهاب الى اذربيجان ، فأراد السفير الاسباني أن يطلب الاذن بمقابلته ويعرض عليه في مجلس خاص سبب مجيئه وسفارته . وقد كتب بيترو دلافاله في هذا الشأن يقول : « حين علم السفير الاسباني بنية الشاه على الرحيل أثار ضجة كي يستقبله الشاه في جلسة خاصة ولكن هذا الامر كان يبدو مستحيلا لان شاه ايران لم يكن يستقبل السفراء الاجانب في قصره أبدا على انفراد اذ أن استقبالهم كان دائما في ضيافة رسمية حتى ولو كان لدى السفراء موضوعات سياسية هامة فلم يكن هناك ما يمنع من عرضها عليه في وجود الاخرين . ولكن السفير الاسباني لم يتحدث في المسائل السياسية بين الدولتين مع أنه قابل الشاه ثلاث مرات .

ولقد سعى السفير كثيرا لعله يستطيع أن يتحدث مع الشاه في جلسة خاصة وقد بذل حسين بك كبير الامناء واغامير وزير الغلمان جهودا كبيرة في هذا الصدد ولكنها لم تكلل بالنجاح وفى النهاية لجأ السفير الاسبانى الى القس جان ثادية (١) رئيس القسس الكرمليين فى اصفهان والذى كان قد جاء لمقابلة الشاه وقد الح القس على شاه ايران حتى يقبل طلب السفير الاسبانى • وقد استجاب الشاه يوم ١٩ يونيو ١٦١٨ م (٢٥ رجب ١٠٢٧ هـ) لرجائه ـ كما سنبين فيما بعد •

ففى عصر يوم ١٩ يونيو طلب الشاه من السفير الاسبانى أن يحضر الى ميدان قزوين ، وحين وصل الشاه توجه مباشرة الى السفير الاسبانى ، وبعد ان تحدث بضع دقائق مع الآخرين فى وجود السفير اشار اليه كى يسير معه ثم سارا راكبين فرسيهما ودارا عدة دورات فى الميدان ، وكان مترجم السفير وهو عارى الرأس يركب فرسه ويسير بينهما ، وكنا لا نسمع ما يدور بين الشاه والسفير ، ولكن ساروتقى وزير مازندران واسفنديار بك وهما من خاصة الشاه وكانا يسيران خلفهما مباشرة قد اطلعا على موضوع المحادثات •

ولقد سمعت فيما بعد نقلا عن السفير أن فيليب الثالث شكى من الاستيلاء على البحرين مركز صيد اللؤلؤ وقلعة جمبرون وميناءها والتى استردها جيش ايران من أيدى البرتغاليين ولكن الشاه دون أن يشير الى موضوع الاستيلاء على الميناء أجاب بقوله اننا اخذنا جزيرة البحرين من أمير هرمز الذى كان منذ القدم تحت حمايتنا ويدفع الخراج لنا ، ولم يكن هذا الأمر يرتبط بالبرتغاليين رعايا ملك أسبانيا ، ولهذا فلا موجب لشكوى ملك اسبانيا أو عتابه ، وعلى عكس ما يتصوره السفير فليس للحكومة الأسبانية اية حقوق على جزيرة البحرين •

---

(١) Pere Jean Thadee

بعد هذا ترك الشاه السفير الأسباني وتوجه الى قصره وبقى السفير وحده في الميدان ، وقد اصطحبه كبير الأمناء حتى منزله وتفرقنا نحن أيضـــا ٠

كان الشاه عباس حاد الذكاء ماهرا ، فقد كان اثناء احاديثه السياسية يتكلم بحيث يرضي الجانب الآخر ، ولكنه لا يتعهد له بشيء يستمع للحديث ولكنه لا يهتم له وكان لا يعقد اتفاقا ضد مصالحه أو منافعه ولا يمكن استنتاج نواياه مما يتظاهر به ٠

بعد ذلك حينما رأى السفير الأسباني أن الشاه على وشك الرحيل طلب مقابلته ليستأذن في العودة الى وطنه ويتسلم الرد على رسالة ملك أسبانيا ،ولكن طلبه لم يقبل ، وبعث له الشاه عباس من يقول له أنه لما كان بعض رفاقه مرضى ، ولما كان السفر بالنسبة له صعبا متعبا نظرا لكبر سنه ، فمن الأفضل أن يذهب الى اصفهان ويستريح هناك من عناء السفر ووعده أنه حينما ينتهى من حملته العسكرية ويعود الى اصفهان فانه سيهيء له ما يرضيه ٠ وكانت هذه الرسالة من الدهاء بحيث لم يجد السفير الأسباني مفرا من قبولها لأن الشاه كان قد طلب من السفير عـــدة مرات أن يرافقه الى اذربيجان ولكن السفير تذرع بمرض مرافقيه وشيخوخته لرفض طلب الشــاه ٠

ومن البديهى أن الشاه لم يسمح للسفير الأسباني بالعودة لأحد اسباب الثلاثة التالية :

١ — أراد أن يرد على سوء تصرف السفير لرفضه الدعوة لمرافقته له في السفر الى آذربيجان ٠

٢ — أراد كعادته أن يبقى السفير في ايران بعض الوقت لانه كثيرا ما ذكر أن السفراء اذا أنهوا مهامهم بسرعة وعادوا الى بلادهم فيجب أن يسموا سعاه بريد لا سفراء ٠

٣ — ربما أراد أن يبقى السفير في ايران حتى تعرف نتيجة حربه مع

السلطان العثماني كي يتمكن من اتخاذ اجراء يتعلق بتوثيق عـــلاقات الصداقـة مع ملك اسبانيا أو قطعهـا ٠

على اية حال فان الشـاه غادر تزوين دون أن يقابل السفير الـذى اضطر للتوجه الى أصفهان ٠

الاستيلاء على ميناء جمبرون

قبل أن نستطرد في الحديث عن سفارة دون جارسيا دى سيلفا ، نتحدث عن ميناء جمبرون وأحواله السياسية في ذلك الوقت ٠

كان ميناء جمبرون عبارة عن قرية صغيرة على ساحل مضيق هرمز يبعد عن جزيرة هرمز نحو فرسخين ، ولم يتفق الرحالة الاوربيون على صحة اسم هذا الميناء فمن جمبرون الى كمبرون بضم الجيم والكاف وفتحهما الى كمبرو أو الاكتفاء باطلاق اسم « البندر » عليها أو حتى البندل ٠

عندما استولى البرتغالون على جزيرة هرمز وجعلوا أمير تلك الجزيرة تحت حمايتهم ، واستولوا ايضا على ميناء جمبرون الصغير بحجة انه ضمن ممتلكات أمير هرمز مع مائتى ميل من المياه المحيطة به ولمـا كانت سواحل الجزيرة لا يوجد بها ملجأ مناسب لسفنهم الحربية الصغيرة فقد جعلوا ميناء جمبرون مرسى لمثل هذه السفن كما بنوا قلعة هناك في بداية حكم الشاه عباس لتتولى حراسة سفنهم والمحافظة عليها والتى كان يوجد منها بصفة مستمرة نحوا من ٢٥ الى ٣٠ سفينة مسلحة وكان رجال المراقبة في جزيرة هرمز عندما يرون سفينة أجنبية في البحـــر يخبرون سفنهم باطلاق المدافع حتى تخرج هذه السفن من ميناء جمبرون لتحصيل رسوم العبور في المضيق والرسوم التجارية الاخرى ٠

وبعد استيلاء البرتغاليين على البحرين وسوء معاملتهم للتجـــار الايرانيين وأهالي جمبرون وكل الموانى والجزر المحيطة بهم صمم الشـــاه عباس على القضاء على نفوذهم في سواحل الخليج قدر الامكان ٠ وكلف الله وردى خان أمير أمراء فارس لتنفيذ هذا الاجراء ٠ وقد أرسل حاكم فارس بدوره ابنه أمام قلى خان والذى كان حاكما على لار للاستيلاء على مينـــاء جمبرون وذلك سنة ١٠٢٢ هـ ٠ ولكنه لم يتمكن من فتح القلعة في ذلك العام

وفى العام التالى وبعد وفاة أبيه (١٤ ربيع الثانى سنة ١٠٢٢ هـ) وحينما أصبح مكانه أميرا للامراء تمكن من الاستيلاء على قلعة جمبرون وخربهـا وأنشا بدلا منها قلعة حصينة على نمط القلاع التى كانت تبنى آنذاك فى أوربا على مسافة ٣٠٠ قدم من القلعة السابقة بعيدا عن البحر ٠

منذ ذلك الحين خرج ميناء جمبرون من أيدى البرتغاليين وخضـــع للسيطرة الايرانية وفوض امام قلى‌خان أحد قواده لحكومة هذا الميناء وادارته٠

وعندما وصل دون جارسـيا دى سيلفا فيجورا سفير أسبانيا الى ايران كان حاكم جمبرون اسمه قاسم بك وكان هذا الميناء يتكون من نحو مائتى منزل وقد ارتقى ميناء جمبرون كثيرا بعد أن استولى الشاه عباس على جزيرة هرمز وسمى الميناء منذ ذلك الوقت باسم بندر عباس وأصبح مركز تجارة الانجليز والهولنديين كما ستتبين ذلك فيما بعد ٠

بعد أن توجه الشـاه عباس من قزوين الى آذربيجان كما سبق أن ذكرنا اضطر دون جارسيا سفير اسبانيا للذهاب الى اصفهان بناء على أوامره وأقام هناك فى انتظار انتهاء الحرب الايرانية العثمانية وعـودة الشـــــاه عباس الى عاصمته اصفهـــان ٠

ولكن الشاه عباس بعد ان انتهى من الحرب مع العثمانيين وتصالح معهم عاد الى قزوين ومنها الى فرح اباد فى مازندران (٢٨ ذى القعـــدة ١٠٢٧ هـ) ولم يعد الى عاصمته حتى الثالث من شهر رجب فى العام التالى (١٠٢٨ هـ) ٠

وقد وصلت بعض الرسائل من ملك أسبانيا عن طريق مندوبية فى الهند الى دون جارسيا وذلك خلال المدة التى قضاها الشاه فى فرح آباد(١) مازندران وقد تضمنت هذه الرسائل أن روبرت شيرلى سفير الشاه عباس الى ملك اسبانيا قد اقترح عليه اقتراحا خلاصته ان الحكومة الاسبانية اذا ارسلت بعض السفن الحربية الى مدخل البحر الاحمر واغلقت طريق التجارة مع الهند فى وجه الجزيرة العربية ومصر وبقية الدول التابعة للعثمانيين فان شيرلى سيطلب من الشاه عباس أن يبذل مساعدات أكثر فى المسائل التجارية

---

(١) فرح اباد كان اسمها طاحونه (المترجم) ٠

والسياسية للبرتغاليين الاسبان في جزيرة هرمز والهند وربما استرضى الشاه عباس حتى يصرف النظر عن ميناء جمبرون وايضا يعيده مرة ثانية للحكومة الاسبانية • ورأى ملك اسبانيا أن يطالب باعادة جزيرة البحرين كشرط لقبول هذا الاقتراح ولكن روبرت شيرلى ذكر أنه لا يمكنه التفاوض في هذا الامر على أية حال فان ملك اسبانيا لايثق في كلام روبرت شيرلى مع انه كاثوليكي المذهب ويطلب من القس ملكيور ديزانج المندوب المقيم لاسبانيا في ايران أن يتفاوض مع الشاه عباس مباشرة بشأن مقترحات سفيره ويبلغ الحكومة الاسبانية عن مدى صحتها حتى يمكن للحكومة الاسبانية أن تعقد اتفاقا مع روبرت شيرلى بشأن ارسال سفن حربية للبحر الاحمر بشرط ان تعيد الحكومة الايرانية الى اسبانيا ميناء جمبرون على الاقل •

وقد ارسل دون جارسيا هذه الرسائل من اصفهان الى قزوين حيث كان يقيم القس ملكيور آنذاك فحملها القس وتوجه بها الى فرح آباد لمقابلة الشاه ولكن الشاه عباس قال له أنه لا حاجة به الى السفن الحربية الاسبانية نظرا لأنه كان قد تصالح مع الحكومة العثمانية كما أبلغه عن طريق السفير أيضا أن الاراضى التى استولى عليها ارض ايرانية ولن يعيد شبرا واحدا منها للبرتغاليين •

ويجب أن نذكر هنا انه قبل أن تصل رسائل ملك اسبانيا الى سفيره دون جارسيا فان روبرت شيرلى كان قد قام بارسال عدة رسائل باللغة الاجنبية وبواسطة مبعوث خاص عن طريق حلب الى القس جان تاديه رئيس القسس للكرمليين في اصفهان ورجاه أن يترجمها للشاه عباس ولكن هذه الرسائل وصلت الى القس في اصفهان بينما كان الشاه وقتذاك في أردبيل وكانوا يقولون أنه سيتوجه منها الى أصفهان ولهذا اضطر القس الى حملها معه الى اصفهان ولكن الشاه توجه الى مازندران خلافا لما كان شائعا وحينما طلب منه القس جان تاديه تعليمات بشأن رسائل روبرت شيرلى رد عليه بأن يبقيها معه حتى يعود هو الى اصفهان ويعرضها عليه ، ولهذا بقيت رسائل روبرت شيرلى مدة في اصفهان دون أن تقرأ • ولهذا أستطاع سفير اسبانيا في ايران أن يطلع على مقترحات روبرت شيرلى قبل أن يطلع عليها الشاه وذلك عن طريق الرسائل التى وصلته من الهند •

في أواسط سنة ١٠٢٨ هـ عاد الشاه عباس من مازندران الى أصفهان

وبعده بثلاثة أيام وصل سفراء الهند والعثمانيين وحكومة موسكو الذين كانوا قد التقوا قبل هذا مع الشاه فى أردبيل وقزوين • وقد كتب بيترودلافاليه ـ الذى كان آنذاك فى اصفهان ـ يصف وصول السفراء وترتيبات استقبالهم بالتفصيل • ولما كان يمكننا من هذا الوصف الوقوف على مراسم البلاط الايرانى وترتيبات استقبال السفراء الاجانب فى ذلك العصر ، فاننـــا ننقل هنا خلاصة الاجزاء الهامة التى كتبها :

فى صباح يوم الاربعاء ١٩ يونيو ١٦١٩ م (٦رجب ١٠٢٨ هـ) وصل الى اصفهان سفراء الدول الثلاث : الهند وموسكو والعثمانيين بكثير من الحفاوة ، وكانت حكومة موسكو قد بعثت بسفيرين الى بلاط الشاه عباس ، وقد توفى احدهما فى قزوين ووصل الآخر مع سكرتيره الى اصفهان ، وفى يوم وصول السفراء أعلن الشاه لاهل اصفهان أنه سيستقبلهم شخصيا ، ويجب على أهل المدينة أيضا أن يستقبلوهم ويرحبوا بهم ، كما طلب من سفيرى الدولتين الاخريين وهما سفير اسبانيا ومندوب انجلترا وكانا يقيمان قبله فى اصفهان أن يلحقا به خارج المدينة ليكونا فى استقبال السفراء الثلاثة •

وكان الشاه قد اعد قبل هذا نحو ٦٠ الفا من حملة البنادق من أهل اصفهان والمناطق المحيطة بها وأمرهم أن يأتوا الى المدينة فى يوم معين وهم على أحسن صورة ممكنة وقد حضروا من مختلف الجهات فى جماعات وقد ارتدوا الملابس الملونة البهيجة وعلى رؤسهم العمائم المزينة بالريش الجميل وكان لكل جماعة قائدها الخاص ، وكانت تسير على أصوات الموسيقى من طبل وأبواق وآلات موسيقية حربية أخرى معروفة فقط فى ايران • كما كان لكل جماعة علمها الخاص بها وحربة مربوط فى نهايتها أشرطه عريضة وبعض الشرائط الرفيعة الملونة • وقد اصطف هؤلاء الجنود البالغ عددهم ستين الفا فى صفين من امام القصر الملكى الواقع فى ميدان اصفهان حتى قرية دولت اباد التى كان بها السفراء وتقع على بعد ١٢ الف قدم من المدينة وكان كل منهم يحمل بندقية وضعها واقفة على قاعدتها بجانبه •

فى صباح هذا اليوم تصاعدت أصوات الطبول والابواق والآلات الموسيقية الاخرى التى تصم الاذان ، وكان الجنود يخرجون من صفوفهم فى جماعات من ثمانية أو عشرة جنـــود ويرقصون كما هى العاده فى ايران وكانت

كل جماعة تتعب من الرقص تعود الى مكانها لتحل محلها جماعة اخــرى تتابع الرقص وتعطى سلاحها للآخرين حتى تنتهى من رقصها وقد لاحظت أن الايرانيين ميالون للرقص كثيرا فهم عندما يسمعون صوت الموسيقى ويشاهدون جماعة ترقص يفقدون سيطرتهم على أنفسهم شيئا فشيئا حتى أكثرهم وقارا واتزانا فانهم يشتركون فى أماكنهم بالرقص بتحريك أيديهم واقدامهم وعيونهم وحواجبهم ورؤسهم ٠

على أية حال فان الطريق كله من دولت اباد حتى اصفهان ويبلغ نحو اربعة كيلو مترات استمر فيه الرقص والغناء والموسيقى من الصباح حتى المساء وانشغل الناس بالرقص والحركة والتصفيق وكان يسمع بين لحظة وأخرى صيحات « اطال الله بقاء الشاه عباس ونصره » ٠

وكان يقف أمام قصر الشاه وعلى طول الميدان صفان من الغلمان الحسنى الصورة الى جانب الصفين من حملة البنادق وكانوا يحملون أقداحا ذهبية للشراب وبعضهم يحمل آنية الماء المثلج وكانوا يسقون الناسرمن هذا او ذاك٠

وكان الشـــاه عباس قد أمر رجاله المعروفين وأعيان البلاط كي يخرجوا الى دولت آباد لاستقبال السفراء فتوجهوا الى هناك وسط صفوف الجنـد وسار خلفهم تابعوهم ومرافقوهم وكانوا يلبسـؤن ملابس فاخرة من الحرير وعمائم محلاة بالجواهر النفيسة والريش الجميل ويركبون خيولا أصيلة الجمتها فضية او ذهبية وكان الازدحام شديدا حتى يخيل اليك ان كل أهل اصفهان ركبوا الخيـول وخرجوا للاستقبال ٠

ولم يكتف للشاه بهذا بل أمر بقيـة الناس من غير المسلمين من فرنجة ومجوس وأرمن ويهود كى يخرجوا للاشتراك فى الاستقبال خاصة اليهود الذين كان قد اكد عليهم وقد خرجوا من المدينة فى جماعات وكانوا يغنون أغـانى خاصة ويقرأون أدعية ويحملون شيئا ملفوفا فى قماش يقال انه التوراة مع شمع مضاء ، كما كان المجوس مع نسائهم وبناتهم يغنـــون ويرقصون فى الحوارى ٠ وكان يقف فى وسط حملة البنادق سبعمائة شخص من مسيحيى جلفـــا كما كان يقف ثلاثمائة فارس باسلحتهم الـــكاملة وملابسهم الجميلة فى مكان اخر معين لهم من قبل ٠

بالاضافة الى هذا أمر الشاه أن تشترك جماعة من نحو عشرين الى خمسة وعشرين سيدة من نساء الحرم فى استقبال السفراء ، وهذا الامر من بين التشريفات الخاصة التى تحدث مع السفراء فوق العادة فقط وقد سار هؤلاء النسوة راكبات خيولهن مكشوفة وجوههن وفى كامل نظامهن لاستقبال السفراء ، وكما قلت كان معروفا انهن من نساء الحرم ، ولكننى على يقين أنهم غير ذلك لان نساء الحرم وحتى جوارى الشاه لايستطيع أى رجل حتى سوى الشاه شخصيا والغوات قصوره رؤيتهن، ويستطيع المقربون أيضا مثل الاب أو الاخ الذهاب لرؤيتهن فى قصر الملك ٠

حينما سمع السفير الهندى ان الشاه سيخرج لاستقباله فى قرية دولت آباد انتظر هناك طويلا ، ولكن الشــاه ــ الذى كان فى رأسه فكرة أخرى ــ اكتفى بارسال الاعيان وكبار رجال الدولة وبقى الشاه فى اصفهان حتى اضطر السفير الهندي فى النهاية الى التوجه للمدينة واضطر سفيرا العثمانيين والروس الى متابعته فى السير ٠ ومن الاشخاص الذين كلفهم الشــاه بالذهاب لاستقبال السفراء كان السفير الانجليزى الذى لم يــكن يهتم بالسلوك والتقاليد الدبلوماسية والملكية ، فقد ذهب الى دولت آباد كذلك ارسل الشاه عباس سبعة خيول بالجمة وسروج ذهبية خصيصا للسفير الاسبانى وطلب منه الخروج من المدينة ليكونا معا فى استقبال السفراء ورؤيتهم ٠ وقد أطاع هذا الكهل المتكبر وخرج برفقة حاكم المدينة ٠ ولما كان لايريد ان يرافق بقية السفراء ترفعا منه وتكبرا ، فقد كان دائم البحث عن الشــاه ٠ ولكن الشاه كان على العكس يريد أن يرى السفير الهندى الذى من أجله أقيمت كل هذه الاستقبالات ٠ ولهذا فقد غادر المدينة عن طريق آخر وحينما وصل الاشخاص الذين كانوا يتقدمون موكب السفير الهندى الى مشارف المدينة التقوا بالشــاه فى مكان على مقربة منها فادى مراسم الاستقبال وبعد ساعة ونصف من وصول الآخرين للمدينة اصطحب الشــاه سفير الهنــد وحده الى القصر الملكى ، وقد غضب السفير الاسبانى حين عــلم أن الشــاه لم ير السفراء الآخرين بل حتى لم يستقبلهم وأخذ يشكو قائلا أن مقامه ارفــع من أن يخرج ليستقبل تاجرا ، وكان يقصــد بالتاجر سفير الهنــد ، ذلك ان أكثر رجال الهنــد آنذاك كانوا تجـــارا محترفين ولكنه كان مخطئا اذ أن هذا السفير الهندى كان من أقارب ملك الهنــد وكان أحد أهم ثلاثة رجال فى بلاطه ، وكان هؤلاء الثلاثة بالترتيب

هم : خــان الخانين ، وكان يلى الشاه فى علو المرتبة ، ثم أمير الامراء ، والثالث خان العالم ، وهذا الشخص الذى أرسله السلطان سليم الملقب نور الدين جهانكير كسفير الى الشــاه عباس كان خان العالم أى الشخص الثالث فى الهند بعد السلطان ٠

على اية حال لم يكد سفير أسبانيا يعود فى غاية الضيق والغضب الى منزله مع مرافقيه حتى ارسل الشاه فى اثره حسين بك كبير الامناء وطلب منه أن يذهب الى القصر الملكى لان كل السفراء هناك فاضطر دون جارسيا لارتداء ملابسه من جديد والذهاب الى القصر مع مرافقيه ، وكان هناك حسين بك قورجى وداود خان شقيق أمام قلى خان أمير أمراء فارس وقرجقاى خان قائد الجيش الايرانى وكذلك كل الوزراء واصطحب تيمور آغــا رئيس أغوات القصر السفير الى الداخل وكان فى القاعة الكبرى السفير العثمانى وســـفير الهند وشقيق شريف مكة وسفير الازبك والروس ومندوب انجلترا ٠ وبعد دقائق دخل الشاه من بـاب خاص مع اثنين من الخدم وحيا السفراء واختار مكانا لكل واحد وأجلس سفيرى الهند واسبانيا على مقربة منه كما سمح لمرافقى السفير الاسبانى بالدخول ٠ ولــما كان السفير الاسبانى لايستطيع الجلوس على الارض ، فقد طلب أن يحضروا له كرسيا قصيرا ٠

فى هذا المجلس قام كل سفير بتقديم رسائل من قبل ملكه ومن بينهم السفير الاسبانى الذى قدم رسالة كانت قد وصلته آنذاك من الملك فيليب الثالث بواسطة قس برتغالى اسمه برنار ازفيدو (١) وقد أعطى الشـاه الرسالة الى القس جان تاديه رئيس القسس الكرمليين فى أصفهان كــى يترجمها ولم تكن هذه الرسالة تتضمن غير المجاملات الرسمية ، ثم شرب الشــاه مع السفراء وبعد ساعة استأذن السفير الاسبانى وعاد ثم تفرق البـــاقون بعـــد ذلــك ٠

وفى مغرب ذلك اليوم دعا الشاه السفراء ومرافقيهم لمشاهدة أضواء السوق واصطحبهم جميعا الى احدى القهاوى وكانت القهاوى آنذاك واسعة كبيرة نظيفة ومفتوحة وفى تلك الليلة زينت كل الاسواق والقهاوى والدكاكين بالمصابيح حيث علقت فى أسقفها مصابيح بدت كأنها النجوم فى السماء ، ولــما كانت

---

(١) Bernard Ozevedo

للقهاوى مسقوفة وفى وسط افنائها توجد احواض كبيرة ، لهذا كانت الارض أيضا تتلالا كالسماء التى ملأتها النجوم من انعكاس مصابيح السقف والمصابيح الاخرى التى وضعت حول الاحواض ·

كما اقيمت أمام كل قهوة اقواس نصر فرشت تحتها البسط المختلفة لجلوس المترددين على القهوة والمتفرجين ، وقد جلس الشاه تحت احد هذه الاقواس ، وأذن للسفير الاسبانى بالجلوس على كرسى فى الناحية الاخرى المواجهة له وجلس السفير العثمانى على يساره وتحت قوس آخر جلس سفراء موسكو ومرافقوهم وجلس مندوب انجلترا ورجاله تحت قوس نصر ابعد قليلا وجلس الآخرون من قسس وضيوف الشاه ورجال الدولة جماعات جماعات فى اقواس نصر اخرى وجلس سفير الهند ـ الذى وصل متأخرا بضع دقائق ـ فى مواجهة الشاه ·

بعد هذا قام غلمان على قدر كبير من الجمال من جورجيا واصفهان ممن يعملون عادة فى مثل هذه القهاوى لخدمة الرواد والرقص باداء رقصات جورجية وايرانية وهندية وتاتارية وهم يلبسون ملابس نسائية ويغنون أيضا على أنغام الموسيقى ·

فى هذه الاثناء أحضروا مفارش مسائده صغيرة وضعوها أمام الشاه والسفراء وقدموا لهم العشاء وقد اكل الشاه قليلا ولكن السفراء لم يتناولوا شيئا من الطعام أما لشبعهم واما لانهم لم يروا من المناسب أن يتناولوا العشاء على هذا النحو ، كما انهم لم يشربوا القهوة التى وضعها أمامهم غلمان القهاوى الحسان الوجوه واكتفوا بشرب الخمور وقد شرب الشاه نخب كل واحد من ملوكهم · وبعد انتهاء الطعام وغسل الايدى من الاباريق ذات الطشوت الذهبية جففوها بالمناديل التى كان يحملها الخدم فى وسطهم نهضوا وخرجوا من القهوة وتوجه الشاه مع السفراء والمرافقين الى السوق واصطحبهم لمشاهدة دارسك النقود الذهبية والفضية ومنازل القوافل (الخانات) ، وكان يتوقف فى الطريق للشرب او مشاهدة بعض الدكاكين · وكان وقوفه دقائق أمام دكان ملك بك رئيس تجار طرابزون الذى كان أكبر دكان فى السوق ثم امام دكان الكساندر شودونولى الفينيسى الذى كان مملؤا بالصور والمرايا والبضائع الايطالية المختلفة · وقد تحدث معه الشاه بعض الوقت فى تواضع وعرض صورة ولوحاته التى كان اغلبها الملوك

ومشاهير ايطاليا على السفير الهندى ورجاه أن يأخذ منها مايريد وألا يتقيد بالثمن لانه شخصيا سوف يرضى التاجر الفينيسى ، ولكن السفير الهندى ابى تمنعا وتكبرا ولم يأخذ شيئا ، كما توقف الشاه امام دكان خواجه نظر أحد تجار جلفا الارمن وبعض دكاكين الارمن الآخرين وأخذ من دكان احدهم زجاجة خمرا استحسنها ثم واصل جولته ٠

كان الشاه طيلة هذه المدة يضحك ويمزح مع السفراء خاصة سفيرى اسبانيا والهند وكان السفير الاسبانى رجلا رزينا موقرا وكان الشاه يخاطبه بلقب « بابا » وكان هو بدوره يراعى الاحترام الكامل للشاه ٠ أما سفير الهند فكان على العكس من ذلك دائم الضحك يتحدث باحاديث لطيفة ويسلك سلوكا وديا جدا مع الشاه ، فمثلا كان أحيانا يضربه على ظهره وأحيانا يتكىء على كتفه كمن يريد أن يسر اليه شيئا فى أذنه وأحيانا يخاطب الشاه ضاحكا بلقب العجوز مع أن شعر رأس السفير ووجهه كان ابيضا لكبر سنه ٠ وكان حديث السفير الهندى وسلوكه فى الظاهر يشمان عن قربه من الشاه ولكنها فى الواقع تدل على خفته وعدم معرفته بالمراسم والسلوك الملكى ، ولعله كان يرتكب هذه الحركات عمدا لكى يتفادى تكبر الشاه الطبيعى وعدم اعتنائه بأحد ٠

بعد مدة من التجول فى السوق شعر السفير الاسبانى بالارهاق والنوم فاستأذن الشاه وذهب الى منزله وتبعه جماعة من المدعوين مثل القس جسان تادية وبقية القسس ٠ وبعد هذا بقليل عاد الشاه الى القصر الملكى دون أن يحس به أحد وظل الباقون حتى طلوع الصباح يتجولون ويشربون ٠

وفى يوم الجمعة ٥ يوليو (٢٢ رجب) اقيمت احتفالات عيد نثر الماء او رش الماء ولم أكن قد شاهدت احتفاله حتى هذا اليوم ٠ ففى هذا اليوم ارتدى جميع الناس ومن مختلف الطبقات وحتى الشاه نفسه ودون أى اعتبار لمراكزهم ارتدوا ملابس قصيرة على طريقة أهل مازندران ٠ وحتى لاتتسخ عمائمهم من الماء او الوحل فقد ارتدوا بدلا منها قبعات وشمروا اكمامهم حتى سواعدهم ٠ وتوجهوا الى شاطىء النهر حيث حضر الشاه وبمجرد أن اذن لهم اخذوا ينثرون الماء على بعضهم باوانى التى كانت معهم وهم يغنون ويرقصون ويلعبون ويضحكون وأحيانا بسبب الغضب

الانفعال أو لاسباب اخرى كان البعض يلقى بالآنية ويأخذون فى نثر الماء بأيديهم أو يلقون بمنافسيهم فى النهر أو الاحواض ، وغالبا ما ينتهى هذا العيـــد ببعض الغرقى ٠

ويتم الاحتفال بعيد نثر المــاء هذا على شاطيء زاينده رود فى نهاية شـارع جهارباغ (الحدائق الاربع) فى مواجهة جسر الله وردى خان الجميل، ولهذا السبب ذهب الشاه الى هناك فى الصباح الباكر وظل طول النهار فى أحدى الغرف التى تحت الجسر يشاهد الاحتفال وقبل أن تنتهى الاحتفالات ببعض الوقت ويكف الناس عن نثر الماء بعضهم على بعض دعى الشاه السفراء الى غرفته تحت الجسر ، ولما كان الوقت ضيقا فقـد سمح للناس بالانصراف بعد وصولهم بقليل واخذ يتناول الشراب اثناء حديثه مع السفراء ٠

فى هذا المجلس افشى الشـاه عزمه على فتح قندهار ، وأثناء حديثه مع سفير اسبانيا أشـار الى سفير الهند وقال له متعمدا ، هل ترى هـذا الرجل ، ان لم يعد ملكه الشـاه سليم قندهار الى فسوف يرى ماذا سأصنع به ٠ وكان الشـاه عباس بهذا الكلام يريد أن يبلغ سفيرى اسبانيا وتركيا بالاتطمع بلادهما فى الاراضى الايرانية لانه فى نفس اليوم ابدى كثيرا من العطف على السفير الاسبانى الذى شكره قائلا : « أننى سعيد بالمحبـة التى يبديها لى صاحب الجلالة لانها فى الواقع احترام الملك أسبانيا » فالتفت الشـــاه الى رئيس القسس الكرمليين الذى كان حاضرا وقال له « بالله هلا قلت له أن احترامى له ليس لاجل ملك اسبانيا بل هو احترام لشخصـــه لأنه ضيفى » ٠

بعد هذا أذن الشـاه للسفراء جميعا بالانصراف فيما عـدا مندوبى انجلترا الذين استبقاهم وأبدى لهم كثيرا من المحبة والاحترام ووعدهم بأن يترك لهم أحد موانى جنوب ايران مثل ميناء جمبرون الذى اسـترده من البرتغاليين ويقع أمام جزيرة هرمز أو مكانا آخر فى جزيرة قشـم التى تمتاز عن هرمز بوجود المـاء العذب بها وقد سمعت الشـاه يكرر لهم القول بانهم اذا نشطوا فى شراء الحرير الايرانى ونقله الى أوربا عن طريق البحر فان يرسل شيئا منه عن طريق العثمانيين البرى ٠

فى اليوم التالى – كما كتب دون جارسيا وكما ذكر بيترو دلافاليه أيضا – قـام الشـاه بدعوة السفراء الى ميدان المدينة لمشاهدة صراع الحيوانات

كالثيران والكباش · وفي اليوم التالي أرسل بعض المربى والحلوى للسفير الاسباني وبعد ليلتين من هذا ذهب مع جميع السفراء الى قرية عباس آبـاد التي كانت على مقربة من قرية « خرابات » - كما يذكر دون جارسيا - وتوجه الى منزل امام قلي خان أمير أمراء فارس · ولما كان قد شاع في أصفهان في ذلك الوقت ان الامير تاج الدين امير صيدا وجماعة من أهل لبنان قد ثاروا ضد السلطان العثماني واستولوا على بيروت وان ملوك فرنسا وأسبانيا وجمهورية فينيسيا في حرب مع الاتراك ، فقد وجه الشاه بعض أسئلة للسفراء عن هذه الامور ولكن احدا منهم لم يكن لديه اطلاع كامل على هذه الاحداث ·

وفي منزل امام قلي خان جلس الشاه ومرافقوه فوق (مهتابي خانه) قمرية وأخذوا في تناول الشراب وكان سفير الهند مدمنا تدخين « البايب » ويبدو أن رائحة دخانة كانت تضايق الشاه ، لهذا نراه ينهض فجأة من مكانه بدون عمامته ويذهب الى ناحية أخرى ، وأثناء سيره يأخذ عمامة أمام قلي خان من على رأسه ويتوسدها وينام في أحد الاركان ، ويأمر باعطاء عمامته لامام قلي خان · وبعد أن انتظر السفراء بعض الوقت ويئسوا من أن يستيقظ الشاه عادوا الى منازلهم ·

وفي الليلة التالية دعا الشاه السفراء للعشاء في قصر عالي قابو (الباب العالي) ولكنه لم يحضر وبعد فترة انصرف الضيوف ·

وفي يوم الجمعة ٢٠ شعبان من نفس العام (٢ أغسطس) وقبل أن يغادر اصفهان للنزهة في المناطق الجبلية القريبة ، استدعى السفراء مغرب ذلك اليوم للقائه في ميدان « نقش جهان » وسمح لسفراء أسبانيا وموسكو والبابا بالعودة لبلادهم ثم اصطحب دون جارسيا سفير اسبانيا الى ناحية مظلمة من الميدان ونزل من على حصانه وجلس على الارض وسمح للسفير بالجلوس أمامه واستدعى كذلك القس جان تاديه رئيس القسس الكرمليين واثنين من عظماء الاسبان الذين كانوا يرافقون السفير ليكونوا شهودا على محادثاته مع السفير · ولم يكن من الايرانيين سوى ساروتقي الوزير وقرجغاى خان القائد وحسين بك كبير الأمناء وبعض أشخاص من المقربين للشاه وطلب الشاه من القس جان تاديه أن يترجم محادثاته مع السفير،

ثم قال اذا كان لديه شيء يود قوله فليذكره · فقال السفير ليس لدى شيء سوى اننى ارجو ان يقوم جلالة الشــاه شخصيا بوضـــع كل المسيحيين المقيمين فى ايران مثل البرتغاليين والاسبان والايطاليين تحت رعايته وحمايته ويسمح لهم باقامة كنائس لهم كما هو الحال فى اصفهان · فقال الشـاه : ان هذا الطلب لا يحتاج الى رجاء لانه شخصيا يرعى المسيحيين كما انــه لايمارض اقامة الكنائس · والرجاء الثانى للسفير هو أن ينظر الشاه نظره صداقة الى جيرانه البرتغاليين فى هرمز والا يحمى او يؤيد اللصـــوص والقراصنة كالانجليز وأمثالهم الذين يعدون اعداء للبرتغال ·

ولما كان الشـاه لايريد من السفير أن يذم الانجليز فقد قطع كلامه قائلا : « اذا كانت علاقتى اليوم قد وهنت بالبرتغاليين فى هرمز فذلــك تقصيرهم لانهم يسيئون المسلمين ويأسرونهم ويسجنونهم دون ذنب أو سبب كما انهم يمنعونهم من التردد على ايران ويجبرونهم على الدخــول فى المسيحية ولا شك انه يجب عليهم أن يكفوا عن هذه الاعمال القبيحة كما أن عليهم الا يتدخلوا فى شــــئون الانجليز » ·

ثم عرض السفير موضوع ميناء جمبرون وجزيرة البحرين ، فاجابه الشــــاه اننا أخذنا جزيرة البحرين من امير هرمز ولم تكن متعلقة بالبرتغاليين، واذا كان للبرتغاليين قبل هذا عمل فى جزيرة البحرين مع أمير هرمز المسلم فسيكون لهم معنا ونحن مسلمون ايضا نفس العمل وبهذا لم يختلف الامر بالنسبة لهم ولا اظن ان فائدة شـاه ايران لمجاورته لاســـبانيا ستكون أقل من فائدته لمجاورته لامير هرمز · اما فيما يتعلق بميناء جمبرون فيجب أن نقول صراحة ان هذا الميناء يقع على الاراضى الايرانية ويخرج كلية عن نفوذ حكومتى البرتغال وهرمز واستيلائى على هـذا الميناء ليس فيــــه اعتــداء على حقـــوق أحـــد ·

على أية حال فان الشـــاه اخبر السفير صراحة انه لن يرد شيئا مما استولى عليه ، كما اشتكى من أن ملوك الفرنج غالبا ماوعدوه ولكنهم لم يوفوا بوعودهم ، وقال اننى الى الآن قد استوليت من الاتراك على قلاع يزيد عددها على عدد ايام السنة اى اكثر من ٣٦٥ قلعة · بينما ملوك اوربا المسيحيين لم يستطيعوا الاستيلاء على منزل او مخزن بل حتى على حظيرة

ماعز ، واذا استمروا معى على هذا المنوال فلا مفر أمامى من الاستيلاء على بيت المقدس ، وعمـل مايجب عمـله ٠

ثم سمح الشـاه للسفير بالعودة بكل احترام قائلا انه سيرسل معه سفيرا يحمل هدايا قيمة ، وسيرسل معه أيضا الرد على رسالة ملك اسبانيا، ثم أمروزيره أن يعد الردعلى رسائل فيليب الثالث ٠ ثم كلف أحد رجال بلاطه(١) بالذهاب الى أسبانيا كسفير مع دون جارسيا وسلمه هدايا تقدر قيمتها بنحو تسعة الاف تومان ٠ ولم يسافر هذا السفير مع دون جارسيا بل ظل فى اصفهان حتى وصل دون جارسيا الى جزيرة هرمز (١٣ ذى القعـــدة ١٠٢٨ هـ ـ ١٩ اكتوبر ١٦١٩ م) ، ثم بعث اليه برسالة يسأله عن حركة الرياح الموسمية حتى يلحق به فى الجزيرة فى الوقت المناسب ويسافرا معـا الى الهند ، ولكن يتضح من كتاب رحلة دون جارسيا والمراجع الاخرى أن هذا السفير لم يسافر أبدا الى أسـسبانيا ٠

---

(١) كتب دون جارسيا أن اسم هذا السفير كان « كايا سلطان » ويمكن أن نرجح أن اسمه ربما كان كيسـا سلطان ٠

مقدمات الاستيلاء على جزيرة هرمز

قطع علاقات الصداقة مع اسبانيا :

كما سبق أن ذكرنا فقد كان الطريق الوحيد لتصدير البضائع الايرانية الى الدول الاوربية هو الطريق عبر الدولة العثمانية أو أملاكها ، وذلك حتى عهد الشاه عباس الكبير ، ومع أن طريق الخليج البحرى قد فتح للتجارة ظاهريا منذ استقرار البرتغاليين فى جزيرة هرمز ٠

الا أنه لم تعد منه فائدة على التجارة الايرانيين لان المسئولين البرتغاليين احتكروا شراء البضائع الايرانية وتجارتها ٠

وكان الشاه عباس طيلة المدة التى حارب فيها الدولة العثمانية يسلك طريق الصداقة والسلم مع الحكومة الاسبانية وموظفيها البرتغاليين لعله يستطيع أن يوحدها معه فى حربه ضد العثمانيين، ويستفيد من القوات البحرية الاسبانية التى كانت بلى منافس فى ذلك الوقت للاطاحة باعدائه ٠ وكان يظهر موافقته على بيع الحرير وبقية الحاصلات الايرانية لهم ٠ ولكن البرتغاليين احتكروا تجارة الخليج لانفسهم ولم يسمحوا لاحد غيرهم بنقل البضائع الى الهند وأوربا وأساؤا الى التجار الايرانيين ورعايا ايران فى موانى الخليج ، لهذا فان الشاه عباس كان يبطن لهم الحقد وكان ينتهز الفرصة ليكف ايديهم عن السواحل الايرانية ويفتح طريق الخليج أمام تجارة ايران وبقية الدول ٠

لهذا فقد قام الشاه عباس بالاستيلاء على جزيرة البحرين التى كانت تخضع لامير هرمز ٠ وفى الواقع كانت فى حوزة البرتغاليين وذلك سنة ١٠١٠هـ ثم ظل يحرر سواحل جنوب ايران من سيطرة ونفوذ البرتغاليين ٠ وفى عام ١٠٢٢ هـ استولى على ميناء جمبرون الذى كان البرتغاليون قد استولوا عليه وبنوا فيه قلعة للمحافظة على جزيرة هرمز ٠

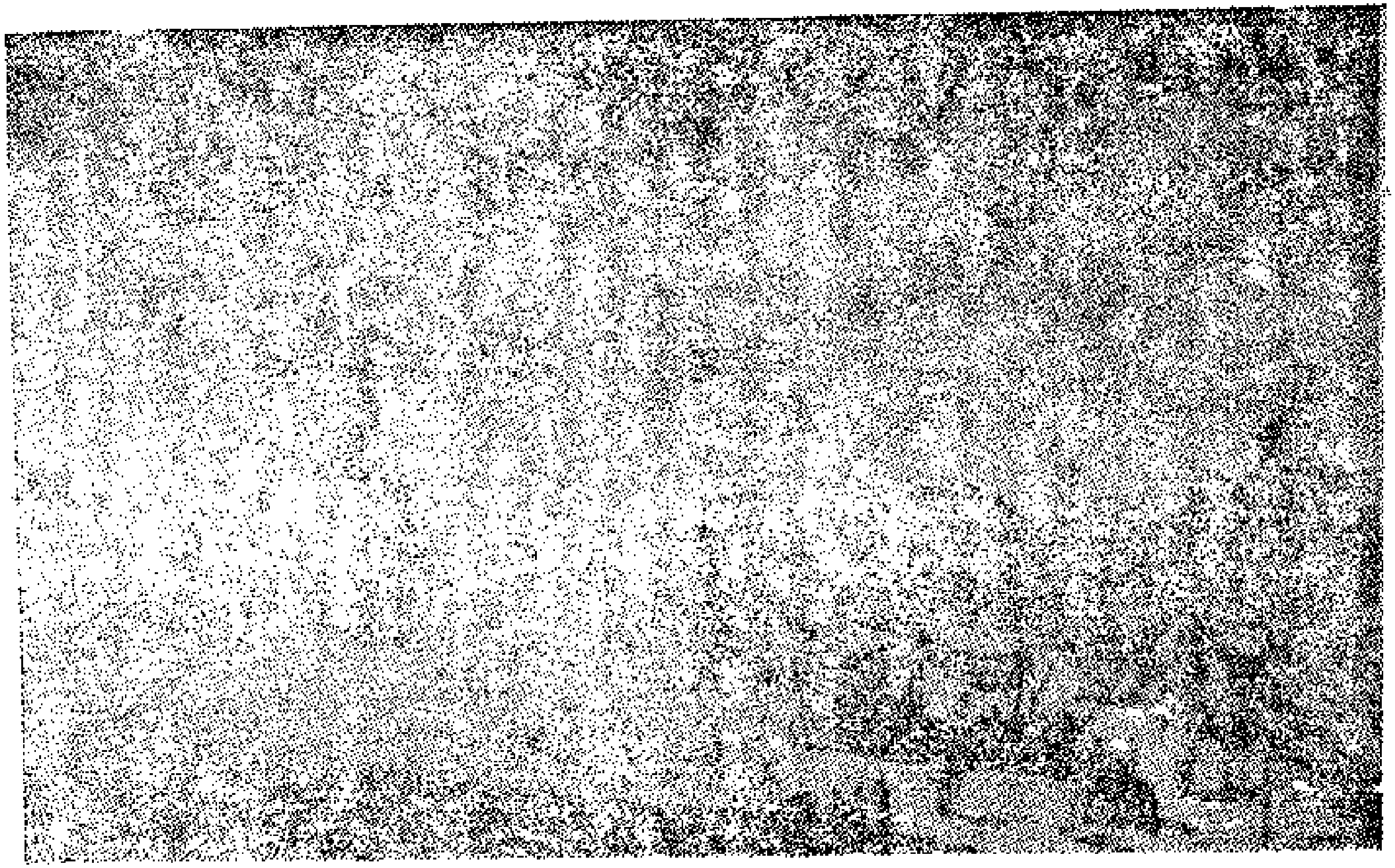
بعد ذلك عندما أسس التجار الانجليز شركة الهند الشرقية فى الهند وأرسلوا بعض المندوبين الى اصفهان للتجارة مع ايران وشراء الحرير فان الشاه عباس أبدى كثيرا من العطف والمساعدة لمندوبى هذه الشركة نكاية فى البرتغاليين ، بل أنه ـ كما سنذكر فى باب العلاقات الايرانية الانجليزية ـ عقد اتفاقا مع مندوب الشركة على أن يبيع كل انتاج ايران من الحرير فى

الجنوب لشركة الهند الشرقية الانجليزية فقط ، والا يرسل شيئا الى أوربا عن طريق العثمانيين .

كان عنف البرتغاليين وظلمهم فى سواحل وجزر الخليج قد ولدا حقدا شديدا ضدهم على طول الساحل الجنوبى لايران ، حتى ان الايرانيين كانوا لايمدون السفن التجارية البرتغالية بالمؤن فى الموانى الايرانية خاصة أهالى بعض الموانى مثل نخيلو وريك الذين قاسوا الكثير من ظلمهم ، وكانوا يكنون لهم عداوة خاصة واضحة . لهذا فان الشاه عباس رغم محبته لكل الاوربيين، كان يعد البرتغاليين أعداء ايران لهذا السبب . وهذا الامر يمكن ادراكه بوضوح مما كتبه الرحالة بيترو دلافاليه الذى يقول :

« ... كان الشاه عباس يمنح رعاياه المسيحيين قروضا لكى يعمروا املاكهم أو لامور أخرى ، وكان يشترط عليهم الدخول فى الاسلام اذا لم يؤدوا قروضهم فى مواعيدها ولكن عندما أرسلت جماعة الارمن بعض النقـــود البرتغالية للشـاه عباس سدادا لقروضهم أدرك للشـاه انهم أخذوا هـذه الاموال من البرتغاليين فامتنع عن تسلمها وقال اذا كان هؤلاء الارامنة يتركون مذهبهم من أجل المال ويدخلون فى مذهب الاوربيين الذين يختنون معهم فيه فلماذا لايدخلون الاسلام ؟ ليس من الصواب أن يصبح رعايا رعاياى مرتزقة للدول الاجنبية خاصة البرتغال التى تجاوز مستعمراتها ايران التى ننظر اليها بعين الشك والريبه ، لانهم فى هذه الحال سوف يتعاونون مع أعداء ايران ووجودهم على هذا النحو فى ايران يعد خطرا وضررا » .

وقد كان البرتغاليون مضطربين من وجود الانجليز فى المحيط الهندى والبحار الشرقية ، ولهذا كانوا يمنعون مرور سفن الدول المختلفة فى مياه الخليج لكى تبقى تجارة ايران والخليج فى أيديهم . ولهذا كان على أية سفينة تريد الدخول للخليج أن تحصل على تصريح من قائد أحدى القلاع البرتغالية فى هذه المنطقة ، وكانت شروط هذه التصاريح صعبة ولا يمكن تحملها . وكان البرتغاليون يسيئون جدا لموظفى شركة الهند الشرقية الانجليزية فى مناطق نفوذهم حتى أنهم كانوا لايتورعون عن قتلهم مثلما حدث سنة ١٠٢٧ هـ ، عندما كان ادوارد كونوك(١) مندوب شركة الهند الشرقيـــة الانجليزية متوجها من اصفهان الى هرمز لاستلام البضـــائع من السفن



میدان نقش‌جهان اصفهان

بامنظرهٔ عمارت عالی‌قاپو و مسجد شیخ‌لطف‌الله و سر در بازار قیصریه

از سفرنامهٔ «کرنلیوس دوبروین» هلندی

الانجليزية فسموه مع بعض مرافقية ولهذا غضب موظفو شركة الهند الشرقية من اعتداءاتهم وكانوا ينتهزون الفرصة حتى يكفوا أيديهم عن مياه الهند والخليج ٠

كان التنافس التجارى بين الانجليز والبرتغاليين يزداد يوما بعد يوم فى ايران ــ كما سبق ان ذكرنا ــ وكان الشاه عباس يتقرب الى مندوبى شركة الهند الشرقية لانه كان يعد البرتغاليين أعداء له ٠ ولكنه ظل يحتفظ بعلاقات الصداقة مع فيليب الثالث ويمتنع عن اظهار عداوته له طيلة المدة التى كان يرى فيها أن للبرتغاليين أقوى قوة فى بحار الشرق، كما كان يطمع فى معونته فى الحرب بين ايران والعثمانيين ٠

فى الثلاث سنوات ١٠٢١ ، ١٠٢٤ هـ (١٦١٢ — ١٦١٥ م) هزمت بعض السفن الانجليزية عددا من السفن البرتغالية على مقربة من ميناء سورت وقد أدى هذا الحادث الى تقليل أهمية وهيبة اسبانيا والبرتغال فى الشرق واظهر ضعفهما ، وبعد ٣ سنوات عقد الشاه عباس صلحا مع العثمانيين فلم يعد بحاجة الى مساعدات اسبانيا ، كما اتضح له ضعف قواتها البحرية فى الشرق ، ولهذا اقدم على قطع صداقته بملك اسبانيا واخراج البرتغاليين من سواحل وجزر ايران ، ولهذا لم يرد على رسائل فيليب الثالث ردودا مناسبة واعاد سفيره يائسا ٠

بعد عودة دون جارسيا توترت العلاقات بين الشاه عباس وبين الحكومة الاسبانية أوائل شوال ١٠٢٨ هـ وصلت ثلاث رسائل الى جان تاديه القس الكرملى المقيم فى أصفهان اثنتان منهما من أسبانيا وواحدة من دون جارسيا ٠ وكانت الرسالتا ن الاسبانيان قد وصلتا الى الحاكم البرتغالى لهرمز وهو دون لويس دى سوصا فارسلهما بدوره مع أحد الجنود الى اصفهان ظنا منه أن دون جارسيا كان مازال هناك ٠ فلما وصلت هاتان الرسالتان الى السفير اثناء الطريق بين اصفهان وشيراز ارفقهما مع خطاب منه الى القس جان تاديه رجاه فيه أن يعرضها على الشاه ٠ وقد عرض القس هاتين الرسالتين وكانت احداهما من فيليب الثالث والثانية من روبرت شيرلى سفير ايران الى سبانيا ، وكان هذا يوم الثالث من شوال فى ميدان

---

(١) Edward Conock

« نقش جهان » فى اصفهان . وطلب من الشـاه أن يأذن له بترجمتهما ، وكان ملك اسبانيا قد ذكر فى رسالته أنه مستعد للدخول فى حرب مع السلطان العثمانى فى البحر الاحمر واغلاق طريق التجارة فى وجه الاتراك وأنه أعـد خمس سفن أسبانية ضخمة لهذا الغرض وانه أرسل « رديميتو دى لاكروز* » القس الكرملى الذى كان قد ذهب مع روبرت شيرلى الى أسبانيا مع هذه السفن الى ايران حتى يعقد مع الشاه عباس الاتفاقيات اللازمة فى هذا الشأن ·

أما فيما يتعلق بالحرير فقد ذكر أنه سيسمح للتجـار الايرانيين من مسلمين ومسيحيين الذين يجلبون حريرهم الى جزيرة هرمز ولا يتمكنون من بيعه هناك أن يحملون الى جوا مركز التجارة البرتغالية فى الهند ، بل انهم أن أرادوا فيمكنهم نقله الى ليشبونه عاصمة البرتغال وبدون دفـــع الرسوم الجمركية أو اية رسوم أخرى خلافا لما كانت عليه العـادة من قبل ولكنهم سيمنعون اذا أرادوا نقله الى دولة أخرى وسيدفعون فى هرمز وجوا وليشبونه نصف الضرائب عن اقامتهم لمدة أربع سنوات ، أما اذا زادت اقامتهم عن هذه المدة فستحصل منهم الضرائب كاملة · واذا لم يبيعوا حريرهم فى جوا ونقلوه الى البرتغال فانهم سيعفون من دفع الرســـــوم والضرائب ، ولكن عليهم أن يشتروا بثلاثة أرباع الحرير الذى يبيعونه فى أسبانيا بضائع اسبانية ويشتروا بالربع الآخر بضائع من جـوا أو هرمز ، كما سيسمح لهم فى حالة عدم رغبتهم فى شراء بضائع من الاراضى الاسبانية باستبدال ثمن حريرهم من العملة الاسبانية الى العملة الايرانية أو أية عملة أخرى فى ميناء جوا الهندى أو فى جزيرة هرمز وعليهم أن يدفعوا نفس الرسوم الجمركية التى يدفعها رعايا أسبانيا والبرتغال على البضائع التى يشترونها فى أسبانيا من موانى ليشبونه وجوا وجزيرة هرمز · كما يمكنهم أختيار مندوبين لهم فى لشبونه من الايرانيين أو الارمن البرتغاليين لكى يكونوا حكما لهم فى الخلافات التجارية والمعاملات التى تحدث مع الرعايا الاسبان ولكنه غير مسموح لهم بتعيين مندوبين من جنسيات أخرى · وستختار الحكومة الاسبانية ثلاثة من المسئولين الرسميين ليفصلوا فى خلافاتهم مع التجار البرتغاليين والاسبان أو سائر الناس بالعدل والانصاف ولكن اذا لجـأ التجار الايرانيون الى الدعوة للدين الاسلامى فى الاراضى الاسبانية أو مستعمراتها أو أهانوا المقدسات المسيحية فانهم سيلقون جزاءهم » ·

Pere Redeweto de La Cruz

وفي مقابل هذا طلب ملك اسبانيا من الشاه عباس أن يعيد ميناء جمبرون مرة اخرى الى ممثلى الملكية البرتغالية فى هرمز وأن يهدم القلاع التى انشأها هناك ، ويعيد جزر البحرين الى أمير هرمز .

أما فى الرسالة الخاصة التى ارسلها للسفير دون جارسيا الى القس جان تاديه فقد ذكر انه اذا لم يرضخ الشاه عباس باعادة ميناء جمبرون والبحرين فانه يجب عليه أن يصر على هذا المطلب ، ولكن عليه (جان تاديه) أن يبذل مساعيه لكى يغلق الشاه موانىء ايران فى وجه الدول الاوربية خاصة رعايا انجلترا القراصنة وان يعطى حرية التجارة للبرتغاليين كما كان فى الماضى .

وكان روبرت شيرلى قد كتب فى رسالته للشاه عباس يقول أن فيليب الثالث ملك اسبانيا مستعد بسفنه الحربية لاغلاق طريق البحر الاحمر فى وجه السفن العثمانية ويعلن الحرب ضد العثمانيين فى أقرب وقت بمساعدة البابا وبقية ملوك أوربا . كما أكد على ضرورة امتناع الشاه عن عقد اية اتفاقيات مع مندوبى شركة الهند الشرقية والرعايا الانجليز وذلك حفاظا على الصداقة الاسبانية الايرانية ، كما كان قد وعده عند سفره الى أوربا واحين وصول تأكيدات من الشاه فى هذا الشأن لأن السلطان العثمانى وملك انجلترا قد اتحدا معا ولن يتحاربا أبدا .

وقد كتب روبرت شيرلى « ... لما كانت صداقة أسبانيا تفوق الحد فيجب أن يتظاهر الشاه بارضاء ملك أسبانيا ، وأنا أرى هذا لصالح الشاه ويجب عليه أن يخرج المجموعة الانجليزية من عاصمته ، واذا كنت من أصل انجليزى الا أننى أقول أن صالح شاه ايران ومنفعته تأتى من ملك أسبانيا، ذلك لانه يذهب كل عام لقتال العثمانيين وهذا القتال مفيد جدا للشاه ولصالحه فى حين توطدت الصداقة بين الانجليز والسلطان العثمانى ، ولم تنشب الحرب بينهم ابدا ولن يسدوا طريق البحر الاحمر (١) » .

غضب الشاه عباس حين اطلع على مضمون رسالة فيليب الثالث ، وكما سبق أن قال لسفيره قال للقس جان تاديه أنه لن يرد شبرا واحدا من

---

(١) من مجموعة مراسلات الشاه عباس فى المكتبة الوطنية بنابولى .

الارض التى استعادها وانه اذا أراد فانه سيأخذ جزيرة هرمز أيضا فى هجــوم واحـــد .

اما فيما يتعلق بتجارة الحرير فقد ضحك الشــاه للشروط والضوابط التى ذكرها ملك أسبانيا فى رسالته وقال ان موضوع الحرير موضوع تجارى وسوف نبيعه لمن يدفع ثمنا أكثر ».

وقد ازداد غضب الشاه عباس لما جاء فى رسالتى فيليب الثالث ودون جارسيا من أن الشاه عباس اذا لم يتفق مع البرتغاليين فى هرمز — فان علاقات الصداقة ستتضعف ، ولن تصبح حكومة اسبانيا مسئولة اذا ما أقدم البرتغاليون على عمل يتعارض مع الصداقة بين البلدين وكما كانت عـادة الشاه فقد أخذ يسير بين الحاضرين ثم يجلس فى مكانه عدة مرات ويكرر القسم بالله والدين الاسلامى أن يطهر بالسيف جزيرة هرمز من وجود البرتغاليين . ويبلغ من شدة غضبه ان مزق رسالتى ملك أسبانيا وسفيره دون جارسيا . وحين اخبره القس جان تاديه أن لديه علبه مملوءة برسائل ملك اسبانيا لم يعرضها عليه ، قال له ساخرا : « لا اهمية لها ولاتتعب نفسـك ومزقها كلهـا لأنه لايوجد فى هذه العلبة غير الكذب (١) » .

ولكى يظهر الشــاه عباس عزمه على الاستيلاء على جزيرة هرمز ، فقداستدعىأحدرجاله الذين ولدوا فىتلك الجزيرة ولديهاطلاع تام علىشئونها لكى يحضر فى نفس هذا المجلس وطلب منه بيانات عن تعداد سكان جزيرة هرمز ومذهبأميرالجزيرة ورعاياه وعدد الشيعة والسنة والرعايا البرتغاليين .

من ذلك الوقت اظهر الشاه عباس حقده الدفين تجاه البرتغاليين فى هرمز ، حتى أنه فى يوم من الايام ــ وأمام مندوب شركة الهند الشرقية وفى حضور عدة قسس برتغاليين ورئيس القسس الكرمليين ــ أشار الى أحد

---

(١) ذكر بيترو دلافاليه فى كتاب رحلته أن شروط ملك اسبانيا فيما يتعلق بالحرير تبعث على الضحك حقا لأن شـاه ايران كان يريد فتـح طريق التجارة الايرانية أمام كل دول أوربا وانه كان يريد بيـع الحرير الايرانى فى ايران نفسها حتى يحصل على أموال تلك الدول فيزيد من ثروة بلاده أما من الناحية السياسية فكان قد تصالح مع السلطان العثمانى ولم يعد هناك ما يؤرقه من ناحية حدوده الغربية واتحاده مع ملك اسبانيا لم يعـد له أهميـة .

المدافع فى ركن من أركان ميدان نقش جهان فى أصفهان وقال « من المعروف أن الجيش الايرانى استولى على هذا المدفع من البرتغاليين فى ميناء جمبرون ، ولكن هذا ليس صحيحا اذ ان جنودى حصلوا عليه من احــدى السفن البرتغالية التى تادها القدر الى قرب الساحل ، ثم أخذ يقص كيف تمكن الشجعان من الجنود الايرانيين من الاستيلاء على السفينة اذ علقوا سيوفهم فى رقابهم ونزلوا فى البحر وسبحوا حتى وصلوا للسفينة وأخذوها • وفى نهاية حديثة قال باحتقار « اننى أعرف هؤلاء البرتغاليين جيدا وأعرف كيف اتعامل معهم » • وبهذا الحديث أفهم القسس البرتغاليين الذين كانوا يكتبون لحكام هرمز انه يذرى الحرب مع البرتغاليين • وعندما تحدث مندوب الشركة الانجليزية عن المدافع المدمرة للقلاع التى كانت قد ابتكرت حديثا آنذاك فى أوربا • قال الشــاه « اننى عادة لا أصحب معى مدفعية فى حروبى لان غالبية جيشى من الفرسان واذا أرادوا أصطحاب مثل هذه المدافع الثقيلة فانها ستعوق سرعة حركتهم فى حين ان السبب الرئيسى لانتصارى على العثمانيين هو سرعة حركة الجيش القزلباشى ، وفى رأيى انه من الافضل للاستيلاء على قلاع الاعداء صب هذه المدافع قرب مواقع الحرب • وكان الشــــــاه عباس يرمى من وراء هذا الى اخافة البرتغاليين لانهم كانوا يعتقدون أن الاستيلاء على قلعة هرمز لا يمكن الا باستعمال مدفعية ثقيلة • ولما لم يكن لدى الشــاه عباس اية سفن حربية كما ان السفن الانجليزية لاتستطيع الاقتراب من الساحل بسبب عدم كفاءة الميناء ، فان نقل المدافع من ايران الى جزيرة هرمز يصبح أمرا صعبا ولكن الشــاه عباس اخبرهم انه يمكن نقل معدات صب المدافع الى الجزيرة وصنعها هناك (١)•

---

(١) رحلة بيترو دلافاليه : جـ ٥ ص ١٢ ــ ١٤ •

مقدمات الحرب الايرانية ضـد البرتغاليين فى جزيرة هرمز

لقد ارعبت تهديدات الشـاه عباس وعداته الواضح للبرتغاليين فى جزيرة هرمز ، ولما كان قد أشيع أن الشـاه سيذهب آنذاك الى شيراز للاعداد لهذه الحرب ، فقد اخذوا يعدون وسائل الدفاع واخذوا فى اشـاعة أخبار كاذبة لتخويف الشاه عباس ، من ذلك انهم فى غرة محرم ١٠٢٩ هـ اشاعوا فى أصفهان ان الكونت رودوندو(١) نائب الملك فى الهند قد أبحر من جوا على رأس قوة بحرية ضخمة متوجها الى هرمز لكى يحـارب السفن الانجليزية فى مياه ايران ، واذا اضطر فانه سيستولى على سواحل ايران أيضا • ولكن هذا الخبر لم يكن له أساس من الصحة ولكن البرتغاليين فى هرمز أشاعوه لتخويف شـاه ايران والسفن الانجليزية التى كانت فى ميناء جاسك الايرانى • وبدلا من أن يستفيدوا من هذه الاشاعة فانهم اضيروا لان هذا الخبر المكذوب لم يصل الى السفن الانجليزية التى غادرت ميناء جاسك متوجهة الى الهند قبل وصول هذه الاشاعة لها • وبدلا من أن تخيف الشاه عباس زادته كراهية وحقدا ، فأمر امام قلى خان أمير أمراء فارس أن يرسل على الفور خمسة عشر الف جندى الى ساحل الخليج وأن يستولى على كل السفن والقوارب البرتغالية وينتظر اوامره وقد احدث تجمع الجنود الايرانيين على الساحل خوفا واضطرابا فى جزيرة هرمز ، ولكن الايرانيين لم يهجموا على الجزيرة بل هجموا على مكان قرب رأس الخيمة على ساحل عمان كان تحت نفوذ أمير هرمز ويعد من مراكز التجارة البرتغالية ، وذلك بمساعدة جماعة من العرب واخرجوا البرتغاليين من هناك ، وفى نفس الوقت قامت قوة من الجيش الايرانى بمحاصرة القلعة البرتغالية فى جزيرة قشم مما ادى الى تهديد هرمز بالعطش لان ميـاه الشرب فى جزيرة هرمز تنقل اليها من جزيرة قشـــم •

وفى هذا الوقت ايضا وصل الى اصفهان خبر بان البرتغاليين فى هرمز اقاموا سورا حول المدينة للمحافظة عليها وانهم يسدون الحوارى التى تقع فى أطراف المدينة حتى يمكنهم الدفاع عنها اذا هاجمهم جيش ايران ، وكان هذا الخبر يدل على مدى خوف البرتغاليين واضطرابهم مما أدى الى اصرار الشـاه عباس على احتلال تلك الجزيرة •

---

(١) Comte Rodondo

قبل أن يغادر دون جارسيا سفير اسبانيا جزيرة هرمز متوجها الى الهند كتب رسالة ثانية للشاه عباس يشكو من سلوك الانجليز ويعتب لعناية الشاه بهم ، وقد وصلت هذه الرسالة فى ربيع الاول ١٠٢٩ هـ الى الشاه عن طريق القس جان تاديه • وقد رد الشاه على هذا صراحة قائلا للقس ، أن الانجليز مؤدبون احسنت تربيتهم ، لم يسلكوا أبدا ضد رغبتي وقد قدموا هذه البلاد من قبل ملكهم وهم ضيوفى فكيف يمكن أن اطردهم من بلادى ان ايران مفتوحة لكل شخص ويسافر اليها اناس من كل دولة ، ومع أننى فى حرب مع الاتراك الا أننى لا أغلق طريق ايران فى وجه التجار العثمانيين • والانجليز الذين يأتون الى ايران يمرون فى الاراضى والبحار التى تحت سيطرة رجال ملك أسبانيا • ولو كان رجلا فليمنع مجيئهم • لقد ظل ملك لسبانيا مدة طويلة يعدنى انه سيدخل الحرب ضد السلطان العثمانى ولكنه لم يف بهذا الوعد أبدا ولن يفى به ، وعلى هذا فاى منة له على • واذا اتصالت اليوم مع الحكومة العثمانية فالتقصير هنا يرجع الى ملوك اوربا لانه اذا هب ملوككم لحرب الاتراك فاننى أعدكم أن أنقض معاهدة الصلح وأقود الجيش مرة أخرى الى الاراضى العثمانية • اما فيما يتعلق بالجزء الثانى من رسالة دون جارسيا التى ذكر فيها انه ينتظر بكل قلق وصول سفير الشاه عباس لكى يسافرا معا الى اسبانيا ، فقال الشاه أن سفيره قد غادر اصفهان من مدة وسيصل الى هرمز عما قريب ، ثم أخذ يد القس جان تاديه فى يده بشدة وقال له : « عدنى أن تكتب ماقلته لك الى بابا روما وملوك الفرنج (١)» •

فى يوم ١٣ رجب ١٠٢٩ هـ (١٦ يونيو ١٦٢٠ م) وصلت الى ميناء هرمز أربع سفن من السفن الاسبانية الخمس التى كان فيليب الثالث قد ذكرها فى رسالته للشاه عباس لتغلق طريق التجارة العثمانية فى البحر الاحمر بينما غرقت الخامسة فى الطريق ، وكما أشرنا من قبل كان فيليب الثالث قد ابقى روبرت شيرلى سفير الشاه عباس فى أسبانيا بينما أعاد القس ريدميتودلاكروز الذى كان قد رافقه الى أسبانيا مع السفن التى وصلت الى هرمز وذلك كى يعقد مع الشاه عباس اتفاقا بشأن الحرب ضد الدولة العثمانية واحتكار تجارة الحرير الايرانى لرعايا البرتغال • وكان لدى قائد

---

(١) مجموعة مراسلات الشاه عباس فى المكتبة الوطنية بنابولى ، ورحلة بيترودلا فاليه ، جـ ٤ ص ٤١٩ ــ ٤٢٠ •

الاسطول واسمه روى فريبيرا دى اندرادا تعليمات بأن يوصل القس الى ايران ثم ينتظر نتيجة اتصالاته • فاذا وافق الشاه عباس على عقد اتفاقية سياسية وتجارية تتفق والمصالح الاسبانية ذهب القائد الاسبانى لتنفيذ مهمته فى البحر الاحمر ، واذا امتنع الشاه عباس فعليه أن يستعيد ميناء جمبرون وجزر البحرين وقشم بالقسوة وبمساعدة القوات البحرية البرتغالية فى الهند وهرمز ويقضى على أهل ميناء نخيلو الذين يكنون الحقد للبرتغاليين والذين اضطروهم لترك الجزيرة العربية والالتجاء الى الاراضى الايرانية • كما كان قد اصدر اليه الاوامر ان يبنى قلعة فى جزيرة قشم يضع فيها مجموعة من الجنود البرتغاليين بحيث لايتمكن الايرانيون من الاستيلاء على الجزيرة بعد هذا بسهولة ويحرموا جزيرة من ميساه الشرب •

استطاع روى فريرا دى اندرادا أن يستولى على ثلاث سفن انجليزية مسلحة تسليحا كاملا ومحملة بالبضائع فى خليج عدن • ولما كانت احدى سفنهفقد غرقت فى الطريق فقد وصل الى ميناء هرمز مع سبع سفن مسلحة ولكن القس ردمتودلاكروز كان قد توفى على سواحل غينيا قبل وصوله الى ايران ، وكان المسئولون فى شركة الهند الشرقية الانجليزية قد اذاعوا خبر موته فى اصفهان قبل وصول السفن الاسبانية الى ميناء هرمز ولا يعرف كيف علموا بخبر وفاته •

بعد وصول السفن الاسبانية الى هرمز كتب حاكم الجزيرة وبعض موظفيها البرتغاليين رسائل الى القس جان تاديه رئيس القسس الكرمليين فى أصفهان وارسلوها الى اصفهان مع مبعوث خاص حاملا للرسائل التى كان من المفروض ان يسلمها القس المتوفى الى الشاه عباس ودون جارسيا سفير اسبانيا ورجوه أن يبدى رأيه فى الاجراء الذى يجب عليهم أن يسلكوه أما حربيا وأما سلما لأن لديه اطلاعا كافيا عن الاوضاع فى ايران • ولما كان البرتغاليون آنذاك قد حرضوا بعض الاعراب وأثاروهم ضد ايران كما أخذوا فى القتل والنهب فى بعض موانى جنوب ايران ، لهذا لم يكن لديهم أمل فى استقرار السلام ، كما أن روى فريبرا قائد الاسطول الاسبانى الذى

---

(٢) Rwy Friera d' andrada

كان يعرف بتهوره واقدامه كان يفضل الحرب على السلام ، ولكن حاكم جزيرةهرمز وبعض المسئولين بها كانوا يرون أن الحرب تضر التجارة ولهذا يجب الحفاظ على السلم وتجنب الحرب ٠

قبل وصول خبر مجيء السفن الاسبانية والرسائل المذكورة الى القس جان تاديه كان للبلاط الايراني قد استطاع الوقوف على مقدار القوات الاسبانية في هرمز وعدد الجنود الذين وصلوا مع السفن عن طريق حاكم جمبرون وارسل الوزراء الايرانيون هذه الاخبار مباشرة الى الشاه عباس الذي كان في فرح اباد ٠

وكتب القس جان تاديه في رده على الرسائل التي وصلته من هرمز انه يعتقد ـ كما ذكر هذا مرارا ـ أن الشاه عباس لن يرد ماسبق أن استولى عليه من البرتغاليين ، كما انه لايوافق على احتكار التجارة ، بل انه طلب منهم أن يعفوه من الاجابة على مثل هذه الموضوعات وأن ينفذوا أوامر ملك اسبانيا على النحو الذي يرونه ضروريا ، ولكن بعد فترة عاد المسئولون البرتغاليون التابعون لاسبانيا في هرمز بالكتابة اليه ورجوه أن يذهب من اصفهان الى مازندران ويتفاوض مع الشاه عباس في شأن العلاقات بين الدولتين ، فاضطر القس الى مغادرة اصفهان متوجها الى مازندران ، لملاقاة الشاه ، ولكنه علم ـ أثناء الطريق ـ أن الشاه ذهب الى خراسان ، فعاد الى اصفهان ٠

معركة بين السفن الانجليزية والبرتغالية في جاسك :

في الثاني من صفر ١٠٣٠ هـ (٢٧ سبتمبر ١٦٢٠ م) وصلت أربع سفن انجليزية وسفينتان برتغاليتان ـ كانتا قد وقعتا في أسر الانجليز ـ الى ميناء جاسك ، ولكن روى فريرا قائد الاسطول الاسباني البرتغالي كان قد علم بابحارها فتوجه على رأس أربع سفن مسلحة من هرمز الى جاسك والقى مراسيه هناك ، فلما وصلت السفن الانجليزية الى ميناء جاسك بدأت في القتال مع السفن الاسبانية واستمرت المعركة بضعة أيام انتهت بهزيمة السفن الاسبانية ، وقد بدأ الانجليز بانزال ماكانت تحمله احدى السفن البرتغالية الاسيرة من بضائع ميناء جاسك ثم أضرموا فيها النيران ثم أخذوا في اطلاق المدافع على السفن البرتغالية حتى بلغ مجموع ما أطلقوه

عليها ثمانية الاف طلقة ، كما ساعدتهم الرياح التى أبعدت السفن البرتغالية عن الساحل مما سهل عليهم الاقتراب منه فى اليوم الاول للمعركة ويفرغوا مامعهم من بضائع على الشاطىء ومنها خمسين صرة من المال ابعدوها عن خطر العدو والقتال • ومع ما أظهره روى فريرا من شجاعة فى الحرب وتمكنه من تحرير أحدى السفن البرتغالية التى كانت فى اسر الانجليز الا انه لم يتمكن من كسب المعركة واضطر للهرب الى هرمز بعد أن تحمل خسائر فادحة • وحينما وجدت السفن الانجليزية الميدان خاليا من الاعداء حملت باطمئنان ما كانت قد اشترته من حرير كثير على السفن ثم توجهت الى الهند •

هجوم البرتغاليين على جزيرة قشسم :

حينما هزم فريرا من الاسطول الانجليزى صمم على احتلال جزيرة قشسم حتى ينقذ جزيرة هرمز من قلة الماء ، ولهذا فقد احتل فى رجب ١٠٣٠ هـ ــ جزءا من هذه الجزيرة القريب من هرمز وأقام فيه قلعة ضعيفة غير محكمة، وعندما علم الشاه عباس بهذا الامر أرسل أحد القسس من جماعة سان اغوسطين البرتغالية المقيمين فى أصفهان اسمه القس نيكولاس بجريه كسفير الى هرمز (وذلك فى ١١ شعبان ١٠٣٠ هـ) وابلغ حاكم تلك الجزيرة انه اذا كان بين البرتغاليين والانجليز حساب فليسووه فى عرض البحر ، لان الاعتداء على حدود ايران يتنافى مع الصداقة بينها وبين الدولتين • واذا كان لديهم عتاب مع ايران فليس مستحبا أن يدخلوا فى حرب دون مقدمات لانهم لو اشتكوا للشاه عباس فانه ــ كما يعلمون ــ لن يتوان عن ارضائهم ومع انهم قد بدأوا هذه الحرب براحة بال ، لكن عليهم ان يعلموا أنه قادر على استرداد جزيرة هرمز ودفعهم لندم على عملهم •

كان القسس البرتغاليون من جماعة سان اغوسطين المقيمين فى اصفهان يرغبون ــ من أعماق قلوبهم ــ أن تقوم الحرب بين ايران وأسبانيا ، ولهذا فقد اوصوا القس نيكولاس كي يحرض المسئولين فى هرمز على الحرب غافلين أن هذا الامر سيؤدى الى ضررهم • وفى نفس الوقت قضى البرتغاليين على « طالب بك » أحد رجال ايران وهو فى الطريق بينما كان موفدا كسفير الى ملك الدكن بالهند ، معتقدين أن سفارته ستؤدى الى الاضرار بمصالحهم التجارية والسياسية ، كما أخذ روى مزيرا فى قتل الايرانيين والاغارة على المدن والقرى الساحلية واحراقها أو نهبها كما أسر التجار الايرانيين الذين

كانوا يقومون بالتجارة فى الخليج واحتفظ بهم كرهائن وكان يعتقد أنه سيرهب الشاه عباس بمثل هذه الاعمال •

اتحاد ايران وانجلترا ضد الاسبان والبرتغاليين فى جزيرة هرمز

فى أواخر سنة ١٠٢٩ هـ اقترح الشاه عباس على شركة الهند الشرقية الانجليزية أن تتحد معه للقضاء على القوات الاسبانية والبرتغالية فى الخليج ، واستمرت مفاوضاته مع مندوبى الشركة مايقرب من عام •

ومع أن المسئولين فى شركة الهند الشرقية كان قد أصابهم ضرر بالغ مع البرتغاليين فى التجارة الا أنهم كانوا يرون صعوبة قبول اقتراح الشاه عباس لأن الحكومة الانجليزية فى ذلك الوقت كانت قد اقامت علاقات ودية مع ملك اسبانيا من ناحية ، كما أن هجوم السفن التجارية للشركة على القلاع والاستحكامات العسكرية البرتغالية لم يكن امرا سهلا من الناحية العسكرية • ولكنهم فى النهاية لم يجدوا مفرا من قبول اقتراح الشاه عباس، لأن امام قلى خان أمير أمراء فارس كان قد أخطر مندوبى الشركة أنهم ان لم يساعدوا شاه ايران فى حربه ضد البرتغاليين فانهم سيفقدون كل مالهم من حرير فى ايران ، كما ستنتهى كل الامتيازت التى كانوا قد حصلوا عليها، أما اذا اتحدوا مع ايران فانها ستدفع لهم خسائرهم فى الحرب ، كما ستهيء لهم كل ماسيحتاجونه من اسلحة ومؤونة وغيرها اثناء الحرب •

فى أول محرم ١٠٣١ هـ (١٦ نوفمبر ١٦٢١ م) عقد مديرو شركة الهند الشرقية اجتماعا برياسة توماس روستيل(١) فى سولى(٢) على مقربة من ميناء سورت على ساحل الهند وقرروا أن تتوجه خمس سفن وأربعة زوارق كبيرة بدون شراع الى الخليج للتصدى للسفن البرتغالية واذا التقت بسفن روى فريرا الحربية فعليها أن تدخل الحرب ضدها •

فى نفس الوقت أرسل الشاه عباس أمرا الى امام قلى خان أمير أمراء فارس لكى يحارب البرتغاليين ، ولكى يجد الذريعة لهذه الحرب ، فقد أوعز الى قنبر بك خان لار أن يدعى ملكية جزيرة هرمز وأن يعد الجزيرة تابعة لخراج لاركما كانت قبل حملة البوكيرك عليها ورد الحاكم البرتغالى لجزيرة هرمز ردا شديدا على هذا الادعاء وكان هذا ذريعة للحرب •

---

(١) Thomas Rostell (٢) Soualy

توجه أمام قلى خان بجيش كبير من شيراز الى لار وقام في البداية بارسال أحد قواده الشجعان واسمه شاهقلى بك وثلاثة آلاف من الجنود الايرانيين والعرب للاستيلاء على جزيرة قشم ، كما منع وصول وخروج السفن والقوارب من هرمز الى السواحل الايرانية والعكس ، ثم ذهب مع قائده امام قلى بك من لار الى جمبرون وحين بلغه ان السفن الانجليزية وصلت من الهند الى ميناء جاسك ارسل مبعوثا الى ادوارد مونوكس(٣)مندوب انجلترا المقيم في ايران والذى كان آنذاك موجودا في ميناب وأخبره أنه سيذهب اليه لعقد اتفاقية اتحاد بينهما ·

في يوم ١١ صفر ١٠٣١ هـ (٢٦ ديسمبر ١٦٢١ م) اصدر ادوارد مونوكس أمرا للسفن الانجليزية بأن تتوجه من ميناء جاسك الى ميناء كوهستك الذى يقع جنوب ميناب · وفي اليوم التالى ذهب بنفسه مع جماعة من مندوبي انجلترا الى كوهستك لكي يتحدث مع قواد السفن عن المساعدات التي ستقدمها سفن الشركة للجيش الايرانى ·

ولم يكن قواد سفن شركة الهند الشرقية يميلون اساسا للحرب ، ولكن مندوب الشركة المقيم في ايران أرضاهم وبعد المفاوضات التي أجريت بينهم في السفينة جوناس تمت الموافقة على مايلى :

١ ــ اذا انتصرت الحكومة الايرانية على البرتغاليين في هرمز بمساعدة السفن الانجليزية فان غنائم الحرب يجب أن تقسم بالتساوى بين الطرفين ·

٢ ــ يجب أن تسلم قلعة هرمز بكل مدافعها وذخائرها الحربية الى الى الانجليز واذا شاءت الحكومة الايرانية فيمكنها اقامة قلعة أخرى على نفقتهـا ·

٣ ــ يجب ان تقسم ايرادات (جمرك الجزيرة) بعد هذا بالتساوى بين الحكومة الايرانية وشركة الهند الشرقية الانجليزية · كما تعفى البضائع الانجليزية بعد ذلك من الرسوم الجمركية وكل الرسوم الاخرى ·

---

(٣) Edword monox

(٤) اسماء السفن وقوادها هم : السفينة لندن والسفينة بلا شراع Shillingتحت قيادة الكابتن Blithe والسفن Iion, Dolphin, Whale, Jouas والسفن بلا شراع Richard, Robert, Rose تحت قيادة الكابتن Weddel

٤ — بعد الحرب يسلم الاسرى المسيحيون لانجلترا والمسلمون لايران ٠

٥ ـ تتحمل الحكومة الايرانية نصف نفقات السفن والمؤن وأجور العاملين عليها وخسائر الحرب ، كما أن عليها أن تعد البارود والمواد الحربية اللازمة للسفن ٠

وقد وصل أمام قلى خان يوم ٢٤ صفر ١٠٣١ هـ (٨ يناير ١٦٢٢ م) الى ميناء ميناب ومعه قائده امام قلى بك وبدأ على الفور فى المحادثات مع مندوب الشركة لعقد المعاهدة الحربية ٠ وقد ووفق على المادة الاولى دون تغيير ٠ اما فيما يتعلق بالمادة الثانية فاتفق على ان يستولى الطرفان على قلعة جزيرة هرمز الى أن يتلقى أمام قلى خان تعليمات من الشاه عباس ٠ أما المادة الثالثة فقد أتفقا على أن يعفى من الجمارك كل ما يصل باسم الشاه عباس وخان فارس ٠ أما البضائع التى تصل للتجار فعلى الشركة أن تدفع الرسوم الجمركية لايران نظرا لان الشركة تحقق من وراثها أرباحا طائلة ٠

كما قبل أمام قلى خان المادة الرابعة بشرط ان يتعهد الحليف الانجليزى بتسليم روى فريرا قائد السفن البرتغالية وسيمون دى ميلو (١) حاكم جزيرة هرمز اذا طلبت الحكومة الايرانية هذا ، كما اتفق الطرفان على الا يجبرا أحدا من الاسرى أو المسجونين على تغيير دينه أو مذهبه ، وكذلك اتفقا على تحمل نفقات اعداد البارود والمواد الحربية الاخرى بالتساوى بينهما ٠

---

(١) Simon de melo

الاستيلاء على القلعة البرتغالية في قشم

بعد عقد المساعدة توجه أمام قلي خان الى ميناء جمبرون واقلعت السفن الانجليزية في السادس من ربيع الاول (١٩ يناير) وعليها « قائده» امام قلي بك متوجهة الى هرمز وصلت في التاسع من نفس الشهر الى الجزيرة •

كان الاسطول البرتغالي في جزيرة هرمز يتكون من خمس سفن حربية وسفينتين صغرتين وكثير من الزوارق الشراعية الصغيرة والكبيرة • ومن بين هذه السفن سفينتان كبيرتان كل منهما مجهزة بثلاثين مدفعا وثلاثمائة مقاتل، كانت قد وصلت قبل هذا ببعض الوقت من مستعمرة جوا في الهند بقيادة سيمون دي ميلو وذلك لمساعدة روى فريبرا وكان سيمون دي ميلو هذا في ذاك الوقت يتولى حكم جزيرة هرمز بامر من نائب الملك في الهند بعد وفاة حاكمها فرانشيسكو دى صوصا •

وكان قادة السفن الانجليزية يعتقدون ان الحرب ستنشب بينهم وبين القوات البحرية في جزيرة هرمز ولكن على العكس من هذا ، فقد تجنب البرتغاليون الحرب ، ولما انقضت عدة أيام على هذا الوضع توجهت السفن الانجليزية الى جزيرة قشم •

كانت قلعة قشم في هذه الاثناء قد حوصرت بواسطة شاهقلي بك وجنوده من ناحية البر ولم يكن قد بقي أمام المدافعين عن الجزيرة وهم نحو مائتي برتغالي ومائتين وخمسين عربيا سوى الفرار عن طريق البحر، وكان روى فريبرا — خلافا لرأيه ـ قد انزل بعض المدافع من سفنه الى القلعة واخذ في الدفاع عنها • كما أرسل شخصا الى « أمام قلي خان » وطلب الصلح وأبدى استعداده لتحمل جميع نفقات الحرب التي كانت ايران قد أنفقتها حتى ذلك الوقت • ولكن خان شيراز لم يستطع قبول عرضه لانه لم تكن لديه تعليمات من الشاه عباس •

وقد وصلت السفن الانجليزية تحت جنح الظلام الى جوار أسوار القلعة على ساحل قشم ، واستطاعت أن تنزل بعض مدفعيتها الى البر دون أن تصاب بأية اضرار من العدو ، ثم أخذت تطلق قنابلها على القلعة

البرتغالية لمدة ثلاثة أيام . وبمجرد أن انهار جزء من سور القلعة وضاق الحصار على البرتغاليين من البر والبحر أضطر روى فريبرا الى التسليم وابدى استعداده لترك القلعة للقواد الايرانيين والانجليز بشرط الا يتعرضوا للبرتغاليين ويسمحوا لهم بالذهاب الى جزيرة هرمز حاملين اسلحتهم وأموالهم . ويؤمنوا الجنود الايرانيين الذين انضموا للبرتغاليين أثناء الحرب .

وقد قبلت هذه الشروط ولكنها لم تنفذ تماما لان الجنود الايرانيين الذين أسروا بعد الاستيلاء على القلعة أعدموا بتهمة الخيانة والانضمام للاعداء . كما أخذت اموال البرتغاليين وأسلحتهم قبل نقلهم الى جزيرة هرمز .

وقد حمل الانجليز روى فريبرا وبعض قادة جيشه الى سفنهم وتحفظوا عليهم ، وعاملوهم باحترام وحب ، وكان هدفهم أن يرسلوهم الى ميناء جوا أو اى مكان اخر بعيد عن هرمز . أما العرب الذين كانوا يتعاونون مع البرتغاليين فى جزيرة قشم وكان رئيسهم يلقب بالامير زين الدين محمد ، فقد قام صهره حاكم مغستان بقتلهم بناء على أوامر أمام قلى بك قائد الجيش الايرانى .

وقد قتل فى حرب قشم ثلاثة من الجنود الانجليز وجرح شخصان ، وقد كان من بين القتلى البحار والمكتشف الانجليزى الشهير ويليام بافين(١) المعروف باكتشافاته القطبيــــة .

بعد الاستيلاء على قلعة قشم تولت جماعة من الجيش الايرانى مع اربعة من الانجليز الحفاظ على القلعة وتوجهت السفن الانجليزية من قشم الى ميناء جمبرون لكى تستكمل تجهيزها وتستعد للهجوم على جزيرة هرمز، كما ارسلو روى فريبرا ومرافقيه الى ميناء سورت مركز تجارة شركة الهند الشرقية الانجليزية فى الهنـــــد .

---

(١) William Baffin

وصف جزيرة هرمز فى تلك العصــــــر :

كتب مختلف السياح فى كتبهم الكثير عن وضع جزيرة هرمز الطبيعى وبنـاء المدينة وقلعتها وطريقة حياة البرتغاليين وبقية سكان تلك الجزيرة . وأغلب ماكتبوه متشابه لايختلف كثيرا . ونكتفى هنا بنقل خلاصة ماكتبه دون جارسيا دى سيلفا فيجورا سفير اسبانيا اذ يقول :

« جزيرة هرمز على شكل مثلث تقريبا ويسميها العرب جرون وأطول ضلوعهـا ناحيـة الشرق والشمال الشرقى ويمتد من ديـر نوتردام دى لاسبرانس(١) حتى الرأس المقام عليها قلعة جزيرة هرمز . وهى أقرب نقطة للساحل الايرانى والضلع الآخر وهو أقصر يمتد من الدير أى من الجنوب الشرقى الى الجنوب الغربى عنـد رأس كارو ثم يمتد من هنـــاك ناحية الغرب والشمال الغربى ويمثل قاعدة المثلث وأقصر أضلع الجزيرة هو الممتد من رأس كارو الى القلعة والذى يطل على مغستان أى ساحل ايران فى الجانب الشمالى الغربى للجزيرة ، ويبعد عن الساحل بنحو فرسخ ونصف (٩ كيلو مترات) ومساحة الجزيرة كلها نحو ١٤٤ كيلو مترا مربعا .

ويوجد فى جزيرة هرمز جبال بيضاء وأخرى حمراء يستخرجون منها الملح بكثرة وأرض الجزيرة غير صالحة للزراعة ولكن يرى فى بعض أنحائها بضع شجيرات ولا يوجد بها من الاشجار المثمرة الا بعض النخيل .

وعلى السفوح الجنوبية والشرقية للجبال بعض مجارى للانهار ولكن ماءها من الملوحة بحيث أنها عندما تجف فى الصيف تترك كتلا من الملح ، وبغير هذه الانهار فان المـاء نادر فى الجزيرة ، كما أن الآبار لاتصلح للشرب لملوحتها ، ولكن كلما ابتعد البئر عن الجبال كلما قلت ملوحته .

وقد أقيم دير سانت لوتشيا(٢) بين دير نوتردام دى لاسبرانس ومدينة هرمز ويحيط به بعض المنازل التى يلجأ اليها بعض سكان الجزيرة عندما يشتد الحر بها لان هذه المنازل وكل المنازل القريبة من الســـــاحل مصنوعة من القصب ومغطاة بسعف النخيل .

ويوجد منخفض واسع بين المدينة وسلسلة الجبال يبتدىء من ديـر سانت لوتشيا وقد حفروا فى هذا المنخفض آبارا للمياه تتجمع فيها ميـاه

---

(١) Notre-Dame de L' Esperance

(٢) Santa Lucia

الامطــار . ثم يغلقون فوهاتها بعـــد ذلك • أمـــا باقى هـــذا المنخفض تشغله المقابر التى عـــادة ماتخرج اليها النساء بعـــد العصر للزيارة وتوزيع الصدقات والنزهة أيضا •

ويتم خلف الجبال فى الجزء الجنوبى الغربى والجنوبى للجزيرة قســـم يسمى توران باغ (حديقة توران) وهو أصغر من الجزء الآخر للجزيرة ولكنه يمتاز عنه بأنه كانت تشغله عمارات ملوك هرمز القدماء لوجود بئرين للميـــاه العذبة به • ولكن هذه العمارات كثيرة ولكن لوجود بعض المنـــــــازل الصغيرة المصنوعة من البوص وسعف النخيل حولها ، فقـد تحـول هـذا الجزء من الجزيرة الى قرية صغيرة •

أما فى ناحية راس كارو فقد أقيمت بعض المنازل كما أقام قسس فرقة سان أغوسطين بعض المنازل البسيطة وحوضا جميـــــلا للسباحة وبعض خزانات المـاء لتخزين ميـاه الامطـار •

وتعد قلعة هرمز من اثار البوكيرك ، ومع انها فى عهده لم تكن تزيد عن برجين فقط ، الا أن الحكام البرتغاليين من بعده اكملوا بناءها وأقاموا له تمثالا هـــــناك •

وتبتدىء مدينة هرمز بالميدان الواقع فى الفضاء المواجه للقلعة • وفى الجزء الاول بعض المنازل العالية التى يمتلكها اثرياء البرتغاليين • ويقع فى هذا الحى كنيسة المسيحيين ومسجد المسلمين ، ومع ان المسجد خرب الا أنه لايخلو من مظاهر العظمة • وفى هذا الجزء من المدينة يوجد برج اسمه القرآن أعلى من كل عمائر المدينة •

ومنذ مدة قام بعض المسئولين البرتغاليين المتغطرسين بهدم جزء من مسجد المسلمين المجاور للقلعة غير مقدرين أن هذا العمل سيترك حقـــــدا وضغينة فى قلوب الناس بل انه سوف يثير عداوة الايرانيين المتعصبين بل ان مثل هذه الاعمال كانت سبب عداوة الايرانيين لهم حتى انهم استولوا على كل ممتلكات البرتغاليين على السواحل الايرانية •

وأغلب منازل هرمز تتكون من ثلاثة أو أربعة أدوار والحوارى ضيقة حتى أن سير شخصين متجاورين يكون بصعوبة • وهم يبنون المنازل عاليـــة والحوارى ضيقة حتى يكثر الظل ولاتؤذى الشمس السائرين فى هذه الطرقات •

ولكثير من هذه المنازل ملاقف للهواء ولهذا السبب تبدو المنازل اعلى من المعتاد ، وبعض منازل المدينة مبنية من الحجر والآجر ، وبعضها الآخر مبنى من البوص وسعف النخيل وتوجد ببعض الدكاكين المبنية بالآجر وبعضها تحت خيام وينام أغلب الناس فوق السطوح(١) ، ويرتدى بعض السكان جلبابا من القطن وبعضهم يعيشون شبه عرايا ٠

ويتراوح عدد منازل هرمز بين الفين وخمسمائة وثلاثة الاف منزل ، ولا يحيط بالكثير منها حدائق أو أفنية (٢)٠ ويتحدث الناس سواء منهم المسلم أو غير المسلم باللغة الفارسية ويقيم فى هرمز عدد كبير من الهنود جاء اغلبهم من ولايات السند وبمباى وعدد سكان المدينة نحو أربعين الفا يعمل اغلبهم فى التجارة بين ايران والبلاد العربية كما توجد نحو مائة أسره يهودية اغلبهم فقراء ٠

ولايتجاوز عدد البرتغاليين المقيمين فى هرمز مائتى أسرة غير الجنود الذين تزوجوا هناك ويتاجرون فى البضائع الهندية التى يبيعونها فى ايران والبصرة ٠ ولما كان حاكم هرمز البرتغالى يريد ان يحتكر كل تجسسارة هرمز لنفسه لهذا فان التجار البرتغاليين لايحصلون على أرباح كثيرة ٠ ويتمتع الحاكم بنفوذ وصلاحيات غير محدودة ، وكان يعيش كالملك ٠ويوجد كثير من العبيد والجوارى فى منسازل هرمز ٠٠٠ » ٠

احتلال جزيرة هرمز

بواسطة القوات البرية والبحرية لايران وانجلترا

فى يوم ٢٧ ربيع الاول ١٠٣١ هـ (٩ فبراير ١٦٢٢ م) غادرت السفن الانجليزية ميناء جمبرون برافقها مائتا زورق ايرانى وألقت مراسيها أمام جزيرة هرمز وكان القادة الايرانيون الذين كلفهم امامقلى خان بالاستيلاء على جزيرة هرمز هم على قلى بك ، وبولاد بك وشاة قلى بك وشارق على محمد

(١) ينام أغلب سكان طهران ومدن المناطق الحارة فى ايران وكذلك العراق فوق الاسطح فى الصيف فرارا من الحرارة داخل المنازل (المترجم)٠
(٢) كانت أغلب المنازل فى ايران والعراق عبارة عن دور أو دورين تحيط بها حديقة وفناء ولكن بدأت تقام العمارات فيسكنها المضطرون خاصة بعد ادخال اجهزة التكييف التى تغنى عن النوم فى الهواء الطلق ٠

سلطان وعلى بك • وكان القائد الاخير هو حاكم ميناء جمبرون كما عسكر عدد كبير من القواد مع جنودهم فى ميناء جمبرون •

فى يوم ٢٨ ربيع الاول انزلت سفينتان انجليزيتان ثلاثة الاف جندى ايرانى بقيادة أمام قلى خان على ساحل جزيرة هرمز واخذوا على الفور فى بناء استحكامات لمواقعهم . ثم استولوا بسهولة على المدينة وأخذوا فى ضرب قلعة هرمز بالمدفعية •

أخذ البرتغاليون الذين تركوا المدينة واحتموا بالقلعة فى الدفاع عن انفسهم حتى أنهم خرجوا مرة من القلعة وهجموا على القوات الايرانية فقتلوا منها نحو ثلثمائة شخص ولكن المدفعية الايرانية استطاعت فى هذه الاثناء ان تهدم احد أبراج القلعة واستمر القتال بين الجانبين •

وفى يوم ١٢ ربيع الثانى (٢٤ فبراير) هجمت السفن البريطانية على سفن روى فريرا المكونة من ٥ سفن كبيرة وعشرين سفينة شراعية ، ولأن السفن البرتغالية لم تتحرك ، فقد اضرموا النار فى سفينة القيادة المسماة سان بدرو(١) وكانت حمولتها ١٥٩٠ طنا ، وقد اضطر البرتغاليون الى قطع حبال السفينة وتركها للرياح حتى لا تسرى منها النار الى بقية سفنهم • وقد وقعت هذه السفينة فى ايدى مجموعة من الجنود الايرانيين على مقربة من جزيرة لارك واستولوا على حمولتها التى كانت من المدافع والاسلحة والمهمات الحربية •

وفى يوم ٤ جماد (١٧ مارس) تمكن الجنود الايرانيون من هدم جزء كبير من القلعة بالبارود ثم هجموا من هناك على المحاصرين ، ولكن البرتغاليين دافعوا برجولة ودارت معركة شديدة وبعد ٩ ساعات من القتال الدموى انهزم البرتغاليون ولجأوا الى داخل القلعة ، وفى نفس الوقت اشعل الجنود الايرانيون النار فى مدينة هرمز بناء على أوامر أمام قلى خان •

بعد تقهقر البرتغاليين هجمت مجموعة من الجنود الايرانيين على أبراج القلعة وسورها لاحتلالها ولكنهم لم يتمكنوا من تحقيق هدفهم بسبب المقاومة الشديدة للبرتغاليين بل ان جماعة منهم قتلت(٢) • وحينما رأى شـاه قلى

---

(١) San Pedro

(٢) يقدر السير توماس هربرت الذى جاء بعد هذه المعركة بأربع سنوات الى ايران عدد القتلى الايرانيين بألف قتيل وقد يكون مبالغا •

بك القائد الايرانى هذا الوضع اندفع مع نحو ،اثنين من خيرة جنوده وسط نيران المدافع والبنادق ووصلوا الى أحد الابراج واستولوا عليها ولكنه لم يستطع الاحتفاظ به أكثر من نصف ساعة لقلة من كانوا معه واضطر للتقهقر ·

وفى العاشر من جمادى الاول تمكنت السفن الانجليزية من اغراق سفينتين اخريين من السفن البرتغالية · واضطر البرتغاليون المحاصرون بعد بضعة ايام الى اللجوء الى الصلح بعد أن نفدت مؤونتهم وتفشت بينهم بعض الامراض · وفى الخامس عشر من جمادى الاولى ارسلوا شخصين الى معسكر ايران لطلب الصلح أبديا استعداد البرتغاليين لدفع مائتى ألف تومان نقدا · ومائة واربعين الف أكو برتغالى الى الحكومة الايرانية اذا فك الجيش الايرانى الحصار عن القلعة ، وكان غرضهم الخفى من طلب الصلح هو كسب الوقت لعل المساعدات تصلهم من الهند · وقد أدرك أمام قلى خان هدفهم ولم يقبل عرضهم ومقترحاتهم وقال انهم اذا دفعوا خمسمائة الف تومان نقدا ومائتى الف تومان كخراج سنوى فانه سيخرج جنوده من الجزيرة · فلما يئس البرتغاليون من الايرانيين التجاوا الى الانجليز على أساس انهم مسيحيون وأن الدولتين على دين واحد ، وأن ملكى البلدين تربطهما الصداقة والعلاقات الودية · وابدوا استعدادهم لتعويض شركة الهنـــد الشرقيـــة الانجليزية عن كل الخسائر التى كانت قـد لحقت بها قبل هـذا ، ولـكن الانجليز لم يقبلوا الصلح أما خوفا من الايرانيين أو للحقد القديم بين الانجليز والبرتغاليين ·

وفى ١٨ جمادى الاولى استطاع الانجليز نسف جزء كبير آخر من حائط القلعة بالبارود وحدثت فتحة كبيرة تؤدى الى داخلها ، ومع هذا استطاع البرتغاليون الصمود رغـم ماكانوا يعانونه من قلة الماء والطعام وانتشار الامراض المختلفة بينهم ، ومنعوا دخول الايرانيين الى القلعة ·

وفى الثانى من جمادى الثانية (١٤ ابريل) ظهرت قرب هرمز سفينة عليها جماعة من العرب كانت قادمة لمساعدة البرتغاليين ، وحين احست بالخطر أخذت فى العـودة ولكن القوات الايرانية تمكنت من اسرها وضربوا أعناق ثمانين عربيا كانوا عليها · ·

بعد ثلاثة أيام أخرى تمكنت القوات الايرانية والانجليزية من تحطيم جزء آخر من سور القلعة ، وفى اليوم التالى تمكنت مجموعة من الجنـــود

الايرانيين من الاستيلاء على أحد الابراج • وفى هذه الاثناء جاء اثنان من المحاصرين فى القلعة واطلعا القواد الايرانيين على ضعف العدو وصعوبة وضع الجنود البرتغاليين بسبب قلة الماء والمؤن وكثرة القتلى والمرضى فزاد هذا من جرأة الايرانيين ودفعهم فى السابع من ذلك الشهر الى الاستيلاء على السور الخارجي للقلعة ودفع عدوهم الى داخل مبنى القلعة • وفى النهاية وفى التاسع من الشهر لجأ البرتغاليون الى القادة الانجليز وأبدوا استعدادهم للتسليم بشرط الحفاظ على أرواحهم وأن تحملهم جميعا السفن البريطانية الى مسقط أو الهند ، وقبل القائد الانجليزى هذه الشروط فسلم البرتغاليون القلعة فى اليوم الحادى عشر من جمادى الثانى (٢٣ ابريل) وانزل العلم البرتغالى الى الابد بعد أن ظل يرفرف على قلعة البوكيرك نحو قرن من الزمن •

كان عدد الجنود الايرانيين فى حرب جزيرة هرمز نحو ٤٠ او ٥٠ الفا قتل منهم أو جرح أكثر من الف شخص ، بينما لم يتجاوز عدد القتلى من الانجليز عشرين شخصــــــا •

بعد تسليم القلعة حملت السفن الانجليزية البرتغاليين الـذين كانوا فى الجزيرة مع نسائهم وأطفالهم ويبلغ عددهم نحو ثلاثة الاف شخص الى مسقط والموانى الساحلية لعمان ، ولكن ماتت جماعة منهم نتيجة لامراض مختلفة • كما سلم المدافعون المسلمون عن القلعة من عرب وايرانيين الى القائد الايرانى ، وتحفظ الجانبان الايرانى والانجليزى على الغنـائم من أسلحة ومؤن واموال نقدية كانت تبلغ نحو مليونى أكو اسبانى ، بينما أخذ الجنود الايرانيون والانجليز فى نهب المدينة(١) ، وقد وقعت اكثر الغنائم فى أيدى الايرانيين ، كما اضطر الجنود الانجليز لبيع نصيبهم بثمن بخس لعدم وجود من يشتريه منهم ، وبلغ ماحصلوا عليه نحو عشرين الف جنيه استرلينى •

استولى أمام قلى خان على قلعـة هرمز خلافا للمعاهدة التى كان قد وقعها مع مندوبى شركة الهند الشرقية وترك لهم نصف مدينة هرمز فقط(٢) •

---

(١) جاء فى تاريخ القسس الكرمليين أن الايرانيين قتلوا نحو ستين أو سبعين برتغاليا وقيدوا من بقى فى سلاسل طافوا بهم أنحاء ايران ، ج ١ ص ٢١٢ •

(٢) كتب بيترو دلا فاليه أن أمام قلى خان أعد الاتفاقية باللغـــة

وكان عدد المدافع فى القلعة ٥٠ مدفعا كبيرا من البرونز على عجـل وأربعة مدافع برونزية صغيرة وخمسة عشر قاذفا وبعض المجانيق ونحو مائة وخمسين عربة مدفع صغيرة وكبيرة يقال أنها قسمت بالتساوى بين الجانبين • وقد حمل الايرانيين نصيبهم الى ميناء جمبرون ولار وشيراز بل وحتى الى اصفهان وبغداد ومن بينها خمسين عربة مدفع كبير وصغير كانت موجودة فى ميدان نقش جهان حتى عصر الشاه سليمان وأخر العصر الصفوى(١) •

وكان من بين الغنائم الايرانية ناقوسان حصلوا عليهما من كنيسة هرمز ، وكانت نساء البرتغاليين فى هرمز قد تبرعن يوما الى الكنيسة سنة ١٦٠٩ م (١٠١٧ هـ) ، وكان منقوشا عليهما عبارة « أدعوا لنا نحن النساء رحم الله أعقابكم » • وبجوارها نقشوا كلمة المسيح بخط اكبر • كما كان بين الغنائم ساعة كبيرة حملوها الى اصفهان ونصبوها على بـاب سوق القيصرية(٢) •

وقد أسر ملك هرمز وكان اسمه محمود شـاه مع وزيره ومستوفيه والرئيس نور الدين قاضي الجزيرة فارسلهم أمام قلى خان الى شـيراز وعند بداية الحصار عرض ملك هرمز على البرتغاليين ان يترك لهم كل امواله بشرط أن ينقلوه الى مسقط او مستعمرتهم فى جوا(٣) ، كما عـرض الرئيس نور الدين نفس الشرط مقابل دفع نصف مليون آكور ولكن البرتغاليين لم

=

الفارسية فقط ، وطبقـا لمـا كان يريد وعندما استولى على القلعة اعترض مندوبو شركة الهند الشرقية بان هذا خلاف للاتفاقية فذكر الخان انه طبقا للاتفاقية ليس لهم الا نصف المدينة ولما ترجموا الاتفاقية بواسطة مترجم اتضح لهم صحتها ، ج ٦ ص ٢٠٤ •

(١) انتهت الدولة الصفوية سنة ١١٤٨ هـ (المترجم) •

(٢) سوق القيصرية لازالت مستعملة للان فى العراق وغيرها وتطلق على سوق القماش وربما كانت مشتقة من القصار أى الخياط (المترجم) •

(٣) كتب بيترو دلا فاليه « أن ملك هرمز عند بداية الحرب كان يريد أن يرسل كل النساء والصناع والتجار وأمثالهم مع كل الاموال والثروات والسفن الى مسقط او أى مكان بعيد حتى يكونوا فى امان من حملة الانجليز والايرانيين ، وبذلك يقلل من عدد سكان القلعة ويقلل من استهلاك المـاء والاغذية كما يؤدى هذا الى يأس الاعداء الذين يقاتلون على أساس الـ فى الغنـائم والاموال ولكن القادة البرتغاليين لم يوافقوا على رأيه هـذا • ج ٦ ص ٣٤ ، ٣٥ •

يتبلوا ، وبعد ان شلم البرتغاليون القلعة لم يحملوهم معهم وتركوهم للاعداء، وتوفى وزير ملك هرمز قبل ان يصل الى شيراز · أما المستوفى فقد قتله أمام قلي خان في شيراز ، وكتب المؤرخون والسياح أن هذين الشخصين كانا على اطلاع كامل على الاموال والثروات التى كانت في هرمز ، ولهذا قتلهما خان فارس حتى لايعرف الشاه عباس منهما الرقم الحقيقي للغنائم التى استولى عليها أمام قلي خان (١) ·

أما ملك هرمز فقد احتفظ به أمام قلي خان في مدينة شيراز وخصص له راتبا شهريا ·

بعد الاستيلاء على جزيرة هرمز ، أراد الشاه عباس أن يجعل ميناء جمبرون مركزا للتجارة في الخليج ، ولهذا لم يهتم بتعمير مدينة هرمز فحل الخراب بها بعد أن كانت تعد من أجمل (مدن الشرق) واشتهرت في العالم بثروتها وتجارتها ، حتى أن الجنود الانجليز والايرانيين نهبوا أبواب ونوافذ العمارات بل حتى أخشاب الاسقف ولم تبق بها سوى قلعة جديدة بجوار القلعة البرتغالية بناء على أوامر امام قلي خان ، وعين أحد قواد القزلباشية اسمه ولدخان سلطان لحكم الجزيرة وتولى المحافظة عليها وعلى قلعتها مع مائتين من الجنود ·

أقامت الحكومة الايرانية قلعة جديدة في ميناء جمبرون غير القلعة التى كانت قد شيدتها بعيدا عن الساحل وجعلت هذا الميناء مرفا للسفن الانجليزية والهولندية القادمة من الهند الى ايران وغيرت اسم الميناء الى بندر عباس ·

بعد هذا أراد الشاه عباس الاستيلاء على كل السواحل على الجانب الايراني لبحر عمان الى ماوراء راس جاسك ولكن أمير جاسك قاوم ولم يقبل الا أن يصبح تابعا لشاه ايران ويدفع له الخراج وقد قبل شاه ايران هذا العرض ، وظل أمير جاسك يرسل الخراج كل عام الى خزانة الشاه عباس حتى آخر عمره(٢) ·

---

(١) هناك مؤلفات كثيرة عن حصار هرمز واحتلالها للعديد من السياح مثل مونوكس وروى فريبرا وتافرنيه وبيترو دلا ناليه وغيرهم ولكن أكملها من تأليف ماريا سوزا البرتغالي ·

(٢) نلاحظ أن هذه المناطق لم تكن خاضعة للحكومة المركزية منذ زمن بعيد بل كانت تتمتع باستقلال ذاتي ·

بعد فتح هرمز تفشت الامراض المختلفة بين الملاحين الانجليز ، وتوفى عـدد منهم ولهذا رأت السفن الانجليزية ضرورة مغادرة سواحل هرمز والعودة الى الهند ، متوجهة الى ميناء سورت ٠

يتضح من كتب التاريخ أن الانجليز لم يحصلوا على فائدة ذات قيمة من حرب هرمز وكان اشتراكهم فى الحرب الايرانية البرتغالية بسبب المنافسة التجارية فقط ، وحفظ مصالحهم فى تجارة حرير ايران ٠ ولم يكن لهـــا أى سـبب سياسى لانه عندما اتحد المسئولون فى شركة الهند الشرقيـــة الانجليزية مع ايران ضد البرتغاليين فى هرمز كانت الحكومتان الانجليزية والاسبانية فى حالة صداقة وسـلام ٠

ولهذا فعندما علم ملك اسبانيا بهذه الحادثة ، احتج بشدة عـلى الحكومة الانجليزية وكادت الحكومة البريطانية ان تدين شركة الهنـــد الشرقية بسبب هذا الاجراء المنفرد الخاطىء ، وتعد موظفى تلك الشركة ضمن القراصنة ، ولكن الشركة جاهدت من أجل تبرئة مسئوليها وموظفيها ، وذهب مونوكس مندوب الشركة وقائد السفن الانجليزية الى انجلترا وقدم ادلة كثيرة على براءته وعدم تورطه ، وفى النهاية قدمت الشركة عشرة الاف جنيه الى جيمس الاول ملك انجلترا وعشرة آلاف جنيه أخرى الى قـــائد البحرية الانجليزية ، وحصلت على امر بالعفو العام عن الاشخاص الذين اشتركوا فى تلك المعركه ، وحصلت على تصريح بأن تستولى على كـــل مايحصل عليه مندوبوها من بحسار المشرق ٠

العلاقات الإيرانية البرتغاليـة
بعـد الاستيلاء على هرمـــز

ذكر ألفونسو دى البوكيرك القائد البحرى البرتغالى المشـــهور أن المراكز الرئيسـية للعلاقات التجارية فى آسيا والهند هى ثلاث نقاط : أحداها مضيق مالاكا ، والثانى مضيق عدن ، والثالث هو مضيق هرمز ، وهو أهمها، وبالاستيلاء على هذه المضايق الثلاثة عدت الحكومة البرتغالية نفسها مالكة للدنيا كلها . وكان يقصد من هذا أنه بامتلاك هذه الاماكن الثلاثة تصبح تجارة الهند وايران وكل دول آسيا تحت تصرف البرتغاليين وفى احتكارهم، ولكن البرتغاليين فقدوا هرمز بسبب سوء سلوكهم وخشونتهم وسياستهم الخاطئة فى ادارة مستعمراتهم ، وفى اثرها فقدوا بقية مستعمراتهم ومراكزهم التجارية بالتدريج .

بعد سقوط جزيرة هرمز جعل البرتغاليون ميناء مسقط على ساحل عمان مركزا لتجارتهم ، وشيدوا هناك عدة قلاع ، ولكن مسقط كانت دائمـا عرضة لهجمات العرب العمانيين ، ولهذا كان البرتغاليون دائما فى عذاب وخطر ، ثم استولوا بعد فترة على ميناء البصرة ، واقاموا هناك مركزا تجاريا ودارا للعلم وظلوا هناك الى حوالى عـــام ١٠٥٠ هـ (١٦٤٠ م) ينافسون انجلترا .

وقد حاول البرتغاليون عدة مرات الهجوم على جزيرة هرمز واعادتها ، من ذلك مرة سنة ١٠٣٣ هـ (١٦٢٤ م) ، ومرة أخرى عامى ١٠٣٩ و ١٠٤٠هـ (١٦٤٠ م) حين أرسلوا سفنهم الى سواحل ايران خاصة الى ميناء جاسك وجزيرة هرمز ، وحاصروها عدة مرات ، ولكن مساعيهم فشلت ولم يتحقق هدفهم .

بعد أن استولى الشاه عباس على جزيرة هرمز ، أرد أن يستولى أيضا على ميناء مسقط ويكف أيدى البرتغاليين عنه ، ولهذا أرسل جيشا الى هناك ، واستولى على صحار وخور فكان على الساحل العمانى ، ولكن روى فريرا القائد البرتغالى الذى كان قد هرب من أسر الانجليز وصل مع بضعة

سفن لمساعدة القوات البحرية البرتغالية ، بل وقام البرتغاليون ــ كما سبق أن ذكرنا ــ ببعض الهجمات على موانى جاسك وجمبرون وبعض المناطق الساحلية الاخرى • ولخوف الايرانيين من أن يقطع الاعداء صلتهم بالوطن الأم ، فقد انسحبوا من المناطق التى كانوا قد استولوا عليها فى ساحل عمان•

فى عام ١٠٣٤ هـ (١٦٢٥ م) ــ أى بعد ثلاث سنوات من سقوط هرمز ، وعندما يئس البرتغاليون من استردادها ــ لجأوا الى مصادقة الشاه عباس وصرفوا النظر رسميا عما كان فى أيديهم من سواحل الخليج الفارسى ، وبدلا من ذلك أخذوا موافقة من الشـاه باقامة قلعة ومركز تجارى فى ميناء كنج(١)، ومزاولة صيد اللؤلؤ فى البحرين • وطبقا للاتفاقية بين الجانبين تقرر اعفاء البضائع البرتغالية فى هذا الميناء من الرسوم والجمارك ، ابتداء من ذلك التاريخ • كما يحصلون على نصف ايراد ميناء كنج • وكان الشاه عباس يهدف من وراء ترضية البرتغاليين وعقد هذه الاتفاقية معهم الى هـدف سياسى وهو أن يظل صديقا للدولتين الاسبانية والبرتغالية حتى يمكنه عند اللزوم الاستعانة بسفنهم ضد التجار الانجليز والهولنديين الذين كان نفوذهم قد ازداد فى الخليج •

وقد ظلت مواد هذه الاتفاقية نافذة طيلة بقاء السيطرة البرتغالية على مسقط ، ولكن الحكومة الايرانية رفضت العمل بمقتضاها منذ ١٠٦٠ هـ (١٦٥٠ م) ، أثناء حـكم الشاه عباس الثانى حينما خرجت مسقط من تحت سيطرتهم(٢) ، وخاصة فيما يتعلق بالرسوم الجمركية من ميناء كنج والتى لم تدفع للبرتغاليين منها الا مبلغا ضئيلا لايتجاوز عشرة آلاف تومان •

---

(١) كنج بضم الكاف : كان ميناء فى الشمال الشرقى لميناء لنجـه وهو اليوم قريه ساحليه صغيرة لايتجاوز عدد سكانها ألفى شخص ، وكانت بقايا جدران القلعة البرتغالية مازالت موجودة الى نحو خمسين سنة مضت•

(٢) فى أواخر ١٠٥٩ هـ استطاع العرب الذين هاجموا مسقط عدة مرات محاصرة تلك المدينة وعجز البرتغاليون عن الدفاع عنها ودخلها العـــرب واستولوا على قلعة المدينة ومركز التجارة البرتغالى فيها ، وفى ٢٠ محرم ١٠٦٠ هـ ٢٣ يناير ١٦٥٠ م ، سلم الحاكم البرتغالى لمسقط ، وكان نائب الملك فى الهند قد أرسل عدة سفن لمساعدة البرتغاليين فى مسقط ، ولـكن السفن وصلت متأخرة ، وكان البرتغاليين قد غادروا ساحل عمان وفقدوا قلاعهم فى شبه الجزيرة العربية أيضا • (الخليج الفارسى ــ سيرأرنولد ويلسون) •

وفى النهاية أرسل نائب الملك فى الهند سفيرا الى الشـاه عباس الثـانى واتفقت الدولتان على أن تدفع ايران كل عام مبلغ خمسة عشر الف اكـو (حوالى ٣٠ الف تومان) الى البرتغاليين تحت عنوان دخل جمرك ميناء كنج فى مقابل تغاضى البرتغاليين نهائيا عن كل حقوقهم على سواحل الخليج ولما لم ترد أية اشارة الى صيد اللؤلؤ حول جزر البحرين ، فقد ادعى البرتغاليون أن صيد اللؤلؤ فى تلك النواحى من حقهم وليس لاحـد حق صيد اللؤلؤ حول البحرين دون اذن خاص منهم(١) ·

فى ذلك الوقت كان نفوذ الشركات التجارية الانجليزية والهولندية فى بحار المشرق يزداد وينمو وأخذت قوة البرتغاليين على مدى القرن الحادى عشر تضمحل من السند وملوك مالاكا وسرنديب (سيلان) والسواحـل الهندية ورأس الرجاء فى جنوب افريقيا · وقد استولى الهولنديون على جزء من مستعمراتهم وفقد الجزء الثانى بسبب عداوة العرب والوطنيين والهنـود لهم · وفى النهاية فقدوا ميناء كنج ـ المكان الوحيد الذى كان قد تبقى لسفنهم فى الخليج(٢) ·

---

(١) فى عام ١٠٤١ هـ (١٦٣١ م) أدرك ملك اسبانيا مدى الخسارة التى لحقته من جراء ضياع البحرين من أيديهم ، ولهذا أمر نائبه فى الهند بالعمل قدر استطاعته لاستعادة هذه الجزيرة حتى لو امكنه ارضاء حاكم الجزيرة الايرانى بتسليم الجزيرة عن طريق الرشوة ·

(٢) كتب الرحالة شاردان الذى كان فى ايران سنة ١٠٨٦ هـ (١٦٧٥م) فى أحداث تلك السنة : « وصل مبعوث خاص من ميناء كنج ، وذكر أن بعض السفن البرتغالية وصلت للميناء وصادرت ثلاث سفن هندية ، وعليها تاجر حاج ايرانى ، وكثير من البضائع وكان هدفهم ارغام الحكومة الايرانية على دفع نصف ايرادات جمرك ذلك الميناء عن عامين بناء على اتفاقية سـنة ١٠٣٤ هـ · وقد ارسل الشـاه ميرزا شفيع الخازندار الى ذلك الميناء وأصدر اليه تعليمات بأن يدفع لهم ١٠ الف اكو عن العام السابق و ١٥ عن ذلك العـام ، فاذا لم يقبلوا قام بتخريب الميناء ونقل أهله الى المواني الاخرى، وقبل وصول ميرزا شفيع كان حاكم الميناء الايرانى قد تصالح من البرتغاليين ودفع لهم مبلغا من المال فاطلقوا سراح السفن والحجاج · ولما نزلوا جميعا وافرغت البضائع من السفن قال لهم الحاكم انه لن يدفع لهم أية اموال أخرى دون اذن من الشاه رغم ما اعلنوه من تهديد ووعيد فلما وصل ميرزا شفيع قال لهم أن من الافضل لهم أن يرسلوا مندوبا عنهم الى الشـاه فى اصفهان لحـل هـذه الخـلافات ·

ومن أهم أسباب زوال قوة البرتغاليين ونفوذهم فى المشرق سوء سلوكهم وقسوة طباعهم مع شعوب الشرق • وثانيا الخلاف بين المسئولين البرتغاليين وتنافسهم بعضهم لبعض • ولما كانت الشئون التجارية الاسبانية والبرتغالية محتكرة للدولة ، فانها لم تستطع الصمود أو منافسة التجارة الحرة للشركات الانجليزية والهولندية •

وقد استطاع الاسبان والبرتغاليون الحفاظ على نفوذهم واستعمارهم بعض الوقت مستندين الى قوتهم العسكرية ، ولكن لنقص المسئولين الذين يمكنهم ادارة هذه المستعمرات بالحكمة والسياسة فقد ضعف نفوذهم ثم انتهى •

مراجع هذا الفصل

١ ـ كتاب رحلة ماركو بولو marcoPolo للتاجر البندقي .

٢ ـ كتاب رحلة بيترو دلافاليه الايطالي ، ٨ أجزاء طبعة روين Rouen ١١٥٨ هـ / ١٧٤٥ م . وهو الذي زار ايران سنة ١٠٢٥ هـ .

٣ ـ مقدمة شارل شيفر Charles Schefer لكتاب «وضع ايران في عام ١٦٦٠ م) Estat de la Perse en 1660 تأليف رفاييل دي مانس Raphael du mans طبع باريس ١٨٩٠ م .

٤ ـ دون جوان ايران Don Juan of Persia ترجمة المستشرق الانجليزي لوسترانج مع مقدمة سيردينس روس ، سنة ١٩٢٦ م .

٥ ـ الخليج الفارسي ، تأليف سيرارنولد ويلسون ، طبعة اكسفورد ١٩٢٨ م . ترجمة للفارسية محمد سعيدي .

٦ ـ رحلة الاخوان شيرلي The Three Brothers طبع لندن ١٨٢٥م . وترجمتها للفارسيــــــية .

٧ ـ الشـاه عباس تأليف لوسين لويس بـلان Lucien-Louis Bellan باريس ١٩٣٢ م .

٨ ـ رحـلة شـاردان Charden الفرنسي ، ١٠ مجلدات طبـع باريس ١٨١٩ .

٩ رحـلة جـان بابتيست تفارنيه Jean-Bapteste Tavernier في جزئين ، طبع باريس ١٦٩٢ م (١١٠٣ هـ) .

١٠ ـ رحلة دون جارسيا دي سيلفا فيجورا في ايران والهند والتي استغرقت من ١٦١٤ ـ ١٦٢٤ م .

١١ ـ عالم اراي عباسي ـ اسكندر بك تركمان طبع طهران سنة ١٣١٤ هـ .

١٢ ـ منتظم ناصري ـ تأليف محمد حسن خان صنيع الدولة .

١٣ ـ رحلة سيرتوماس هربرت Sir Thormas Herber لندن ١٦٧٧ .

١٤ ــ حالة الدولة الفارسية Etat du Rayaunede Perse تاليف Sanson القس المبشر المسيحى الذى جاء ايران سنة ١٦٨٣ م٠

١٥ ــ مراسلات الشاه عباس محفوظة فى المكتبة الوطنية فى نابولى جمعهـا القس جـسان تساديه ٠

١٦ ــ رحلة انطونيو دى جوفيـا طبع روين سنة ١٩٤٦ م ٠

١٧ ــ تاريخ القسس الكرمليين فى ايران ، لندن ١٩٣٩ ، فى مجلدين ٠

١٨ ــ رحلة ماندلسلو J.A. mandelslo الترجمة الفرنسية طبـع باريس ، ١٦٧٩ م ٠

الفصل الثاني

العلاقات الايرانية الانجليزية

العلاقات الايرانيـة الانجليزية فى العصر الصفــوى

بـداية العـلاقات الايرانيـة الانجليزية

بينما سيطرت الحكومتان البرتغالية والاسبانية على أعـالى البحار وقوت مستعمراتها فى افريقيا واسـيا سعى التجار الانجليز لفتح طريق الى اسيا عن طريق بحارشمال‌اوربا ففى ٩٦٠ هـ (١٥٥٣م) سافر أحد الانجليز اسمه ريتشارد شانسلر للسياحة قاصدا اراضى لابونى(١) فى اسكندنانيا فالقت الرياح بسفينته فى ميناء ارخانجاسك وقد أسس شركة فى موسـكو باسم شركة مسكو باذن من ايفان المرعب قيصر روسيا • وبعد وفاته سنة ٩٦٤ هـ أصبح انطونى جينكينسن (٢)ـ احدمعاونيه‌ومرافقيه ـ رئيسا عاما لسفن الشركة وقد كلف مع اثنين من الاعضاء الانجليز بفتح طريق للتجـارة بين روسيا ودول وسط آسيا عن طريق بحر الخزر ويبدو انه كلف بمهمة سياسية فى بخارى من قبل القيصر الروسى •

بعد عودة جينكينسن من هذه الرحلة صممت شركة مسكو على ارساله الى ايران لعله يستطيع اقامة علاقات اقتصادية مع ولايات شمال إيران الواقعة على ساحل بحر الخزر والتى كانت مركز تجهيز الحرير لينافس فى هذا التجار البرتغاليين الذين يحتكرون تجارة الحرير الايرانى والذى يحملونه الى أوربا عن طريق الخليج وجنوب افريقيا • وقد استطاع جينكينسن أن يحصل من ايفان المرعب قيصر روسيا (٩٤٠ – ٩٩٢هـ / ١٥٣٣ ـ ١٥٨٤ م) ومن اليزابيت ملكة انجلترا (٩٤٠ ـ ١٠١٢ هـ / ١٥٣٣ ـ ١٦٠٣ م) على صفة السفارة وجاء الى ايران سنة ٩٦٩ هـ •

وتحمل جينكينسن معه خطابا من ملكة انجلترا الى الشـاه طهماسب الاول مضمون جزء منه ما يلى :

« من اليزابيث ملكة انجلترا المؤيدة بالتأييد الالهى الى الامير العالى القوى الصوفى الكبير ملك ملوك ايران وشعب مادوبارث وجرجان وكرمان

---

(١) Laponie (٢) Archa ngelsk

(٣) Jenkinson

ومرو والقبائل على شاطىء دجله وكل الشعوب التي تقطن مابين بحر الخزر والخليج الفارسي أبعث وافر السلام وأماني السعادة والاقبال •

من رحمة الله التي لاتحد أن أصبحت الامتان الايرانية والانجليزية صديقتين عن طريق المراسلة رغم المسافة التي تفصل بينهما من بحــــار وأرض وفتحتا أبواب التراسل والمكاتبة في سبيل حفظ المصالح الانسانية ومنافع الطرفين ، ولهذا فان تابعنا المزيز الوفي انطوني جينكينسن الذى يحمل هذه الرسالة باذننا ومراحمنا وبعون الله ينوى السفر من بلادنا الى ايران وباقي المناطق التابعة لنفوذكم • ولما كان هدفه اقامة علاقات تجارية مع رعاياكم وبقية التجار الذين يعملون في بلدكم بالتجارة • لهذا أردت أن أطلب من جلالتكم ان تتفضلوا باصدار تصاريح المرور اللازمة له ولمرافقيه والتسهيلات الاخرى حتى لايواجهوا أية مشاكل في تنقلاتهم أو اقامتهم في ايران ••• » •

كتب في انجلترا بمدينة لندن الكبيرة في الخامس والعشرين من أبريل سنة ١٥٢٣ والسنة الثالثة لملكنا •

وصل جينكينسن الى ميناء دربند في القفقاز الذى كان آنذاك ضمن الاراضي الايرانية ومن هناك توجه الى قزوين عاصمة الشــاه طهماسب الذى استقبله واطلع على مضمون خطاب الملكة اليزابيث وعرف الغرض من مهمته • ولما لم يكن جينكينسن يعرف العــادات والتقاليد الايرانية فانه لم يستطع أن يحقق هدفه كما كان يريد وعاد الى مسكو دون عقد أى اتفاق بين ايران وروسيا أو انجلترا لتشجيع التجــــارة بينها •

كتب احد الساسة الانجليز في هذا الشــأن يقول « حينمــا التقى جينكينسن بالشــاه طهماسب الاول في قزوين قدم اليه رسالة ملكة انجلترا ، فقال له الملك : انتم الكفرة لاحاجة لنا بصداقتكم »(١)ثم اذن له بالعودة ويقول جينكينسن في كتاب رحلته « بعد أن عدت من ملاقاة الشاه قام أحــد خدمه ومعه وعاء مملوء بالتراب وسار خلفي حتى باب مقر الملك وكان ينثر التراب على مواضع أقدامي ليطهرها » •

---

(١) كان الاوربيون قد بدأوا الاتصال بأبيه الشاه اسماعيل لمهاجمة العثمانيين من الجانبين وقد وافقهم على هذا ولكن توفى قبل تنفيذ الاتفاق ، وكان طهماسب متعصبا ضد المسيحين •

قضى جينكينسن شتاء ٩٧٠ هـ في موسكو ثم عاد الى ايران ومعه شخصان آخران هما توماس الكوك(١) وريتشارد شنى(٢) ارسلتهما شركة موسكو • ولم يوفق هذه المرة ايضا لان عبد الله خان والى شروان الذى عامله في رحلته الاولى بمحبة وصداقة امتنع عن حمايته ومساعدته هو ومرافقيه هذه المرة لان احد المسلمين كان قد قتل على يد احد الرعايا الروس ونتيجة لهذا قتل توماس الكوك في أثناء الطريق •

وبعد ست سنوات أي في ذى الحجة سنة ٩٧٤ هـ جاءت هيئة أخرى من شركة موسكو برياسة آرثر ادوارد(٣) وريتشارد ويلز(٤) ولكن جماعة من أعضاء هذه الهيئة ماتوا قبل أن يصلوا الى قزوين فاستقبل الشاه طهماسب من تبقى منهم بمحبة وابدى ميله لارتداء الاقمشة اللندنية واصدر امرا أعفى بموجبه موظفي شركة موسكو من الرسوم الجمركية ورسوم الحراسة في الطرق ومنح التجار حق التجول في ايران بحرية تامة ومزاولة التجارة •

وجاء في احد الوثائق السياسية الانجليزية عن أول لقاء بين آرثر ادواردز والشـــــاه طهماسب الاول :

في أول مرة عندما دخل مع مترجمه لملاقاة الشـــاه الصفوى وقف بعيدا عن العرش الذى جلس عليه الملك وأحاط به جمع من عظماء وجنود ايران • وطلب منه الشـــاه أن يقترب من العرش ثم سأله من اى دولة جـــاء ؟ فأجاب من انجلتر • فاستفسر الشاه من العظماء الذين كانوا يقفون بجواره عن أيهم يعرف شيئا عن هذه الدولة ، وحين راى ادواردز أن أحدا منهم لايعرف شيئا عن بلده ذكر اسمها باللغة الايطالية وهو « انجلترراء وآنذاك ذكر أحـــد الحاضرين اسم مدينة لندن التي تشتهر عن غيرها من مدن انجلترا في الدول المسيحية ، فقال ادواردز للشاه أن لندن هي عاصمة انجلترا كما كانت تبريز قبل ذلك عاصمة لايران • فأخذ الشاه يسأل عن كثير من الاشياء في انجلترا وأبدى دهشته من وجود جزيرة بهذا الثراء وتلك القوة في بلاد الفرنج • وبينما كان ادواردز يتحدث عن قوة انجلترا وثروتها ورواج تجارتهـــا وقوانينهـــا وآدابها وعاداتها كان الشاه طهماسب يكرر قول « بارك الله »

---

(١) Thomas Alcock (٢) Richard Chenie

(٣) Arthur Edwards (٤) Richard Wills

متعجبا ۰ ثم سال الشاه للسفير عن السبب وراء مجيئه الى ايران ۰ وعندما رد عليه بانه جاء لعقد صفقات تجارية ۰ استفسر منه عن أنواع البضائع التى يطلبونها ۰ فقال السفير للشـــاه : « أن فى بلدكم كثيرا من التجـــار البندقيين يذهبون كل عام من ايران الى لندن والبندقية (فينيسيا) والمدن العثمانية وحلب وطرابلس والشام ويعودون الى ايران مع احمـــال من البضائع » فسأله الشاه ماهذه البضائع ؟ فأجابه ادواردز : « انها من الجوخ اللطيف الرقيق والاقمشة الصوفية وما شابه ذلك ۰ فسأله الشاه وأنت عن اى طريق تريد ان تحضر هذه البضائع الى ايران ؟ فرد عليه : « عن طريق موسكو (روسيا) لأنه أقل خطورة وأقصر من الطريق الذى يسلكه تجـــار البندقية من انجلترا ثم الدولة العثمانية فايران ۰

وقد طلب ادواردز من الشاه فى هذا اللقـــاء أن يعطى للتجار الانجليز اذنا بالتجارة فى ايران حتى يمكنهم التنقل فى كل انحاء البلاد بحرية تامة وفى امن على اروحهم واموالهم وقال أن التجـــار الانجليز سوف يقدمون للايرانيين بضائع أحسن وأرخص ۰

وقد استمر الحديث بين الشاه وادواردز نحو ساعتين حصل فى نهايتها سفير انجلترا على ما كان يريد من امتيازات تجارية من الشاه طهماسب ، وكتبت كل هذه الشروط على ورق أحمر مذهب وختمها كاتب الشاه الخاص بختمه وتوقيعه وقـال هـذا الكاتب الخاص الذى كان يدعى قـــوج خليفه للسفيران أن كتابة وختم مثل هذه الوثيقة من قبل الشاه تعد تفضلا ومنة عظيمة منه ۰ أما بقية الشروط التجارية فقد اتفق على أن تكتب فى وثيقة أخرى تسلم الى لورنس شايمان أحد أعضاء البعثة ۰

وكانت مواد الوثيقة الثانية التى تتعلق بالتجار الانجليز وسلمت الى لورنس شايمان على النحو التالى :

١ ـ للتجار الانجليز الحرية فى السفر حسب رغبتهم سواء الى جيلان أو اى مكان آخر من أملاك شـــــاه ايران ۰

٢ ـ اذا حدث وتعرضت احدى سفنهم للغرق فى بحر الخزر فان رعايا أيران سوف يهبون لمساعدة الغرقى وينقذون اموالهم وأرواحهم اذا طلبوا المســـــاعدة ۰

٣ ــ اذا توفى احد التجار فى مدينة ايرانية فان حكام ايران مكلفون بالمحافظة على أمواله • وعليهم تسليمها للتاجر الآخر الذى يطالب بها •

٤ ــ للتجار الانجليز حرية اختيار الجمالين الذين يعملون معهم ، وليس لأى من القزلباشية حق مضايقتهم ، ويصبح الجمالون مسئولين عن أموال التجارة والجمال والخيل التى تسلم لهم •

٥ ــ ليس للحمالين حق مطالبتهم الا بما هو متعارف عليه من اجر •

٦ ــ اذا شاء احد التجار أثناء سفره الاقامة فى أحد الاماكن فيمكنه الاحتفاظ ببضائعه ويسرح العاملين معه •

٧ ــ يمكن للتجار تهيئة المنازل والاطعمة اللازمة ولمرافقيهم فى أيــة مدينــة او قــرية •

٨ ــ يحق للتجار الانجليز شراء أو بناء المنازل اللازمة لعملهم ، ولايحق لاى شخص منعهم أو الاضرار بهم •

وبهذه الامتيازات التى منحها الشــاه طهماسب الاول كان يرجى أن تزدهر التجارة عن طريق روسيا الى ايران وتؤدى الى كساد ســـوق البرتغاليين مع الهند الشرقية وايران • لان التجار الانجليز كان يمكنهم المجىء الى ايران مرة واحدة على الاقل كل سنة عن طريق روسيا • أما ذهــاب للبرتغاليين عن طريق البحر من هرمز الى الهند وجنوب افريقيا الى أوربــا ثم العودة للهند وايران فلم يكن متاحا قبل عامين •

العلاقات الايرانية الانجليزية

فى عصر الشاه عباس الأول

بعد وفاة الشاه طهماسب قطعت العلاقات بين ايران والدول الاوروبية نتيجة للانقلابات والخلافات على خليفته ، وكذلك بسبب المشكلات الداخلية والخارجية المختلفة التى حدثت حتى تولية الشاه عباس ، بل وحتى السنوات الاولى من حكمه • واذا كان قد جاء الى ايران سفراء أو مبعوثون فانهم لم يحصلوا على نتيجة من وراء مهامهم فى ايران ، كما حدث فى عصر الشاه محمد خدابنده والد الشاه عباس ، اذ جاء آرثر ادواردز مع بعثة من شركة موسكو وقدم اليه رسالة من الملكة اليزابيث (٩٨٧ هـ ١٥٧٩ م) ولكنه لم يحصل على نتيجة تذكر من بعثته هذه •

بعد أن ثبت الشاه عباس أساس حكمه وانتصر على اعدائه فى الداخل والخارج وذاعت شهرته فى كل دول أوربا ازدهرت العلاقات بين ايران وأوربا مرة أخرى وجاء كثير من السياح والسفراء من كل دولة لعقد معاهدات سياسية أو اقامة علاقات تجارية مع ايران •

وصول الاخوين شيرلى الى ايران

فى السنوات الاخيرة من القرن السادس عشر الميلادى أى فى السنوات ١٠٠٧ – ١٠٠٨ هـ (١٥٩٨ – ١٥٩٩ م) وصلت الى ايران جماعة من خمسة وعشرين انجليزيا برئاسة شخص اسمه السير انطونى شيرلى وكان برفقته أخوه الاصغر روبرت شيرلى •

وقد ولد السير أنطونى شيرلى فى ويستون بانجلتر سنة ١٥٦٨ م (٩٧٥ هـ) ، وهو ينحدر من أسرة معروفة ومشهورة • وبعد أن انهى دراسته فى جامعة أكسفورد انخرط فى الجيش واشترك فى الحرب التى كانت قد نشبت بين أسبانيا وهولندا فى أواخر القرن السادس عشر واشتهر بشجاعته ، ثم التحق بخدمة كونت اسكس أحد عظماء انجلترا وقاد له حملة عسكرية على الجزر التابعة لاسبانيا فى أمريكا ، وبعد سنتين كلفه الكونت بالذهاب

الى ايطاليا لمساعدة سزار دى اسحته(١) دوق فيرارا الذى كان على خلاف مع البابا كليمنت الثامن بسبب الدوقية فى فيرارا ولكن البابا كان قد استولى على فيرارا قبل وصول انطونى شيرلى فاصبحت مهمته بلا فائدة ، فطلب منه كونت اسكس الذهاب الى ايران ليحرض الشاه عباس على محاربة الدولة العثمانية والاتحاد مع الدول المسيحية الاوربية والحصول منه على امتيازات خاصـــــة للتجـار الانجليز •

وقد كتب أحد مرافقى شيرلى واسمه جورج مانواريـنج(٢) عن الهدف من وراء مهمة شيرلى فقال :

« عندما كنا فى مدينة البندقية (فينيسيا) تعرفنا على تاجر ايرانى كان قد ارسله الشاه عباس الى هناك لشراء الجوخ الانجليزى والاقمشـة الصوفية والكتانية وما الى ذلك • وقد اشاد هذا التاجر بهيبة ملكة وجلاله مما جعل السير انطونى يتعلق بايران ، ولكنه لم يفكر فى السفر ، ولكن سائحا اسمه أنجلو كان قد وصل حديثا من ايران جاء لزيارة السير انطونى وتحدث عن عظمة شـاه ايران وشجاعته وهيبته ومحبته للاوربيين مما جعل السير انطونى يصمم على السفر الى ايـــران •

تحرك السير أنطونى يوم ١٧ شوال ١٠٠٦ هـ (٢٤ مايو ١٥٩٨ م) مع مرافقية من ميناء فينيسيا صوب الاراضى العثمانية وكان من بين مرافقية أخوه روبرت شيرلى وباول(٣) الذى حصل فيما بعد على لقب فارس من جيمس الاول ملك انجلترا وشخصان آخران أحدهما جان هوارد وجـــان بارت(٤) وأحد رجال المدفعية الذى كان يمتاز بمهارة فى صب المدافع وصنعها •

وقد غادر أنطونى شيرلى ومرافقوه السفينة فى ميناء الاسكندرونه أحد الموانى العثمانية ، وذهبوا الى حلب بعد ان تحملوا كثيرا من المشاق والمتاعب وبعد البقاء فيها بعض الوقت توجه الى بغداد عن طريق صحراء الشـام ، ومن هناك الى ايران ولما كان الشاه عباس فى قزوين فى ذلك الوقت فقد توجه الى هناك • وكتب جورج مانواريـنج يصف وصولهم الى قزوين وترتيبات استقبال الشـــاه للبعثة الانجليزية فقـــال :

---

(١) Sesard' este
(٢) Jeorge Manworing
(٣) Bawel
(٤) Jahn Howard & Jahn Parot

« على مقربة من قزوين ارسل السير انطونى اثنين من مرافقيه همـا انجلو وجـان هوارد وقبل وصوله باربعة ايام الى هناك حتى يعدا له منزلا ويعودا لاستقباله وارشاده الى المدينة واوصاهما بتكتم وصوله قدر الامكان لانه لم يكن يحمل ماينا سب من الهدايا والتشريفات، اذ كان كل شيء قد فقدمنهم بسبب طول الرحلة والسفر ، ولكنها لم يتمكنا من ذلك لأن حاكم قزوين وناظر الشـاه ارسلا اليهما شخصا يسألا نهما عن أسم وصفات السير انطونى شيرلى وسبب مجيئه ، فاضطر هذان المرافقان الى افشاء السر ولكنهما اخفيا يوم وصول الوفد مما اغضب الحاكم والناظر بل واهل المدينة لانهم جميعا كانوا يرغبون فى استقبالنا على الطريقة المتبعة فى ايران انذاك ·

دخلنا قزوين اثناء الليل ، وفى اليوم التالى جاء ناظر الشـاه مـع جمع من عظماء المدينة الى منزلنا وابدى كثيرا من الحب والعطف نحو السير انطونى، ثم وضع امامه عشرين جنيها ذهبا وقال له« ارجوأن تتقبل هـذه الهدية المتواضعة من ملكى وولى نعمتى الذي يحارب التاتار الآن لأنك قادم من سفر طويل وانت غريب فى بلدنا ومن الممكن الا تستطيع القيام بحاجتك على الوجه الاكمل ، ولما كنت اعجز من القيام بواجب الضيافة كما يجب فاننى ارجو المعذرة ··· » ثم اضاف انه سيدفع مثل هذا المبلغ كل يوم لنفقات السير انطونى اليومية وقال : « اننى اقدم هذا المبلغ من مالى ولاشك أن الشاه عندما يعود من سفره سوف يقدم ثلاثة اضعاف هذا المبلغ » ولـكن السير انطونى شيرلى امتنع عن قبول هذا المبلغ وابعده بقدمه وقال« ايها الاخ الايرانى الكريم ، أعلم اننى لم آت الى ملككم للسؤال ، ولكن شجاعته وشهرته هى التى أحضرتنى الى هنـــا واريد أن احظى برؤيته وتقبيل يديه واقـدم روحى فـداء له فى حروبه ··· » ·

اثر كلام سير انطونى فى الناظر تأثيرا شديدا حتى انه ارتد بضـع خطوات للخلف واخذ يحنى راسه بضع مرات للتعظيم وقال : « ارجو أن تصفح عنى فالآن أدركت انك أمير عظيم ··· » وبعد المجاملات المعتـــادة استأذن من السير انطونى وخرج مع رفاقه ·

بعد هذا جاء حاكم قزوين ايضا لزيارة السير انطونى وقال انه لن يتوانى عن تقديم اية خدمة وعاد بعد المجاملات المعتادة ايضا · وفى هـذه الليلة ارسلا الى سير انطونى من الهدايا ما ادى الى التعجب · ثم كانا يتنافسان

فى الاحتفاء بنا ، وبعد خمسة أو ستة أيام وكنا قد أصبحنا ذوى ملابس فاخرة وخيول ممتازه استضاف الناظر السير أنطونى ورفاقه فى القصر الملكى وقبل السير أنطونى دعوته ، وحين توجهنا الى هناك جاء الناظر مع أربعين شخصا من أعيان المدينة لاستقبالنا فى منتصف الطريق على خيولهم واستقبلونا استقبالا ملكيا • وحين وصلنا الى باب الديوان الملكى المزين بالجواهر الثمينة قال الناظر للسير انطونى : « جرت العادة على أن يقبل عتبة هذا الباب كل شخص يدخل منه وهذه العادة خاصة بالنسبة للاجانب الذين يأتون الى ايران ••• فأجابه السير أنطونى : اننى أحترم هذه العادة احتراما للشاه وحتى رأسه هو وأخوه روبرت شيرلى احتراما ولكن للجميع قبلوا عتبة باب للديوان •

كان القصر من الداخل فى غاية الجمال والجلال ، وقد علقت على الجدران أقمشة محلاة بالذهب وفرشت الارض ببسط جميلة ، ولن أصف ألوان الطعام واكتفى بالقول ان أغلبها كانت من الأرز وقد صنعوا كلا منها بلون ، كانت احدى فرق الموسيقى الملكية تعزف أثناء هذه الضيافة ، كما كان لنا فى منزلنا فرقة خاصة للعزف كما كانت هناك عشر راقصات جميلات بملابسهن الغالية يرقصن على الطريقة الايرانية طوال الضيافة • ولما آن لنا أن ننصرف ودعنا جمع من أعيان المدينة ••• » •

بعد بضعة أيام وصل رسول من بلاد التركستان يحمل أمرا من الشاه عباس كتبه بخط يده وقد قرأه أحد كبار رجال قزوين على أهل المدينة وقد حضرنا جميعا للاستماع اليه • وكان مضمونه : « يجب أن يستقبل ضيوفنا الفرنج استقبالا كاملا وأن يعد لهم مايحتاجون اليه من خيل أو خدم وغيرها • وكل من يخالف هذا الامر فانه سيعرض روحه للخطر • واذا أساء أحد الى أقل رفاقهم فان رأسه سوف تقطع لامحالة • وبمجرد أن قرئ أمر الشاه قام الحاضرون جميعا بتقبيله » •

بعد هذا كتب وصفا لمراسم وصول للشاه عباس لقزوين واستعدادت استقباله للسير أنطونى شيرلى خلاصته ما يلى :

« قبل وصول الشاه عباس الى قزوين ببضعة أيام ارسل رسولا للناظر امره كى يعطينا خيولا ممتازة لكى نخرج مع الحاكم لنستقبله على بعد أربعة فراسخ من المدينة وكانت ملابسنا على النحو التالى :

كان السير انطوني يرتدي ملابس غالية موشاة بالذهب ويعلق وسطه سيفا قيمة غمده نحو ألف جنيه وكان مزينا بالماس واللؤلؤ ، وكان يضع على راسه عمامة قيمتها نحو عشرين جنيها ، ويلبس حذاء مزينا بالياقوت واللؤلؤ ، وبعده كان اخوه روبرت شيرلي يلبس ملابس موشاة وعلى راسه عمامه فاخرة أما مترجم سير أنطوني وهو « انجلو »فكان يلبس ملابسه حريرية بيضاء وكان أربعة منا يلبسون جببا حريرية وأربعة يلبسون جببا من القطيفة الحمراء مع قمصان حريرية وأربعة اخرون جببا صوفية وقمصانا من التافتاه والاربعة الباقون يلبسون جببا صفراء مع قمصان من الحـرير الايرانى ٠

على هذا النحو اسرعنا لمقابلة شـاه ايران وكان السير انطوني واخوه يسيران جنبا الى جنب ، وكان الناظر يسير على يمينهم والحاكم على يسارهم وكان الباقون يركبون خلفهم اثنين اثنين ، وكنت انا أسير امام السير أنطوني وأحمل في يدى عصـا من الفضـة لأن السير انطوني كان قد جعلني رئيس فراشيه لأن الرجال العظام في ايران كانوا يسيرون ومعهم رؤساء فراشـيهم ٠

وما كدنا نبتعد عن المدينة نحو نصف فرسخ حتى ظهر لنـا موكب الشـاه وكان في المقدمة نحو عشرة الاف جندي مسلح ومن خلفهم جماعة من حملة الابواق الموسيقية ينفخون في أبواقهم فيبعثون أصواتا غريبة ، وبعدهم يأتي الطبالون وكانت طبولهم من الصفر(١) ومحمولة على الجمال٠ ثم ستة من حملة الاعلام واثني عشر غلاما في يد كل منهم حربة وبعد مسافة طويلة ظهر الشـاه الذى كان يسير بمفرده وفي يده حربة وفي كتفه قوس وفي وسطه سيف وخنجر ، وكان قصير القامة ولكنه قوى وقمحى اللون ٠ وبعد الشـاه كان يركب قواد الجيش وبعدهم أصحاب المناصب العسكرية واثنى عشر فارسـا ٠

وعندما اقترب منا الشاه نزل السير أنطوني وشقيقه عن فرسيهما وتقدما لتقبيل قدمه فألقى الشاه نظرة مشوبة بالغرور اليهما وتطلع الينا ودون

---

(١) الصفر هو النحاس وخاصة الاصفر منه وصانعه هو الصفار ، ومازالت هذه الطبول موجودة للان وتشاهد في بعض القرى عند الاحتفال بقدوم شهر رمضان في مصر (المترجم) ٠

ان يتكلم مع السير انطونى أمر قواده ان يجعلوا له مكانا فى المعسكر الملكى •
ثم حث فرسه وابتعد عنا ثم سار السير انطونى وأخوه مع القائد والناظر •
وبعد ساعة عاد الشاه راكضا كانت تركض خلفه ست عشرة سيدة على خيل ممتازة وعندما وصل الى السير انطونى اطلقت النسوة أصواتا خاصة جعلتنا فى حيرة (يبدو أنها زغاريد) ثم توقف الجميع وتقدم الشاه ثم قبل السير أنطونى وشقيقه وأخذ يد السير انطونى ثم اقسم ان يجعل السير انطونى كأخيه دائما وأنه منذ الآن سيخاطبه بلقب الاخ ، وتوجه الشاه صوب المدينة وقد جعل السير أنطونى عن يمينه •

تزاحم جمع غفير من الاهالى خارج قزوين ومر الشاه من بينهم ، وكانوا اثناء مروره ينحنون ويقبلون الأرض ، وقبل دخولنا المدينة كان الشاه قد أعلن فيها أن أى جندى يدخلها ستقطع رقبته فيما عدا من كان أصله من أهلها ، وكان يهدف من وراء هذا ألا يتسبب الجند فى مضايقة الناس أو ايذائهم ، ثم سمح للجنود جميعا بالعودة لاوطانهم •

حين وصلنا للمدينة عبرنا كثيرا من الازقة ودخلنا احدى العمارات الخاصة بالشاه وقد اصطحب الشاه السير انطونى الى احدى القاعات الفخمة المزينة حيث عرض السير انطونى على الشاه أسباب سفره الى ايران ، ومصاعب الطريق وسوء معاملة المسئولين العثمانيين له ولمرافقيه • وكان الشاه ينصت باهتمام الى حديثه حتى انتهى منه فقال له : « ياأخى أننى آسف كثيرا للاحداث السيئة التى حدثت لكم فى الطريق ولكننى سعيد لأنكم وصلتم بالسلامة الى بلاطى ، واقدامكم فوق اعيننا(١) ••»•

ثم أقيم مجلس طرب استمر ساعتين فى سرور وسعادة وفى نهاية المجلس طلب الشاه من السير أنطونى أن يشاهده من النافذة وهو يلعب بالصولجان، وكان أمام القصر ميدان واسع جميل كانوا قد أعدوه لسباق الخيل فذهب الشاه الى هناك وركب فرسه • وعندما ركب نفخت الابواق ودقت الطبول أيضا • وقد لعب الشاه مع أحد عشر شخصا وكان هذا اللعب بالصولجان يشبه لعبنا فى انجلترا الى حد كبير •

وقد سعد الشاه عباس الذى كان يريد دائما أن يتحد ملوك اوربا ضد السلطان العثمانى بقدوم الاخوين شيرلى واستقبلهم بحفاوة بالغة ،

---

(١) تعبير ايرانى للاعراب عن الترحيب الشديد بالضيف أو العزيز •

وبعد أن استضافهما مدة فى قزوين اصطحبهم جميعا معه عن طريق مدينة كاشان الى اصفهان التى اختيرت فى ذلك العام عاصمة لايران ، وكان يعامل الاخين بمحبة كأنهما اخويه ، وقد كتب أحد مرافقى شيرلى شرحا مفصلا عن محبة حفاوة الشاه عباس للاخين شيرلى خلاصة جزء منه هى :

« ليس فى ايران كراسى ، وكنا نجلس فى ايران على البسط ، ولما كنت لا استطيع الجلوس على ركبتى فقد جلست القرفصاء ، فذكر السفير العثمانى الذى كان حاضرا المجلس أن الانجليز عادة يجلسون على كراسى وان جلوسهم على الارض صعب عليهم ، فنهض الشاه عباس على الفـــور وانتقل الى قاعة اخرى وأمر احد العلماء باحضار منضدة من التى يضعون عليها زجاجات الشراب ، ثم أمر فوضعوا فوقها سجادة ثم أمرنى بالجلوس عليها وبعد ذلك طلب الشراب وشرب نخب سلامتى وقال أنه يفضل نعل حذاء أى مسيحى على اكبر رجل عثمانى(١) » . وفى مساء ذلك اليوم دعانا بعد تناول العشاء للتجول معه فى سوق قزوين .

فى وسط مدينة قزوين مكان يسمى البازار وهو ثلاثة أمثال سوق لندن، وكانت كل الدكاكين قد زينت وأضيئت بناء على تعليمات من الملك ، وكانوا قد أقاموا فى وسط السوق منصة كبيرة تقوم على ستة اعمدة وفرشوها بالبسط الثمينة المقصبة ووضعوا هناك كرسيا فضيا مزينا بالفيـــروز والياقوت والماس الكبير لكى يجلس عليه الشاه فأشار الملك الى انطـونى شيرلى كى يجلس على هذا الكرسى فركع انطونى شيرلى واعتذر قائلا أن الاتكاء على اماكن العظام من سوء الادب ولكن الشاه لم يقتنع واقسم براس « على المرتضى(٢) » كى يطيعه وقال ان أى ايرانى يبدى الكراهية للجلوس مكان الشاه تقطع رقبته مهما كان عزيزا ، ثم اخذ انطونى شيرلى واجلسه على الكرسى ثم أمر باحضار كرسى آخر لروبرت شيرلى . أما نحن جميعا فقد جلسنا متربعين على البسط » .

بعد هذا أحضروا موائد صغيرة للطعام بينما كانت تقرع الطبـول

---

(١) هكذا بلغ عداء الشساه عباس للاتراك العثمانيين لانهم سنة .

(٢) هو الرضا بن موسى الكاظم المدفون مع الخليفة هارون الرشيد فى قصر حميد بن قحطبه الطائى فى ضواحى مدينة طوس القديمة والذى تحول قبره الى مزار من أكبر مزارات الشيعه صارت مدينة مشهد اليوم (المترجـــم)

والدفوف ، وبعد ذلك دخلت المطربات الى المجلس وكن عشرين أمراة يلبسن ملابس غالية جميلة ، وكن يغنين وهن يرقصن على انغام الموسيقى ، وبعد ان انتهى هذا الحفل اخذ الشاه يد السير انطونى شيرلى وأخذا يسيران يدا في يد في السوق والازقة بينما الراقصات تتقدمهما وهن يرقصن ويغنين ...

استقبلنا الشاه عباس على هذا النحو لمدة ثمانية أيام ، وبعد ذلك أرسل الى السير انطونى شيرلى ثلاث سرادقات كبيرة مع كل لوازمها واثنى عشر جملا وستة عشر بغلا كلها بسروج قيمة وأربع قطع من السجاد الحريرى الفاخر والمحلى بالذهب وست قطع من السجاد الصوف الخالص مع بسط جميلة اخرى وأربعة عشر حصانا كريما بالسروج والآلة الثمينة من بينها سرجين وآلتين للحصانين الخاصين بالاخوين شيرلى مطعمين بالذهب ومزينين بالفيروز والياقوت وسرجين آخرين محليين بالذهب والباقى من القطيفة الفاخرة البيضاء مع كمية كبيرة من النقود الفضية وطلب من السير انطونى شيرلى أن يقبل هذا المبلغ البسيط لنفقات شهر واحد ...» .

على هذا النحو اصطحب الشاه عباس السير انطونى شيرلى ومرافقيه الى اصفهان ثم صحبه عند وصولهم الى اصفهان حتى المنزل الذى اختير لاقامته فى تلك المدينة ، وفى اليوم التالى استبدل ملابسه وذهب الى منزل السير انطونى وقدم اليه العزاء فى أحد خدمه الايرانيين والذى كان قد قتل خطأ بيده أثناء معاقبة جماعة من الجنود .

كان للشاه عباس قد منح انطونى شيرلى امير « ميرزا » وكان يخاطبه بلقب ميرزا انطونيو وقد استطاع ميرزا انطونيو خلال الستة اشهر التى اقامها فى اصفهان – كما سبق أن ذكرنا – أن يجعل الشاه يعتقد فى صدقه واخلاصه كما استطاع أن يعلم مجموعة من الجنود الايرانيين فنون الحرب الحديثة كما كانت آنذاك فى الدول الأوربية باستخدام الاسلحة النارية (١)

---

(١) كتب صامويل بيرشاس Samuel Purchas القس الانجليزى الذى سافر للشرق فيما بين ١٦١٣ ، ١٦٢٦ م (١٠٢٢ – ١٠٣٧ هـ) فى كتاب رحلته يقول : « الدولة العثمانية التى كانت باعث رعب وفزع للعالم المسيحى أصبحت الآن فى رعب وخوف على مستقبلها من رجل انجليزى (السير انطونى شيرلى) فقد تعلم الايرانيون فنون الحرب من شيرلى ، وبينما لم يكن لديهم علم عن استخدام المدافع أصبح لديهم الآن خمسمائة عربة مدفع برونزى وستون ألف بندقية ، ولهذا فان الايرانيين كانوا حتى الآن مبعث قلق العثمانيين وخوفهم وهم بالسيوف القوا الرعب والفزع فى قلوبهم الآن بقذائف المدافع » .

وذلك بمساعدة الله وردى خان قائد جيش ايران وكان مسيحيا جسديد الاســــــلام ٠

وبعد هذا ــ وكما سبق أن ذكرنا فى الفصل الخاص بعلاقة الشــاه عباس بالبرتغال واسبانيا ــ فقد اقترح على الشاه عباس أن يرسل سفيرا الى بلاط ملوك أوربا ليتحد معهم ضد الدولة العثمانية ٠ وقد اختار الشاه عباس أحد قواده وهو حسين على بك بيات كسفير وتطوع السير انطونى لمرافقته الى أوربا وترك أخاه مع بعض المرافقين فى ايران ٠

وقد سافر انطونى شيرلى مع حسين على بيات الى أوربا عن طريق بحر الخزر وروسيا ٠ ولم يعد الى ايران بعد هذا ، وقد فصلنا أخبـــــار سفارته الى المانيا وايطاليا واسبانيا فى الفصل السابق ٠

سيرة روبرت شيرلى

سبق أن أشرنا الى أن السير انطونى شيرلى عندما كلف بالسفارة الى أوربا من قبل الشاه عباس ترك أخاه روبرت شيرلى فى ايران ، وكان روبرت شيرلي آنذاك فى الثامنة عشرة من عمره شابا مؤدبا محبا للعلم غنيا الى جانب الشجاعة وحسن السيرة والجمال والقامة الفارعة ، ولم يكن يطلق لحيته أبدا • كما كان قد أتم دراسته فى دار الفنون باكسفورد ، كما كان يدين بالمذهب الكاثوليكي على عكس مواطنيه ، وقد اختاره الشاه عباس تابعا خاصا له ومنحه لقب بك وجعل له الفى أشرق كراتب سنوى ، وفى بداية خدمته اختاره لقيادة مجموعة من الجيش الايرانى ، وحين دخل فى الحرب مع الحكومة العثمانية ارسله لميدان القتال •



وكان روبرت شيرلي يرتدى الملابس الايرانية دائما ويضع على رأسه عمامة القزلباشية ولأنه كان مسيحيا فقد كان يضع عليها صليبا صغيرا كما كان قد ثقب أحدى أذنيه وعلق فيها حلقا به ماسة كبيرة تتلألأ •



أحد القزلباشية صورة محفورة على النحاس سنة ١٥٨١ (٩٨٩ هـ

وقد كتب أخوه السير انطونى عن سبب بقائه فى ايران فقال : « قبل ان أرد على عطف الشاه وتفضله على ، فان أخى الذى كان فكره يتجه للاعمال العظيمة يريد الاقامة فى ايران · ولم يكن أخى من الذين اذا وصلوا الى الشهره والمنصب انصرفوا عن كسب العلم واختار الكسل والهو واللعب ، بل كان منذ طفولته يجتهد فى كسب العلم والمعرفة والكمال ، ويسعى الى اظهار تفوقه فى معدنه الطيب ويقوى طبيعته البشرية فى مواجهة الاحداث والمصاعب ··· ولم يكن يخشى أبدا من أى خطر قد يواجهه » ·

ولما كان للشاه عباس يريد أن يبقى أخى فى أيران اثناء غيابى عنها ، فقد قال اننا نحن الاثنين تجمع بيننا الوحدة بحيث لايوجد أى فرق فى آرائنا وأفكارنا ونحن متشابهان فى علاقتنا بصاحب الجلالة وميلنا لخدمته · ومع أن وعود البذل والعطاء من المخدوم لخادمه مما يبعث على السرور وتجعل اطاعة الاوامر الملكية لازمة بل واجبة ، ولكننا بسبب ايماننا واعتقادنا فى آراء وعقائد الشاه فان كل مايراه ويطلبه منا نعده خيرا للدولة وصلاحا لانفسنا ونعد طاعته واجبة علينا ··· والآن وقد أمرتم جلالتكم أن يبقى أحدنا فى ايران فاننى أطيع هذا الامر بكل الترحيب ، بل ان هذا الأمر يمكن أن يعد باعثا على زيادة محبة الشاه لنا ·

ويبدو ان السبب الاصلي لرغبة روبرت شيرلى فى البقاء فى ايران كان هيامه الشديد باحدى الفتيات فى الحرم الملكى · وكانت بنت أحد الامراء الشركس الذى أسلم حوالى عام ١٠٠٢ هـ وتسمى باسماعيل خان وتزوج الشـــاه عباس من أخته · فلما دخلت هذه السيدة الى الحرم الملكى أخذت معها ابنة أخيها وكان اسمها « سامبسونيا(١)» واهتمت بتربيتها فلمـــا بلغت سامبسونيا سن الرشد أصبحت فتاة جميلة فاتنة وتفوقت على اقرانها فى ركوب الخيل والتطريز والرسم فجمعت الفن الى الجمال وأصبحت قبلة العشاق ومطمع الامراء ونظرا لان روبرت شيرلى كان نديما للشـــــاه عباس يصاحبه فى حضره وسفره ، فقد وقع فى حب هذه الفتاة وعـــاش سنوات يطمع فى وصالها حتى تزوجها فى النهاية باذن الشاه عباس ·

---

(١) Sampsonia

بناء على ماسبق فان روبرت شيرلى بقى فى ايران مع خمســـة من المرافقين الانجليز بعد سفر شقيقه السير انطونى الى أوربا ، ولما كان شابا ذا ارادة حسن السيرة جميل الطلعة فقد ازدادت محبة الشاه عباس له ، وكانت أول مهمة كلفه بها الشاه عباس هى تعيينه قائدا لجمـــاعة من القزلباشية وارساله لحرب العثمانيين • وقد بذل روبرت فى هذه المهمة كل الاخلاص والشجاعة وجرح ثلاث مرات فى المعارك التى خاضها الشـــاه عباس مـع الاتراك العثمانيين فى عامى ١٠١٣ ، ١٠١٤ هـ وننقل هنا خلاصة ماجاء فى نسخة خطية من كتاب « الاخوان شيرلى » عن تفصيل اشتراكه فى الحروب الايرانية العثمانية :

« بعد سفر انطونى شيرلى اختير أخوه روبرت لمنصب قيادى ، ونال فى الحرب الايرانية العثمانية رتبا عالية • وقد أبدى من الشجاعة والاقدام ماجعل الايرانيين يمنحونه تاج القزلباشية تذكارا لانتصاراته • فيوم واجه الاتراك أخذ حربه فى يده وهجم على الاتراك هجوما جعلهم يدهشون من شجاعته ويلوذون بالفرار وقد اقتدى به جنوده وأخذوا فى قتل اعدائهم بسيوفهم ، وقد أبقى روبرت شيرلى وحده على حياة ثلاثين من قادة الجيش العثمانى وحملهم الى حضره الشاه ثم كتب (رســـالة) الى المسئولين العثمانيين قائلا « ان أطلقتم سراح أخى السير توماس شيرلى فاننى سأطلق فى مقابله سراح أسراكم الثلاثين ولكن الاتراك لم يقبلوا طلبه وردوا عليــه ردا جافا • ومع أن روبرت شيرلى كان يعلم مدى تعب جنوده وأن للحرب الاخيره قد أنهكتهم الا أنه لم يخف أو يتردد وأمر جنوده فقطعوا رؤس أسراه الثلاثين الذين كانوا جميعا من قادة الجيش العثمانى وأمرهم فجعلوها على أسنة الرماح وطافوا بها فى الاسواق ، ثم أقسم اما أن يفنى عدوه أو يكون جثة فى ميدان القتـــال » •

ثم أخذ فى ترتيب الجيش ، وحينما شعر أن الخوف يستولى على جنده لكثرة عدد جيش اعدائه توجه اليهم قائلا : « أيها الجنود الشجعان الايرانيين اننى أعرف أنه لا حاجة للخطب الطويلة لاثارة حميتكم وتشجيعكم فمثل هذا

مثل من يسكب الزيت على النار أو يهمز الفرس الجامحة المتحفزة فان ثباتكم وشجاعتكم فى المعارك السابقة خاصة فى الحرب الاخيرة قد اثبتت لى أن عدد الاعداء حتى ولو كان أضعاف عددهم الآن فان النصر سيكون لنـــا وحميتى تقتضى أن تتقدمكم فى هجوم اليوم وسأقاتل حتى آخر نفس وأجاهد طالمـا لم يحل الموت بينى وبين اداء الواجب فاجعلونى قدوة لكم فى التضحية واتبعونى فى جراة واطمئنوا أن النصر لنـــا » ٠

ثم أسدل نقاب خوذته وهمز فرسه وهجم على العدو بعنف وغضب وأسرع الجنود الايرانيون خلفه وكانوا فى عجب من شجاعته اذ كان يهاجم فى كل اتجاه وصوب كالاسد الجسور فيقتل كل من يراه من الأعداء ، ففر الاتراك خوفا من شجاعته وجراته وبعضهم ترك سلاحه وسلم ، وفى هـذه الحملة اسر ستين من قادة الجيش العثمانى ايضا ، فكتب رسالة اخرى لقائد الجيش التركى لانقاذ اخيه لديهم فى مقابلهم ٠

وكانت شجاعة روبرت شيرلى واخلاصه سببا فى أن منحه الشاه عباس تاج القزلباشية ــ كما سبق أن ذكرنا ــ كما سمح له أن يرتدى الملابس الايرانية ، ثم أذن له فيما بعد أن يتزوج من سامبسونيا ــ بنت أحد كبار الشركس واسمه اسماعيل خان ــ وفى أحد الأوامر التى صدرت باسم وختم الشاه اشير الى روبرت على انه « قد أدى مايكفيه فخرا حتى اخر العمر » ٠

وكتب بيترو دلا فاليه السائح الايطالى ــ الذى جاء الى ايران سنة ١٠٢٥ هـ وبقى فيها خمس سنوات ــ يقول فى هذا الصدد : « كان الشـــاه عباس أحيانا يعطى درجة القزلباشية الى الاجانب الذين كان ينظر اليهم بعين العطف والرعاية ، وكان يشرفهم باعطاء تاج القزلباشية ، ولكن هذه المكرمة كانت نادرة الوقوع ، وقد علمت من أحد الثقات الذى قضى فى أيران خمسة عشر عاما انه لم يشرف أحدا بهذا الفخر الا لواحد فقط وليس لهذا الامر مراسم أو تشريفات خاصة سوى أن يضع الشاه التاج على رأسه مع بعض كلمات المحبة والعطف ٠

ولم يحظ بتاج القزلباشية من الاوربيين الا روبرت شيرلى الانجليزى الذى ارسل منذ بضع سنوات فى سفارة الى ايطاليا مبعوثا من قبل الشـــاه

وذهب الى بلاط البابا وهو الآن يقوم بهذه المهمة لدى باقى ملوك أوربا ، وقد سمعت أن هذا الانجليزى هو الذى طلب تاج القزلباشة من الشاه وأصر على هذا كثيرا ويقولون أن روبرت شيرلى وضع على طرف عمامته الحمراء صليبا صغيرا • كى لا يعرض نفسه لسب الاوربيين ولومهم •

بعد أن ظل روبرت شيرلى فى ايران مدة عشر سنوات صمم على العودة الى وطنه لان اخاه انطونى لم يعد لايران ، ولكن هذا الامر كان غير ممكن دون موافقة الشاه عباس واذنه ، كما أن حبه لسامبسونيا ابنة الشركسى المسلم كان يؤرق مضجعه ، ولهذا أوعز الى أحد أقاربه فى انجلترا أن يبعث له برسالة يقول له فيها أن أخاه انطونى قد عين قائدا لاحدى الفرق الاسبانية من قبل الملك فيليب الثالث ، وعندما وصلت هذه الرسالة الى أصفهان طلب من القسس الكرمليين هناك أن يصدقوا على هذه الرسالة ، ثم عرضها على الشـاه عباس ، وقال له طالما كان أخى قد وصل الى هذا المنصب الرفيع والى صداقة ملوك أوربا فان على الشـاه عباس أن يرسل سفيرا جديدا الى أوربا حتى يثير ملوك أوربا ضد العثمانيين بمساعدة السير انطونى شيرلى ثم تطوع لكى يقوم بهذه المهمة بنفسه •

وقد وافق الشاه عباس على اقتراحه نظرا لما كان قد قدمه من خدمات فى الحروب الايرانية العثمانية ، كما سـمح له بالزواج من حبيبتـه سامبسونيا(١) وأخـذها معه الى اوربا •

وقد تم زواج روبرت شيرلى وسامبسونيا يوم ١٥ شوال سنة ١٠١٦هـ (فبراير ١٦٠٨م) وغيرت الفتاة الشركسية الحسناء التى كانت قد عمدت على يد راهبات جماعة الكرمليين المسيحية اسمها الى تريزا تيمنا باسم القديسة تريزا احدى مصلحات وراهبات هذه الجمـاعة •

وقد توجه روبرت شيرلى ــ كما ذكرنا فى الفصل السابق ــ فى يوم ٢٤ شوال ١٠١٦ هـ ــ اى بعد تسعة ايام من زفافه ــ مع بعض الايرانيين فى سفارة الى أوربا عن طريق بحر الخزر وروسيا ، وكان هذا الانجليزى اثناء اقامته فى ايران قد استطاع أن يكتسب صداقة الشـاه عباس وجماعة من

---

(١) Sampsonia

أعيان وزعماء ايران • الا انه كان يوجد كثير من الاعداء بين رجال الدين والمتعصبين الايرانيين ، ولهذا السبب هاجمت جماعة من أعدائه قافلته أثناء سفره وبعد ان استولت على اسلحة مرافقيه ربطوه الى شـــجرة ، وكانوا على وشك اعطائه السم ولكن فى هذه الاثناء سقط سيف أحد قطاع الطريق ، واستطاعت تريزا زوجة روبرت شيرلى ان تلتقط السيف بمهارة وهاجمت اللصوص بشجاعة وقتلت احدهم وانقذت زوجها من القيد وواصلت القافلة السير •

أول سفارة لروبرت شيرلي في انجلترا

بعد سفر طويل لروبرت شيرلي فى روسيا وبولندا والمانيا وايطاليا واسبانيا ، والقيام بمهمته فى بلاط البابا وملوك الدول المذكورة ، صمم على الذهاب من اسبانيا الى انجلترا وتقديم مقترحاته - فيما يتعلق بتجارة ايران وانجلترا - الى ملكها جيمس الاول .

يتضح من الرسالة التى كتبها كانينجتون - سفير انجلترا فى اسبانيا بتاريخ ١٨ شوال ١٠١٩ هـ (٥ يناير ١٦١١ م) الى اللوردسالزبورى وزير خارجية الملك جيمس الاول ، أن روبرت شيرلى كان غير مرتاح من سلوك ملك انجلترا تجاهه . فلن يستقبله الملك بالتشريفات والمراسم التى يستقبل بها السفراء الاجانب . ومن هنا فانه سيصبحت مذنبا ومسئولا أمام شاه ايران، كما أن روبرت شيرلى اعتقد ان بلاط أسبانيا يعارض ذهابه الى انجلترا ، وكان يريد أن يعرف ماذا سيفعل ملك انجلترا للحصول له على اذن بمغادرة أسبانيا ، ولهذا فقد اطلع السفير الانجليزى على موجز للموضوعات التى كان يريد ابلاغها باسم الشاه عباس الى ملك انجلترا . وبناء على مقترحاته فان الشاه عباس كان مستعدا لعقد اتفاقية صداقة مع انجلترا ، ويمنح رعاياها تسهيلات تجارية فى ايران ويسمح للتجار الانجليز بتأسيس مراكز تجارية فى ميناءين من موانى جنوب ايران . ويكون لانجلترا فى هذين الميناءين مندوبون سياسيون ، ويصبح المسئولون فى شركة الهند الشرقية الانجليزية احرارا فى المسائل التجارية فى هذين الميناءين حرية تامة . كما كان الشاه عباس يريد شراء بعض السفن من انجلترا وكان يرغب فى أن تحمل أجزاء هذه السفن على السفن الانجليزية الى موانى جنوب ايران على الخليج حيث يجرى تجميعها وتكميلها ويدفع ثمنا مجزيا لهـــا .

كما أن شاه ايران كان على استعداد لان يصدر الحرير الايرانى على السفن الانجليزية فقط وبواسطة التجار الانجليز عن طريق الخليج الفارسى وجنوب افريقيا الى انجلترا وباقى دول أوربا بشروط عادلة بعد أن كان أغلبه يصدر الى أوربا عن طريق الاراضى العثمانية ، وأن يستورد بدلا منه بضائع أنجليزية عن نفس الطريق الى موانى الخليج حيث تحمل بعد ذلك

الى داخل ايران وبهذا يصل الحرير وباقى البضائع الايرانية والشرقية الى اوربا بثمن أقل • ولكى يحرم التجار وعمال الدول العثمانية من المكاسب الوفيرة التى كانوا يحصلون عليها من هذا الطريق • كما أن الشاه عباس كان أيضا على استعداد لعقد معاهدة عسكرية مع ملك انجلترا وأن يمده فى أى وقت يشاء بما يتراوح بين عشرين وخمسة وعشرين الف جندى • ويبدو أن هدف الشاه عباس من وراء الاقتراح الاخير هو تهيئة الجو لاتحاد انجلترا وايران ضد البرتغاليين والاسبان فى سواحل الخليج وخاصة فى جزيرة هرمز •

ويتضح من هذا أن الهدف الرئيسى من وراء ذهاب شيرلى الى انجلترا هو عقد معاهده تجارية مع الملك جيمس الاول بناء على اوامر الشاه عباس لكى ينشىء طريقا جديدا لتصدير الحرير ومختلف البضائع الايرانية الى اوربا حتى لايضطر التجار الايرانيين الى تصدير بضائعهم عن طريق الاراضى العثمانية ، وبهذا يحرم السلطان العثمانى من الجمارك والرسوم التى كان يحصلها على البضائع الايرانية •

بقى روبرت شيرلى معطلا فى اسبانيا مدة طويلة بسبب المشاكل والموانع المختلفة التى واجهته ـ كما سبق أن اشرنا ـ وفى ربيع الثانى سنة ١٠٢٠ هـ (يونيو ١٦١١م) توجه بالسفينة الى انجلترا • وبعد رحلة استغرقت شهرين مع زوجته تريزا اتيح له أن يرى بيت ابائه فى انجلترا، وفى يوم ٢٣ رجب من نفس العام (أول أكتوبر ١٦١١ م) استقبله ملك انجلترا فى قصر « هامبتون كورت » واطلع على خطابات الاعتماد وتسلم روبرت شيرلى اليه رسائل الشاه عباس ، وقد جاء فى احدى رسائل الشاه عباس المؤرخة فى ١٩ رمضان ١٠١٩ هـ بعد المجاملات الملكية « انه لما كان بعض كبار حكام اوربا قد ارسلوا الينا بعض القسس ورجال الدين لعقد معاهدات واقامة علاقات صداقة أخوية معنا ، لهذا رأينا ان نرسل روبرت شيرلى الانجليزى الذى أمضى سنوات فى خدمتنا ، كما انه رجل لائق وعزيز ومورد اعتماد وثقه لدينا كسفير الى الملوك المسيحيين بدلا من ارسال احد رعايانا • وبما أنه منا ومنكم أيضا فقد أرسلناه اليكم والى جميع الملوك المسيحيين » •

واشار بعد هذا الى أن مبعوثى ملوك أوربا كانوا قد اقترحوا عليه أن الامبراطورية العثمانية يجب أن تهاجم من الجانبين حتى يقضى عليها تماما ، وانه قد وافق على هذا الاقتراح وكتب اليهم أن يهاجموا الاراضى العثمانية باسرع ما يمكن من جهة الشام وحلب او اية ناحية أخرى يرونها مناسبة • حتى يقوم هو بدوره بالهجوم عليها من ناحية ديار بكر والولايات الغربية الايرانية كما كان قد فعل هذا عدة مرات فى ذلك الوقت •

أما فيما يتعلق بروبرت شيرلى فقد كتب الشاه عباس الى ملك انجلترا ان روبرت قد خدمة عدة سنوات فى غاية الاخلاص والصدق وانه موضع ثقته ورضاه ، وهو يتوقع الا يتوانى الملك عن رعايته وبذل المؤنة له كما طلب ايضا ان تتبادل الدولتان السفراء المقيمين حتى تقف الدولتان على رغباتها وأحوالها عن طريقهما •

وبعد اثنى عشر يوما كلف أربعة من التجار الانجليز المتعاونين مع شركة الهند الشرقية بالنظر فى مقترحات شيرلى وبحثها ، وقد كتب أحدهم فى الرسالة التى بعث بها الى السير ددلى كارلتون(١) ـ أحد رجال البلاط الانجليزى ـ يعرض وجهة نظره فقال : « أن مقترحات روبرت شيرلى تبدو غير قابلة للتنفيذ نظرا لطول الطريق كما أن العلاقات التجارية الايرانية الانجليزية تافهة ، كما أن قبول مقترحاته ستؤدى الى قطع العلاقات التجارية الانجليزية مع العثمانيين •

وقد عارض التجار الانجليز الذين كانت لهم علاقات تجارية مع العثمانين مقترحات شيرلى وحالوا بينه وبين تحقيق مساعيه ، ومع كل هذا فان جيمس الاول أبدى استعداده لعقد معاهدات صداقة وتجارة مع ايران يلتزم بها ويلتزم بها من يخلفه ، كما انعم على روبرت شيرلى برتبة فارس فى البلاط ، ولهذا اصبح لقبه منذ ذلك الحين السير روبرت شيرلى •

بعد اقامة السير روبرت شيرلى فى انجلترا لمدة عام ونصف غادرها متوجها لايران وقد أمر جيمس الاول احدى السفن الانجليزية كان اسم مالكها هنرى ثاين(٢) وقائدها الربان نيوبورت بحمله هو وزوجته ومرافقيه

---

(١) Sir Dudley Carleton (٢) Henry Thynne

عن طريق أفريقيا الى الهند وقد أبدى مالك السفينة استعداده لنقل السفير الايراني ومرافقيه الذين لم يكن عددهم يتجاوز ٢٥ شخصا الى الخليج والبقاء فى ايران ثمانية أشهر حتى يعد شيرلى فى هذه المدة البضائع التى تكفى حمولة هذه السفينة وهى نحو مائة طن من الحرير الخام والقطن والمنسوجات المختلفة والسجاد والنيلة ويعفيها من جميع الجمارك والرسوم . وبناء على الاتفاق الذى عقد بين هنرى شاين وروبرت شيرلى ، فان ثلثى ارباح هذه الصفقة يكون لمالك السفينة وثلثه لروبرت شيرلى ، كما ان السفير الايرانى كان قد تعهد بأن يحصل من الشـاه عباس على منحـة للعاملين على السفينة .

وقد منح جيمس الاول مبلغ خمسمائة جنيه الى شيرلى لنفقات بقية الطريق من الهند الى ايران ، وأعطاه رسالة للشاه عباس . وقد وصل السفير الايرانى وزوجته(١) ومرافقوه الى ميناء دوفر فى ذى القعدة سنة ١٠٢١ (يناير ١٦١٣ م) وركب الوفد السفينة متوجهين الى ايـران ، ووصل فى أواخر سنة ١٠٢٣ هـ الى ساحل ولاية السند فى الهند وذهب الى مدينة تهته وقد حرض البرتغاليون الذين كانوا غير راضين عن سفارته ، جماعة من الناس هناك فضربوا منزله بالمدافع وأزالوه من مكانه ، ولكن شيرلى ورفاقه صمدوا للهجوم الذى قتل فيه اثنان من مرافقيه . ولما كان شيرلى مكلفا من الشاه عباس بالذهاب الى بلاط نور الدين محمد جهانجير الملك الجوركانى لهذا فقد غادر تهته وتوجه الى أجره ، وبعد الانتهاء من مهمته عاد الى ايران حاملا هدايا الملك جهانجير التى كان من بينها زوج من الافيال . فوصل الى اصفهان فى شهر جمادى الاول سنة ١٠٢٤ هـ .

---

(١) كانت تريزا قد انجبت ولدا أثناء اقامتها فى انجلترا أسموه هنرى ، وقد تركاه هناك عند عودتهما الى ايران .

رســالة ملك انجلترا الى الشــاه عباس

« بعد واجب الدعــاء ، فانه ربما اتضح لجلالتكم أننا تعجبنا من أن ملكا عظيما مثلكم يرسل الينا رسولا هو فى الاصل تابع لنــا كما أنه خادم لـكم ٠٠٠ ولمــا كان البك الاعظم (شيرلى) قد جاء سفيرا من قبلكم الى عرش ملوك أوربا والينا ، فقد استبقيناه لدينا بعض الوقت ٠ ولمــا كان المذكور من أبناء هذه البلاد ومن أبناء العظماء ، فقد قدمنا له كل الاحترام والاعزاز وذلك لما بيننا وبينكم من وحدة وصداقة ، بالنسبة للخــدمات التى قدمها جلالتكم للبك فاننــا سوف نردها أضعافا مضاعفة وهنــاك موضوعات لم نستطع ذكرها فى هذا الرسالة سوف يعرضها عليكم شفاها ونحن نتوقع الا تزول محبتنا من ذاكرتكم كما نبذل الروح فى سبيل صداقتكم ونحن نرجو حين يذهب أتباعنا الى بلادكم الاتحرموهم من عزتكم وحمايتكم والله يعلم أن البك (شيرلى) قد قام بسفارته لدى ملوك أوربا على النحو لايتسع المجال فى هذه الرسالة لذكره ، وأنا ادعو لكم ليل نهار بالنصر والفتح دائما وأن يزول عدوكم ويفنى وينهزم الروم (الاتراك) الشوم ونرجو ان ينفذ كل أمر قد تطلبونه منا ولانطيل عليكم ولتدم أيام المحبة ٠ (١)»

عندما عاد السير روبرت شيرلى الى أصفهان بعد ما يقرب من ثمانى سنوات قضاها بعيدا عن ايران استقبله الشاه عباس بكثير من اللطف والمحبة ، وهيأ له فى الليلة الاولى لوصوله مكانا فى المخدع الملكى وكــان شيرلى بعد هذه الرحلة يريد البقاء فى اصفهان ولايغادر ايران ولكن الشاه بعد فترة قصيرة طلب منه العودة الى أوربا فى سفارة جديدة ، وعلى الرغم من الامتناع عن قبول هذا الامر متذرعا بعدم استعداده وزوجته لهذا السفر الطويل مرة ثانية الا أن شــاه أصر على أمره ٠

أشرنــا فيما سبق الى أن الشــاه عباس كان فى ذلك الوقت قد استولى على جزر البحرين وكيش وميناء جمبرون من البرتغاليين ، وكان يفكر فى الاستيلاء على هرمز أيضا من ناحية أخرى كان فيليب الثالث ملك اسبانيا

---

(١) مجموعة رسائل الشاه عباس بالمكتبة الوطنية بنابولى ٠

قد طلب من الشــاه عباس أن يغض بصره عما كان قد استولى عليه في الخليج وسواحل ايران ، فأراد الشاه عباس أن يرسل روبرت شيرلي الى أوربا آملا في أن يقوم فيليب الثالث بمحاربة الدولة العثمانية وفي اقســامة اتحــــاد مع البــابا والملوك المسيحيين ٠

رضخ روبرت شيرلي في النهاية لقبول هذه السفارة ، وحينما وصل هذا الخبر للشــاه عباس بلغ به الفرح والسرور أن اقسم على رأسه أن أي شيء يطلبه منه شيرلي سيلبيه له في الحال ، فرجاه روبرت شيرلي أن يرسل معه أحــد القسس الكرمليين اسمه رديمتو دلا كروز كان يعيش مع القس جان تاديه في أصفهان ، وقد وافق الشاه عباس على طلبه وأصدر أمرا خاصا في هذا الشأن ننقله عينا هنا ٠ وقد توجه روبرت شيرلي مرة ثانية الى أوربا آملا في أن يقوم فيليب الثالث بمحاربة الدولة العثمانية وفي اقســامة فيما بعــــد ٠

أمـــر الشــــاه عبــــاس
بخصوص ارسال القس رديمتو دلا كروز
مرافقـــا للسير روبرت شيرلي الى أوربا
الملــك للـــــــه

صــــدر الامر الهمــــايوني

لمــا كان الابوان الكبيران عميدا الزهاد(١) المسيحية الاب جـــــون والأب رديمتو قد جاءا من بلاد الفرنج لخدمتنا وأقاما في هذه الديار وفي هذا الوقت الذي أرسلنا فيه صاحب العزة البك الاعظم الدون روبرت شيرلي كسفير ورسول الى بلاد الفرنج وخدمة ملوك للفرنج العظام وقررنا أن الاب المعظيم جوان (تاديه) يرسل رفيقه الاب رديمتو بدواعي الثقة مع البك المذكور الى حضرة ملوك أوربا ويبلغا رسائل من قبلنا وقد كان هنـــاك قبل هذا في خدمتنا وقام المشار اليه بارسال الاب ديمتو مع البك المذكور حسب امرنا وابقينا هنا الأب جوان فيجب على الاب المذكور حينما يصل الى أي مكان وأية ولاية من مملكتنا ان يقدم له الحـــكام والمسئولون عن الأمن وجميع الناس كل الترحيب وكمال الاحترام ، وألا يمنعوه من اى مكان وقد أعلموا حتى يتجنبوا التقصير ٠ تحريرا فيشهر رمضان المبارك ١٠٢٤هـ

---

(١) يقصــد الرهبـــان ٠

بداية العلاقات السياسية والتجارية الايرانية مع شركة الهند الشرقية

بداية تاسيس شركة الهند الشرقية الانجليزية :

بعد ان وصل البرتغاليون الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح واقاموا هناك مراكز تجارية لهم ، صمم التجار الانجليز على الوصول الى الهند حتى لايحرموا من أرباح التجارة مع هذه البلاد التى تدر الذهب ٠

وقد حاول البحارة الانجليز فى البداية الوصول الى الهند عن طريق الممر الشمالى الغربى — أى طريق شمال أمريكا الشمالية — فلما لهم يصلوا عن طريقة الى هدفهم حاولوا الوصول عن طريق روسيا ، وكان من بين هـــذه المحاولات رحلات انطونى جينكينسين الذى تحدثنا عنه قبل هذا ، والتى كانت تهدف لنفس الغرض ٠

كان أول من سافر الى الهند لايجاد علاقات تجارية شـاب اســـمه توماس ستيفينس(١) من طلبة كلية اكسفورد سافر سنة ٩٨٧ هـ (١٥٧٩م) الى ميناء جوا واصبح رئيس مدرسة اليسوعيين(٢) هناك ، وارسل هذا الشاب رسالة الى ابيه كان انتشارها بين التجار الانجليز سببا فى ايجاد رغبة شديدة لاقامة تجارية مباشرة مع الهنـد ٠

وفى سنة ٩٩٥ هـ (١٥٨٧ م) وقعت أحدى السفن البرتغالية واسمها سان فيليب أسيرة فى يد البحار الانجليزى الشهير فرانسيس دريك ، وقد استطاع التجار الانجليز الحصول على معلومات اكثر وأدق عن التجــــارة الهندية وذلك من الوثائق والمستندات التى وقعت فى ايديهم من السفينة فزادت هذه المعلومات رغبتهم فى اقامة الروابط التجارية المباشرة مع الهند ٠

---

(١) Thomas

(٢) اليسوعيين أو الجزويت Les Jesuites أو جمعية عيسى Campagnie de Tesus اسسها أحد القديسين المسيحيين اسمه سان ايغناس دى ليولا San Ignace de Loyola سنة ٩٤٢ هـ للتبشير للمسيحية ، ومن بين المبادىء الدينية لهذه الجماعة الطاعة التامة للبابا ٠

وبعد ذلك أيضا وعندما حطم الاسطول الانجليزى اسطول فيليب الثانى ملك اسبانيا ، الذى لايهزم ، سنة ١٥٨٨ م اطمأن الانجليز الى قوتهم البحرية ، وادركوا أن مقاومة القوات البحرية الاسبانية البرتغالية أمر غير محال ، ولهذا رأى تجار لندن ان يقللوا من نفوذ البرتغاليين وقدرتهم فى المحيط الهندى حتى المقدور ويحصلوا على نصيب من تجارة الهند المربحة ٠

وقبل المعركة البحرية بين الانجليز والاسبان بخمس سنوات - أى فى سنة ٩٩١ هـ - (١٥٨٣ م) كان أربعة من السياح الانجليز هم رالف فيتش ووليام ديدز وجان نيوبرى وجيمس ستورى(١) قد كلفوا بدراسة الاوضاع الاقتصادية والتجارية لدول المشرق ، وقد حملوا معهم رسائل من الملكة اليزابيث الى ملوك الهند وامبراطور الصين ٠

وقد سافر هؤلاء السياح من طرابلس الى بغداد والبصرة والخليج ثم جزيرة هرمز ، وهناك اعتقلهم البرتغاليون بتهمة التجسس وارسلوهم الى ميناء جوا(٢) - مركزهم التجارى فى الهند - والقوهم فى السجن ، ولكنهم تمكنوا من الهرب سنة ٩٩٣ هـ (١٥٨٥ م) ٠

وقد تمكن رالف فيتش وحده من العودة الى انجلترا بعد جولة فى جزء كبير من الهند وبورما والملايو وسيام وأخذ فى كتابة رحلته التى تضمنت موضوعات مثيرة عن ثراء وقدرة الشرق الدائمة ، مما جعل التجار الانجليز يصممون على الاستفادة من هذه الثروة وأخراجها من احتكار البرتغاليين ٠

وفى ٢٤ جمادى الثانى ١٠٠٩ هـ (٣١ ديسمبر ١٦٠٠ م) أسست شركة الهند الشرقية الانجليزية تحت اسم « شركة تجار لندن الـذين يتاجرون مع الهند الشرقية » بأمر من الملكة اليزابيث وبدأت هذه الشركة مزاولة أعمالها فارسلت بعض السفن التجارية الى الشرق ٠ ففى المدة من ١٠٠٩ الى ١٠٢٠ هـ (١٦٠٠ - ١٦١٢ م) ذهبت اثنتا عشر سفينة تجارية الى الهند وافتتحت تجارة انجلترا مع تلك البلاد ٠

---

(١) James Story, John hewbury - William Deedes - Ralph Fitch

(٢) كتب فيتش يقول « ٠٠٠ بعد وصولنا الى جزيرة هرموز القوا القبض علينا وصادر حاكم الجزيرة وكان اسمه ماتياس دى البوكيرك كل اموالنا ونقلنا يوم ١١ اكتوبر سنة ١٥٨٣ بالسفينة الى نائب الملك فى مستعمرة جوا بالهند ٠

فى سنة ١٠١٧ هـ (١٦٠٨ م) وصلت أول سفينة تابعة لشركة الهند الشرقية بقيادة ويليام هوكينز(١) الى ميناء سورت على الساحل الغربى للهند ، وكان هذا الربان يحمل رسالة توصية من جيمس الاول ملك انجلترا الى نور الدين محمد جهانجيز ملك الهند ، وقد وفق الى حد ما فى مهمته . وبعد أربع سنوات وصلت ثلاث سفن انجليزية أخرى بقيادة توماس بست(٢) وقد وفق هذا الرجل الى عقد معاهدات تجارية مع المسئولين المحليين فى ميناء سورت ، كما تمكن بعد ذلك من تأسيس مركز تجارى فى ذلك الميناء

وبعد ثلاث سنوات رأت شركة الهند الشرقية أن يذهب ممثل سياسى من انجلترا الى بلاط ملك الهند الجوركانى للمحافظة على مصالح الشركة فى الهند من المضايقات العلنية التى تثيرها البرتغال فى وجه مصالح الشركة وقد وافق جيمس الاول على هذا الموضوع وأرسل أحد الانجليز المحنكين اسمه سير تماس رو(٣) عرف بكثرة اسفاره والمامه بآداب وتقاليد البلاد - كسفير الى بلاط الشاه سليم .

وقد تضمن الامر الصادر من الملك جيمس الاول فى ٢٩ ديسمبر سنة ١٦١٤ م التعليمات الآتية بشـأن هذه السفارة :

« يكلف السير توماس رو الذى يذهب بناء على أوامرنا الى بـلاط المغولى الكبير امبراطور الهند بان يحترم حيثيتنا ومقامنا الملكى فى كل مكان وزمان لاننا أولياء نعمته ، كما أننا ندين بدين المسيح وعليه أن يعمل على تقدم شأن شركة تجارة الهند والا يحيد عن أوامرها لاننا نرسله أساسا لهذا الغرض . واذا سأله المغولى الكبير لماذا لايترك البرتغاليون جوا وماحولها لرعايانا ويعادونهم دائما ويمارضونهم فعليه أن يجيب بان البرتغاليين يريدون اغتصاب تجارة الهند واحتكارها ، ومع أن انجلترا ليست عاجزة عن تحطيم قواتهم ، الا أن صاحب الجلالة ملك انجلترا لايريد اللجوء الى الحرب أو وسائل القوة والعنف » .

على هذا النحو قامت شركة الهند الشرقية الانجليزية على أسـاس محكم قوى وأدى هذا الى تقدم عظيم فى النواحى السياسية والاجتماعية

---

(١) William Hawkins

(٢) Thomas Best

(٣) Sirthomas Roe

فى القرون السابع عشر والثامن عشر والتاسع عشر فى انجلترا كما يتضح من تاريخها • أما شرح الاجراءات التى قامت بها شركة الهند الشرقية وبيان مدارج رقيها فى الهند فانه يخرج عن موضوع هذا الكتاب ، ولهذا فاننا نتجاوزها الى الجزء الذى يرتبط بالعلاقات السياسية والتجارية الايرانية ارتباطا مباشرا •

بعد أن ازدهرت شركة الهند الشرقية فى الهند ، راجت فيها البضائع الانجليزية خاصة الجوخ فهذا ارسل المسؤلية عن الشركة مقادير وافره من البضائع الانجليزية الى الهند مما أدى الى زيادة العرض على الطلب فظلت فى المخازن ، مما اضطر رئيس المركز التجارى الانجليزى وكان اسمه تومباس الدوورث(١) الى البحث عن أسواق جديدة •

فى هذا الوقت وصل الى ميناء سورت شباب انجليزى اسمه ريتشارد ستيل(٢) كان قد سافر الى ايران سنة ١٠٢٣ هـ (١٦١٤ م)للبحث عن أحد المدينين له . ومن هناك ذهب الى سورت وتحدث مع رئيس المركز التجارى عن استعداد ايران للتجارة مع شركة الهند الشرقية وحاجة هـذه الدولة الى الجوخ الانجليزى خاصة لبرودة جوها ، وقد الح على هـــذا الموضوع حتى أن مندوب الشركة صمم على اقامة علاقات تجارية مع ايران وأرسل ستيل مع شخص انجليزى اخر اسمه جون كروثر(٣) الى عاصمة ايران حتى يحصلا له على المعلومات اللازمة عن التجارة الايرانية واذا تمكنا من أخذ أمر من الشاه عباس يتيح لسفن الشركة حرية الملاحـــة فى الخليج وموانى ايران لتقوم بالتجارة دون موانع •

وفى هذا الوقت كان السير روبرت شيرلى قد عاد من أول سفارة له فى أوربا (جمادى الاولى ١٠٢٤ هـ) وكان ستيل وكروثر يحملان اليـه خطابات توصية من الشركة ، ولكن شيرلى استقبلهما فى بداية الامر ببرود ولم يهتم بطلباتهما ، ولكنهما تمكنا فى سنة ١٠٢٥ هـ(١٦١٦م) من تحقيق أهدافهما وأصدر الشـاه عباس أمرا خاصا طلب فيه من رعاياه فى كل مقام ورتبه ان يعاملوا التجار والمسافرين الانجليز معاملة طيبة ومضمون هذا الامر هو :

---

(١) Thomas Aldworth

(٢) Richard Steele

(٣) John Crawther

« الى كل رعايانا من كل مقام كبيرهم وصغيرهم الى رؤساء الدولة وأعيانها آمرهم جميعا عندما تدخل اية سفينة تابعة للانجليز ميناء جاسك او اى ميناء آخر فى مملكتنا ان يعاملوا الانجليز بكل حب واحترام ويحملوهم بما معهم من بضائع الى اى مكان يرغبون الذهاب اليه ، وعليهم أن يدافعوا عنهم وعن اموالهم فى مواجهة اعتداءات أى فرنجى آخر كما يجب • هذه ارادتنا كما نأمر كل رعايانا باتباع هذا • كتب فى العاصمة الملكية بتاريخ شهر رمضان ١٠٢٤ هـ (سبتمبر / أكتوبر ١٦١٦ م) •

الى جانب هذا كلفت شركة الهند الشرقية مبعوثيها ستيل وكروثر بالسفر الى موانى الخليج ليختارا أنسبها لرسو السفن وتفريغ وحمل البضائع • وبعد رحلة الى موانى جاسك وجمبرون وريشهر (بوشهر) والبحرين وقع اختيارهما على ميناء جاسك الذى يقع على بعد ٩٠ ميلاشرق جزيرة هرمز وكتبا للشركة أن ميناء جاسك يقع على مقربة من مدخل الخليج، ولهذا فهو غير معرض لتهديد السفن البرتغالية أو هجومها مثل جزر البحرين، كما أنه أنسب لرسو السفن •

بعد أن وصل أمر الشاه عباس لمسئولى شركة الهند الشرقية فى الهند بدأوا فى الاستفادة منه ، وكان السير توماس رو يعتقد ان أمر الشاه عباس لايمكن الاستفادة منه على الوجه المطلوب لخلوه من الاشاره الى اقامة قلاع واستحكامات فى مقابل الاستحكامات البرتغالية القوية فى هرمز ، كما انه لم يخصص ميناء معينا للتجارة الانجليزية • وكان يرغب فى أن ترسله الشركة مندوبا عنها لبلاط الشاه عباس لبحث الاوضاع التجارية والاقتصادية فى ايران •

فى نفس ذلك العام ارسل السير توماس رو رسالة الى شركة الهند الشرقية مضمون جزء منها ما يلى :

« تجارنا لايعرفون مايجب عمله فى التجارة مع ايران ، فميناء جاسك ليس مكانا مناسبا لبيع تجارتنا ، وما أرسل الى هناك لم يتم بيعه للآن الى جانب أن روبرت شيرلى ذهب الى اسبانيا كسفير من قبل الشاه عباس ليعقد اتفاقا مع ملك اسبانيا والبرتغال يتيح لتجار هاتين الدولتين اقامة

مراكز تجارية في ميناء جمبرون ، وكل النقط الساحلية على الخليج واحتكار شراء وتصدير البضائع الايرانية ، ويرسلوا الى ايران كل عام عدة سفن محملة بالتوابل والكتان الهندى لبيعها هناك مقابل ذلك • فاذا وفــق شيرلي في مهمته فان نشاط رجالنا وجهودهم ستتعرض للفشل » •

وفي نفس الوقت كتب رسالة الى الشــاه عباس وضمن شكره على الامر الذى أصدره للشركة لمح فيها الى أن عقد اتفاق جديد مع الحـكومة الاسبانية والاذن بحرية التجارة لجميع التجار المسيحيين تتعارض مــع نصوص ذلك الامر • واذا أعطت الحكومة الايرانية حق احتكار التجارة لشعب آخر فان الانجليز سيضطرون للجوء لقواتهم الحربية ، ومن الممكن ان يعرض هـذا أمن الخليج وهـدوءه للخطـر •

ولم يوافق التجار الانجليز في ميناء سورت الهندى على افكار السير توماس رو وكانوا يريدون اقامة مراكز للتجارة في ايران بأسرع مايمكن • وكان الاسراع في اقامة علاقات تجارية مع الايرانيين واجبا في نظرهـــم للاسباب التالية :

أولا : ان روبرت شيرلي كان بعيدا عن ايران آنذاك ، ولهذا رأوا أن جهودهم ستكون أكثر مناسبة لانه كان من الممكن بعـد عودته من أوربـا ان يعمل على معارضة نشاط شركة الهند الشرقية أو يقوم بأكثر من هذا•

ثانيا : لما كانت العلاقات التجارية بين ايران وأوربا قد قطعت بسبب الحرب الايرانية العثمانية ، وقلت الاقمشة الاوربية في ايران فيجب اغتنام الفرصـــة •

ثالثا : لابد من ايجاد أسواق جديدة لتصريف البضائع المكدسة في مخـــازن مينـاء ســــورت •

سفارة ادوارد كنوك(١) الى ايــران :

في النهاية استطاع التجار الانجليز في سورت الحصول على موافقة شركة الهند الشرقية لبدء التجارة مع ايران خلافا لرأى السير توماس رو

(١) Edward Conaock

وفى ذى الحجة ١٠٢٥ هـ (نوفمبر ١٦١٦ م) ارسلوا أول سفينة تجارية انجليزية وكان اسمها جيمس من ميناء سورت قاصدة ميناء جاسك ، والى جانب حمولة السفينة من البضائع الكثيرة وصلت عليها بعثة(٢) لمقابلة الشـــاه عباس لتقوية العلاقات التجارية بين الدولتين ، وكان على رأس هذه البعثة ادوارد كنوك أحد التجار المحنكين والخبراء الانجليز ، وسبق له الاشتغال مرات عديدة بالتجارة مع الدولة العثمانية ، وبعد سبعة وعشرين يوما وصلت السفينة « جيمس » الى ساحل ايران رغم المصاعب والمشاكل التى اثارها البرتغاليون فى طريقها • ووصل ادوارد كنوك يوم ٢٢ ربيع الاول ١٠٢٦ هـ (مارس ١٦١٧ م) الى اصفهـــــان واستقبله المسئولون فى الحكومة الايرانية بالترحيب والاحترام ونظرا لان الشـاه عباس لم يكن فى أصفهان وكان يحارب فى جورجيا ، لهذا توجه ادوارد كنوك الى آذربيجان وجورجيا بعد أن بقى بعض الوقت فى اصفهان •

استقبل الشاه عباس مندوب شركة الهند الشرقية بالترحيب ولقب ملك انجلترا بلقب « الأخ الكبير » وشرب نخب صحته وسلامته • وقد اقترح ادوارد كنوك ـ نيابة عن ملك انجلترا وشركة الهند الشرقية ـ أن يرسل السفن الى ايران طوال العام لتحمل حرير ايران الى جانب التجارة الاخرى من موانى الجنوب وتنقله الى اوربا عن طريق البحر بدلا من نقله عن طريق الاراضى العثمانية •

وقد سمح الشــاه عباس للسفير الانجليزى بانشاء مراكز تجـــارية فى كل من أصفهان وشيراز ، ووعد بان يترك لمندوبى الشركة ميناء جاســك أو أى ميناء اخر تراه شركة الهند الشرقية مناسبا لها • كما اصدر فرمانا وافق فيه على أن ترسل الحكومة الانجليزية مندوبا سياسيا الى بلاط ايران وتعطى الحرية التامة لموظفى الشركة فى مزاولة التجارة فى جميع أرجـــاء ايران • كما اشير فى هذا الامر الى أن الرعايا الانجليز لهم الحرية التامة فى القيام بشئونهم الدينية طبقا لعاداتهم وآدابهم • كما يمكنهم حمــــل

---

(٢) أعضاء هذه البعثة هم :

George Riey-Thomas Barker - William Bell William Tracye - Edward Peters - Mathew Pepwell.

السلاح معهم دائما لكي يستخدموه في حالة الدفاع عن النفس كما أن لمندوب انجلترا الحق في ارسال مندوبين وموظفين الى انحاء ايران المختلفة للعمل على تنشيط التجارة وتوسيع مجالها ·

كان الشاه عباس يريد ان يجد أسواقا جديدة للحرير الايراني الذي يحتكر تجارته لنفسه ، ويجد طريقا آخر لنقله عبر طريق الاراضي العثمانية ولم يكن راضيا عن البرتغاليين للاسباب التي سبق أن ذكرناهـا وكان ينتظر الفرصة المواتية لكي يكف ايديهم عن سواحل جنوب ايـران التي استعمروها وأخذوا يعاملونه في الشئون التجارية والسياسية بجـسـراءة واستهتار كان يتحين الفرصة ليخرجهم من موانى وجزر الخليج ، ولـكن لم تكن لديه القوات البحرية الكافية ولهذا راى أن الصداقة مع شعوب مثل الانجليز والهولنديين لازمة له وضرورية لما كان لهما من قوات بحـرية تتساوى مع قوات البرتغاليين في القـسـوة ·

لهذا السبب استقبل الشاه عباس مندوبي شركة الهند الشرقية الانجليزية بترحيب بالـغ وأبدى اهتمامه وتلهفه على منـح التسهيلات التجـارية لهذه الشركة ، ولم تفلح جهود المسئولين الاسبان والبرتغاليين في الاضرار بعلاقات الشاه عباس وشركة الهند الشرقية(١) ·

أسس ادوارد كنوك مراكز تجارية في اصفهان وشيراز بتصريح من الشاه عبـاس وذلك في سنة ١٠٢٦ هـ (١٦١٧ م) وسافر بعد ذلك الى جزيرة هرمز لكي يستقبل السفن التجارية الانجليزية التي كانت قد وصلت من الهند محملة بكثير من البضائع ويشرف على نقل هذه البضائع الى داخل ايـران ولكنه توفى فجاه بالقرب من هرمز مع بعض رفاقه ووصل خبـر الى البلاط الايراني يفيد ان البرتغاليين هم الذين سموه وأصحابه ·

---

(١) كتب بيترو دلافاليه السائح الايطالي الذي كان آنذاك في اصفهان يقول « عندما توجه ادوار كنوك الى جورجيا لمقابلة الشاه عباس أسرع الراهب مليكور ديزانتج أحد قسس جماعة سان أغوسطين ومندوب أسبانيا لدى الشاه الى هناك أيضا لكي يحذره من قبول المقترحات الانجليزية وينبهه الى الصدام الذي قد يحدث في الخليج بين الدولتين ولكن الشاه عباس لم يهتم بوجهة نظره ·

سفارة روبرت شيرلى الثانية الى اوربا

سبق أن قلنا ان الشاه عباس كلف السير روبرت شيرلى مرة ثانية بالتوجه كسفير الى بلاط ملوك أوربا سنة ١٠٢٤ هـ ٠ وبعد أن توقف شهرين فى الهند وصل فى صيف ١٠٢٦ هـ الى ميناء ليشبونه عاصمة البرتغال ومن هناك ذهب الى أسبانيا وظل هناك حتى سنة ١٠٣١ هـ ٠ وقد فصلنا تقرير سفارة روبرت شيرلى الثانية الى بلاط اسبانيا فى الفصل الخاص بالعلاقات الايرانية الاسبانية والبرتغالية ولا حاجة لتكراره ٠

وقد وصل شيرلى فى أواخر ١٠٣١ هـ الى مدينة روما ومن هنـــاك توجه الى انجلترا فوصل فى ربيع الاول ١٠٣٢ هـ الى لندن واستقبله الملك جيمس الاول كسفير لايران ٠ وكتب السير جون فينيت(١) رئيس الديوان الملكى الانجليزى الذى كان مكلفا باستقباله تقريرا عن هذه الزيارة خلاصته هى:

« فى يوم ١٩ يونيو ١٦٢٣ م (ربيع الاول ١٠٣٢ هـ) صدرت لى الأوامر أن اذهب الى نيوماركت لاستقبل السير روبرت شيرلى سفير ملك ايران واهيء وسائل الراحة له فى منزلى فى ساكس هام ، وكان روبرت شيرلى بعد رحلة طويلة فى البحر والبر قد اختار الاقامة فى هذا المكان وكتبت الى أخته الليدى كروفتس(٢) من هناك رسالة تطلب منى أن اعد وسائل اقامة أخيها من طرف الملك ٠

بعد ثمانية أيام ذهبت بالعربة ذات الخيول الملكية وخمسة من خاصة الخدم الملكيين الى سكسهام ، ولما كان البلاط قد ابلغنى ان الملك سوف يستقبل السفير بعد ظهر نفس اليوم ، فقد اصطحبت السفير فى العربة الملكية الى القصر الملكى قبل الظهر بساعتين وأجلسته فى غرفة الخلوة الملكية ثم اصطحبه ايرل أف اينجل سى(٣) الى المخدع الملكى لملاقاة الملك ، وكان روبرت شيرلى قد جاء بملابس ايرانية من قدمه حتى رأسه وكان يلبس عمامة فلما وصل امام الملك حنى رأسه مرتين وطبقا للعادات الايرانية خلع

---

(١) Sir John Finnett　　(٢) Lady Crofts

(٣) Earl of Angle Sea

عمامته ووضعها أمام قدمى الملك ثم جلس على ركبتيه وتكلم فلما أذن له الشـــاه بالنهوض وقف ولبس عمامته وقـــدم خطـــابات اعتماده التى كانت مكتوبة باللغـة الفارسية ولمـا لم يعثر فى انجلترا كلها على شخص يعرف اللغــة الفارسية فقد ظل مضمون رسائله مجهولا وتحدث الملك ببعض احاديث المجاملة مع السفير ثم أذن له بالعوده ٠٠٠ » ٠

وفى ١٤ فبراير صدرت الاوامر ثانية كي يلتقى السفير بالملك فى قصر ســان جيمس ولهذا توجهت بالعربة الملكية وبعض الخدم الى بيته واصطحبته الى قصر ســان جيمس ٠ وكان الملك واقفا فى قاعة الاستقبال ينتظر وصول السفير ، فلما دخل روبرت شيرلى حنى رأسه بالعمامة المتعظيم ثم وضع يده اليمنى على الارض ورفعها الى جبهته فلما اقترب من الملك جلس عـلى ركبتيه ولكن الملك أوقفه وعرض السفير موجزا لمهمته وقدم موجزا مكتوبا لما ذكر ثم عاد بنفس المراسم التى جاء بها ٠٠٠ » ٠

وقد استقبل جيمس الاول السير روبرت شيرلى بالترحيب وأبـدى استعداده لعقد معاهدة سياسية وصداقة مع ايران تقوم على الاسس التالية:

١ ــ تتعهد الحكومة الانجليزية بان تضع تحت تصرف الحـكومة الايرانية كل سفنها فى الخليج للهجوم على رجال الحكومتين الاسبانية والبرتغالية اللتان استوليتا على جزر هرمز وقشم ويضايقون ايران وشركة الهند الشرقية الانجليزية فى المسائل التجارية بشرط أن تتحمل الحـكومة الايرانية نفقات هذه السفن ٠

٢ ــ تتعهد ايران بامداد الحكومة الانجليزية بخمسة وعشرين الف جندى نظامى مسلح عندما تطلب ذلك منها ٠

٣ ــ تسمح الحكومة الانجليزية للتجار الايرانيين بحمل بضائعهم الى انجلترا على السفن الانجليزية بعد دفع الاجور العادية الانجليزية ولا يؤخذ من التجار الايرانيين الا ما يدفعه بقية التجار من مختلف الشعوب من الرسوم والجمارك الى جانب منح التجار الايرانيين حرية احضار الذهب والفضة الى انجلترا أو تصديرها منها ولا تأخذ منهم أية حقوق جمركية عنها٠

وعلى هذا النحو طرح موضوع تصدير البضائع الايرانية وخاصة الحرير

الى أوربا طبقا لهذه المعاهدة التى بمقتضاها يستطيع التجار الايرانيون نقل بضائعهم على السفن الانجليزية الى انجلترا ومنها الى بقية الــدول الاوربية لبيعها هناك ٠ كما أن التعهد السياسى واتحاد القوات البحرية والبرية للدولتين كان يحمى المراكز التجارية الانجليزية وموانى جنوب ايران من تهديد هجوم السفن الاسبانية والبرتغالية ولكن قبل أن توقــع هذه المعاهدة توفى جيمس الاول فى ٢٧ مارس ١٦٢٥ م وخلفه ابنه تشارلز الاول وتأخر التوقيع على المعاهدة كما حدث فى نفس الوقت حادث آخـر اضاع كل جهود روبرت شيرلى نذكره فيما يلى :

سفارة نقــد على بــك :



بينما كان روبرت شيرلى مشغولا بالمحادثات مع ممثلى الملك الجديد وأوشك على الوصول الى هدفه وصل الى انجلترا سفير ايرانى جديد هــو نقد على بك وكان الشاه عباس قد أرسله بايعاز من مندوبى شركة الهنـــد الشرقية الانجليزية الذين كانوا ينظرون الى بعثة مواطنهم روبرت شيرلى

بعين الشك والريبة . وكان نقد على بك قد وصل فى أول فبراير ١٦٢٦ م (الثانى من جمادى الاول ١٠٣٥ هـ) الى الساحل الانجليزى على السفينة « سستار » .

حينما وصل نقد على بك الى لندن انكر سفارة روبرت شيرلى بناء على تحريض من رجال شركة الهند الشرقية بل أنه شتمه فى أحد المجالس وصفعه صفعة قوية على وجهه واعلن أن خطابات اعتماده مزورة ومزقها مما جعل البلاط الانجليزى ينظر بريب الى سفارة شيرلى ولايتم محادثاته معه .

وقد اشار السير جون فينيت رئيس ديوان جيمس الاول والذى كان مكلفا باستقبال السفيرين روبرت شيرلى ونقد على بك الى الخلافات بينهما فى مذكراته فقال :

« فى اواسط فبراير ١٦٢٦ م (جمادى الاولى ١٠٣٥ هـ) أخبر التجار الانجليز الملك أن سفينة قد وصلت الى ميناء بورتثموث وأن عليها سفيرا ايرانيا جاء الى انجلترا فصدرت لى الاوامر ان أرسل العربة الملكية وبعض المضيفين لاستقبال السفير فى كينج ستون واحضاره من الميناء الى لنــدن وكان تجار الهند الشرقية قد افرطوا فى الترحيب بهذا السفير الجديد ولجاوا الى بعض الوسائل حتى أرسلت بعربة ملكية تجرها ثمانية خيول لاستقباله وقد وصل السفير الى لندن يوم ١٩ فبراير وتحمل المسئولون فى شركة الهند جميع نفقاته وأعدوا منزلا لاقامته وبعد يومين من وصول السفير طلب التشرف بمقابلة الملك .

ولكى يقف السير روبرت شيرلى على حقيقة الهدف من حضور السفير الجديد فقد طلب من أحد أقاربه وهو أيرل كليفلاند(١) أن يرافقه فى الذهاب الى السفير الجديد للترحيب بوصوله وكان السير روبرت يقصد أن يخبره السفير الجديد بالغرض من حضوره ولهذا فقد كان قد استاذن الملك واسترد من البلاط أوراق الاعتماد التى كان قد قدمها للملك فى أول يوم وذهب فى العربة الملكية مع ايرل كليفلاند وبعض رجال البلاط ، وكنت من بينهم ، الى منزل السفير الجديد فى نفس اليوم الذى أراد فيه مقابلة الملك .

---

(١) Earl of Clevian Clevland

وكنت قد اقترحت أن نرسل شخصا للسفير قبل ذهابنا اليه ونخبره برغبتنا في زيارته فرد عليه السفير دون أية مجاملات بقوله « فليأتوا » ٠

حين دخلنا غرفة السفير وجدناه متربعا على كرسي كعادة الايرانيين وحين رآنا لم يبد أى اهتمام ٠ والقى سير روبرت السلام عليه وجلس على كرسي بالقرب منه وذكر ايرل كليفلاند للسفير سبب مجيء روبرت شيرلي ونحن معه عن طريق المترجم وقد ذكرت أنا المترجم السفير مقام ايرل كليفلاند وأهميته فلما عرف السفير هذا أنزل رجليه من على الكرسي وقال بعض كلمات المجاملة ٠

بعد هذا أخرج روبرت شيرلي خطابات اعتماده وعلى عادة الايرانيين وضعها على عينيه وجبهته ثم قبلها وسلمها للسفير حتى يقبلها بدوره ويقرأها ولكن السفير نهض فجأة من على الكرسي وذهب ناحية روبرت شيرلي وجذب الخطابات من يديه ومزقها ثم صفعه قوية على وجهه ٠

وقف ايرل كليفلاند بينهما ليحول دون تماسكهما ولكن ابن سفير ايران الذى كان واقفا فى جانب الغرفة هجم على روبرت شيرلي وصفعه صفعتين أخريين وأوقعه على الارض ولكن ايرل كليفلاند ابعد هذا الشاب أيضا ثم لام السفير على هذا السلوك السيء وقال له لولا رعاية احترام الشاه عباس ملك ايران العظيم لما خرج أحد منكم حيا من هذه الغرفة ، وعندئذ ظهرت آثار الندم على وجه السفير وقال انني أسف جدا على ماحدث ولكن سببه أن هذا الرجل (يقصد شيرلي) زور خطاب ولى نعمتنا وادعى كذبا انه سفيره لان رسائل شاه ايران تختم عادة فى اعلاها أما فى خطاب اعتماد هذا الرجل فقد ختم من ظهره بالاضافة الى انه يقول انه تزوج بنت اخت الشاه عباس وهذا كذب محض ٠

ابتعد السير روبرت شيرلي الذى أحس بالاهانة والخجل الى ناحية من الغرفة فلما سمع كلام السفير الايراني تقدم اليه وقال انني لم أقل أبدا انني متزوج من بنت أخت الشاه عباس ولكن زوجتي من أقارب زوجة الشاه أما فيما يتعلق بختم خطاب الاعتماد فصحيح ان شاه ايران يختم جميع أوامره فى طرفها الاعلى ولكن حين يكون سفيره من الاجانب فانه عادة يختم ظهر الامر ويوقع عليه حتى يعرف أنه من طرف أى شخص قبل أن يفضوه ٠

رد السفير الايرانى على هذا الكلام بنظرة احتقار ولم يقل شيئا • بعد هذا غادرنا منزله وأوصلنا السير روبرت شيرلى الى منزله وذهبنا الى البلاط الملكى وقدمنا تقريرا للملك عما حدث فى هذا اللقاء •

حين علم تجار شركة الهند الشرقية بحادثة لقاء شيرلى وتقد على وصفعه عدو شيرلى مذنبا وكان دليلهم ان شيرلى لو لم يكن مذنبا لرد على نقسد على بك له ، ولما وقف ساكتا أمام صفعاته • ولكن شيرلى كتب تقريرا للملك وطلب مع اذن للعودة لايران أن يعلقوا خطابات اعتماده فى رقبتــه ويعيدوه مع رسول خاص لايران حتى تتضح له الحقيقة •

أمر الملك بدوره مندوبى شركة الهند الشرقية الانجليزية أن يحملوه على أحدى سفنهم الى ايران حتى يتضح صدق أقواله أو كذبها فاطاعوا أمر الملك ولكنهم رجوه أن يستقبل سفير ايران فى أسرع وقت ممكن •

فى السادس من مارس من ذلك العام (١٦٢٦م/١٠٣٥ هـ) استقبل تشارلز الاول الذى جلس على العرش بعد ابيه جيمس الاول السفير الايرانى وكتب السير جون فينيت عن أول لقاء بين السفير وملك انجلترا فقال :

« دخل السفير الى قاعة الضيافة التى كان الملك واقفا بها فى انتظاره وتقدم دون أن يحنى رأسه أو يؤدى أى احترام فلما اقترب من الملك قبل أوراق اعتماده واحدة واحدة ثم سلمها للملك ولم يحن رأسه أيضا اثناء تقديمها وبعد ان قام بهذا أعطى ظهره للملك وتأخر نحو عشرين قدما ثم استدار ناحية الملك واشار بيده الى الاشخاص الذين كانوا يقفون بينه وبين الملك لكى يتنحوا جانبا ثم حنى رأسه ثلاث مرات حيث كان يقف ثم غادر القاعة • وقد اراد السفير أن يقابل الملكة ايضا ولكنها لم تكن فى القصر الملكى ، ولهذا جلس فى العربة وظل يتجول فى حديقة سان جيمس حتى عادت الملكة للقصر »

كان الملك قد أمر ــ كما ذكرنا ــ أن يعود السفيران الى ايران على السفن التى كانت ستبحر فى شهر مايو من ذلك العام الى الهند وأرسل معهما رجلا انجليزيا هو السير دورمر قطن(١) للقيام بمهمتين الاولى أن يتأكد من أن السير روبرت شيرلى كان سفيرا لشاه ايران أم لا ، والثانية ان يعقد معاهدة تجارية مع شــاه ايران •

---

(١) Sir Dormer Cotton

لم يتح للسفيرين الرحيل فى شهر مايو لان سفن شركة الهند الشرقية كانت قد أقلعت قبل وصولهما الى الميناء فاضطرا للبقاء فى انجلترا وبعد عشرة اشهر توجها الى الهند وايران عن طريق راس الرجاء الصالح ٠

اقدم نقد على بك على الانتحار خوفا من مؤاخذة الشاه عباس له فسمم نفسه بالافيون على الساحل الشرقي لافريقيا :. ووصل روبرت شيرلى ودورمر قطن فى ربيع الثانى ١٠٣٧ هـ (يناير ١٦٢٨ م) الى ميناء جمبرون بعد رحلة استغرقت احد عشر شهرا ٠ وكان الشاه عباس انذاك فى أشرف (بهشهر حاليا) فى مازندران فاضطر السير دورمر للسفر عبر ايران كلها من اقصى الجنوب الى أقصى الشمال ، وسنذكر أحوال السير دورمر وروبرت شيرلى فى الصفحات التالية ٠

سفارة توماس باركر وجيلز هابس

قلنا أن ادوار كنوك مندوب شركة الهند الشرقية وبعض مرافقيه توفوا فجأة بالقرب من جزيرة هرمز سنة ١٠٢٧ هـ (١٦١٧ م) وقيل أن البرتغاليين سمموهم ولهذا عينت الشركة معاونه توماس باركر مندوبا لها في ايران فبدأ باجراء محادثات مع الحكومة الايرانية لعقد اتفاقية لشراء الحرير وأبدى الشاه عباس استعداده لعقد اتفاقية مع شركة الهند الشرقية في هذا الشأن بشرط قيام مندوبي الشركة بشراء ستمائة عدل (العدل ١٣٥ كجم) حرير من ايران كل عام ودفع ثمنه اما نقدا او بضائع ولايحق لهم تصدير الحرير مالم يدفعوا كل ثمنه ٠

في نفس هذا العام أيضا جاء مبعوث آخر لشركة الهند الشرقية اسمه جيلز هابس(١) يحمل رسالة للشاه عباس ولكنه وصل الى ايران عن طريق روسيا٠ وبعد أن تشاور توماس باركر(٢) مع المبعوث الجديد قبل شروط الشاه عباس بل تقرر أن تقصر ايران بيع كل حريرها لمندوبي شركة الهند الشرقية فقط ولاتبيع حريرا للتجار الاسبان البرتغاليين ولاترسل شيئا عن طريق الاراضي العثمانية الى أوربا ووافق الشاه عباس على هذه الشروط ووعد بالمحافظة عليها والتمسك بها طالما كان على قيد الحياة اذا ظل الانجليز على وعدهم ولكن قبل أن يأخذ هذا الاتفاق شكله الرسمي والفعلي اعترض عليه ارامنة جلفا لان جزءا من حرير ايران كان يصدر بمعاونتهم الى أوربا عن طريق الاراضي العثمانية وكان هذا الاتفاق الجديد الذي يوقف تصدير الحرير عن طريق الاراضي العثمانية يلحق بهم اضرارا جسيمة ٠

بعد هذا الاعتراض على الاتفاق الجديد أمر الشاه عباس أن يجتمع مندبون اسبانيا والشركة الانجليزية والارمن في قصر الحكومة حيث يعرض الحرير الايراني بالمزاد ليباع لمن يدفع أعلى ثمن ، ولم يتحدث مندوب أسبانيا في هذا الاجتماع بحجة أنه لم يتلق تعليمات من دولته لتحديد سعر الحرير ٠ كما أن الانجليز صمتوا لانهم لم يرغبوا في التعامل في الحرير على

---

(١) Gyles Habbes
(٢) Thomas Parker

أساس المزايدات وعرض الارمن وحدهم الذين كانوا يرغبون فى اخراج الآخرين من السوق ثمنا باهظا لم يسبق له مثيل وهو خمسين تومانا لكل ٣٦ من ملكى ولهذا باع لهم الشاه كل انتاج ايران من الحرير فى ذلك العام(١) ٠

حينما رأى مندوبون شركة الهنـد الشرقية أن الاتجـار فى الحرير مـع الأرمن بعد ما حدث لن يفيدهم توقفوا عن شرائه وتصديره فى ذلك العام ٠ ولما كان الارمن قد علموا ـ بطرقهم الخاصة ـ أن الاتجار فى كل البضائع الايرانية فى أوربا يدر أرباحا وفيرة فقد اشتروا كميات من الاقمشة المختلفة والبسط والبضائع الاخرى وحملوها بالسفن الى أوربا ٠

توفى توماس باركر فى أواخر عام ١٠٢٨ هـ (١٦١٩ م) فى اصفهان وتوجه ادوارد مونوكس ـ الذى ذكرناه فى الفصول السابقة ـ الى اصفهان فى ربيع الثانى ١٠٢٩ هـ (مارس ١٦٢٠ م) ليحل محله مندوبا لشركة الهند الشرقيـــــة ٠

فى هذه الاثناء كان الشاه عباس قد تصالح مع السلطان العثمانى وصمم على أن يكف يد الاسبان والبرتغاليين عن جزيرة هرمز ولهذا اظهر عداوته لهم ، ولما كان يريد أن يقوم بهذا العمل بمساعدة السفن الانجليزية ـ كما سبق أن ذكرنا ـ فقد أخذ فى التقرب الى مندوبى شركة الهند الشرقية ووافق على التعامل معهم فى الحرير مثلما حدث سنة ١٠٢٩ هـ حينما سمح لمندوب الشركة بالذهاب بنفسه الى جيلان واختيار مايعجبه أو يناسبه من الحرير حتى يحمله مندوبو الشـــاه الى اصفهان وعلى نفقته هو لــــكى يسلم الى المركز التجارى الانجليزى ٠ ولمـا رأت الشركة الانجليزية أن الشاه يميل اليها فى التعامل فى الحرير ارسلت سفنها الى ايران لنقله فوصلت الى ميناء جاسك فى ذلك العام خمس سفن تحمل مختلف البضائع الانجليزية والهندية وبعض الهدايا للشاه عباس ٠ وكان لدى هذه السفن أوامر بان تتوجه الى ميناء جمبرون بعد أن تفرغ حمولتها فى ميناء جاسك لكى تقوم

---

(١) كان الشاه عباس يحتكر تجارة حـرير ايران كما سبق ان ذكرنا فكان مندوبوه يجمعون الحرير من كل انحاء ايران بثمن رخيص ويضعونه فى مخازن الشاه الذى يتولى بيعه بالثمن الذى يحدده ســـواء للاســـبان والبرتغاليين الذين يصدرونه عن طريق الجنوب أو الارمن الذين يصدرونه عن طريق الاراضى العثمانية ٠

بدراسة عن ذلك الميناء من ناحية موقعه الطبيعي لرسو السفن وامكانياته للشحن والتفريغ لان الشاه عباس كان قد اذن لشركة الهند الشرقية الانجليزية باقامة مركز تجاري في جمبرون رغم معارضة البرتغاليين ٠

كان بعض رجال البلاط وحكام ايران الذين كانوا يحصلون على أرباح طائلة من تهريب الحرير أو الاتجار فيه من التجار الايرانيين غير راضين عن سلوك الشاه عباس الودي مع مندوبي شركة الهند الشرقية واحتكار واحتكار بيع الحرير لهـــا ٠

وكتب بيترودلافالية الذي كان آنذاك في ايران يقول :

« كان الانجليز قد احضروا عشرين عدلا (العدل ١٣٥ كجم) من حرير جيلان الى اصفهان وكانوا قد دفعوا بعض ثمنه ويأملون في دفع بقية الثمن من بيع بعض بضائعهم التي كانت في اصفهان ولكن وقع بينهم وبـــين قرجقاي خان الذي كان يتولى حراسة طرق ايران خلاف لانهم امتنعوا عن دفع رسوم حراسة الطريق الذي كان مبلغا تافها والحقيقة أن الايرانيين كانوا ينظرون للانجليز بعين الحقد لانهم بشرائهم للحرير حرموا كثيرا من التجار الايرانيين والوزراء والاعيان الذين كانوا يحصلون على أرباح كبيرة من هـذه التجارة ٠

وقد ادت الكراهية الى سوء معاملتهم بتحريض من رؤساء وكبار رجال الدولة بل وصل الامر الى حد جذب وجرح بعض المندوبين والموظفين الانجليز وقد أوكل هذا الامر الى قطاع الطريق واللصوص كما أن الشاه في مجالسه الخاصة لم يكن يشير اليهم بالخير لأنه كان يعلم انهم قراصنة البحار والسرقة في ايران من الاعمال المذمومة ٠

وكان مندوبو شركة الهند الشرقية يريدون خديعة الشـاه بشرائهم لحرير جيـلان ثم يشترون حرير كل مناطق ايران مهربا بثمن زهيـــد ويصدرونه ولكنني سمعت انهم هم الذين خدعوا اذ أن الشاه عباس بحجة انه لايوجد غير هذا الحرير باع لهم بعض الحرير السيء الصلب كالخشب ثم طالبهم بثمن حرير ممتاز (١) ٠

---

(١) بيترودلافاليه ج ٥ ص ١٨٥ ـ ١٨٨ ٠

ومن بين الهدايا التى كانت سفن الهند الشرقية قد أحضرتها للشاه عباس عربة جميلة يجرها ستة جياد وكانت هذه العربة من الداخل وكذلك ملابس سائقيها وزينة خيولها كلها من المخمل (القطيفة) كما زينت من الداخل والخارج بالذهب ولم يحضروا معها خيولا من أنجلترا ولكنهم اشتروها من شيراز وربوها ودربوها هناك وكانت هذه العربة التى لم يسبق وجود مثلها فى ايران هدية من شارلز الاول ملك انجلترا ولان الاستفادة بها لم تكن ميسرة فى طرق ايران آنذاك فانها لم ترق لعيني الشاه بل أنه لم يعرضها على الناس كما جرت العادة فى مثل هذه الهدايا ٠

اتحاد ايران مع شركة الهند الشرقية الانجليزية ضد رعايا البرتغال واسبانيا

كما ذكرنا فى الفصل الخاص بعلاقات الشاه عباس بالبرتغال وأسبانيا ، فان مندوبى الشاه عقدوا اتفاقا مع شركة الهند الشرقية ضد البرتغاليين فى هرمز وذلك فى صفر ١٠٣١ هـ (يناير ١٦٢٢ م) واستطاعت ايران بمساعدة الشركة الاستيلاء على جزر قشم وهرمز وكف يد المسئولين البرتغاليين والاسبان عن سواحل الخليج ولكن شركة الهند لم تحصل فى مقابل هذا على نتيجة تذكر ومع أن الحكومة الايرانية طبقا للاتفاق كانت قد قبلت دفع نصف دخل جمرك هرمز الى الشركة فانها لم تف بهذا الوعد الا بضع سنين لان المبادلات التجارية كانت قد انتقلت الى ميناء جمبرون فتوقفت ايران عن الدفع مدعية أن الشركة ليس لها العدد الكافى من السفن للمحافظة على أمن الخليج مما شجع اللصوص والقراصنة . ثم قبل مندوبو الشركة سنة ١٠٨٧ هـ وفى عهد الشاه سليمان الصفوى أن يأخذوا ألف تومان سنويا فى مقابل نصيبهم من دخل ميناء بندر عباس (جمبرون القديم) واستمرت هذه الحال بضع سنين .

بعد أن استولى الشاه عباس على جزيرة هرمز نفذ الاتفاق الذى كان قد عقده مع ادوارد كنوك سنة ١٠٢٦ هـ وسمح لمندوبى شركة الهند الشرقية بشراء أية كمية من الحرير تلزمهم من اى منطقة فى ايران وتصديره منها دون دفع أية رسوم أو أموال ومنذ ذلك الحين قويت شركة التجارة الانجليز فى الخليج وتحولت تجارة الهند الشرقية وايران الى أيدى الانجليز والهولنديين . ولم يهتم الشاه عباس بجزيرة هرمز بعد ذلك بل أقام قلعة جديدة فى ميناء جمبرون وجعل هذا الميناء مرفأ للسفن القادمة من الهند وأطلق عليه اسم بندر عباس وحصلت شركة الهند الشرقية على اذن باقامة عمارتين لفرع مركزها التجارى هناك ولم تحصل على اذن لبناء مساكن متعددة لموظفيها لأنه كان من الممكن ان تتحول مجموعة المساكن الى قلعة . كما منح الشاه بعض المنازل للشركات الانجليزية والهولندية فى شيراز واصفهان لتكون مساكن أو مراكز تجارية لموظفيها وقد كتب الرحالة الفرنسى

شاردان الذى كان فى ايران فى عصر الشاه عباس الثانى والشاه سليمان الصفوى، يقول :

« يقع سوق لله بك على الجانب الايمن لميدان نقش جهان (فى اصفهان) ويقع المركز التجارى لشركة الهند الشرقية فى نهاية هذا السوق وهو عبارة عن حديقة واسعة عظيمة بوسطها ثلاثة ابنية وهذه العمارات من أملاك الشارشى باشى الذى كان الشاه عباس الكبير قد غضب عليه وصادر امواله ولما كان مندوب شركة الهند الشرقية قد وصل الى ايران فى ذلك الحين فان الشاه قد منحه هذه العمارات التى كانت فى وسط المركز التجارى وعلى مقربة من مقر الحكومة وكانت زينة السقف الذهبية ونقوش الابواب والجدران فى غاية الروعة والجمال، ولكن للاسف فانها آيلة للخراب لان الشركة الانجليزية ليست لها تجارة قوية مع ايران كما قل عدد موظفيها جدا عما كانوا عليه فى زمن الشاه عباس وقد تحولت هذه العمارات الى مصايف يقضى بها الموظفون الانجليز فى بندر عباس فصل الصيف »

سفارة السير دورمر قطن

ذكرنا في الصفحات السابقة ان السير دورمر قطن سفير تشارلز الاول ملك انجلترا وصل مع السير روبرت شيرلي الى ميناء جمبرون عن طريق الهند في ٢٧ ربيع الثاني ١٠٣٧ هـ (٦ يناير ١٦٢٨ م) ٠

وكان نقد علي بك سفير الشاه عباس قد انتحر في الطريق فلم يصل معهما الى ايران وقد وصف السير توماس هربرت احد مرافقي السير دورمر انتحار نقد علي بك فقال :

« في يوم ٣٠ نوفمبر ١٦٢٧ م (٢٠ ربيع الاول ١٠٣٧ هـ) القينا مراسينا في سوولي رود(١) وقد توفي نقد علي بك سفير ايران ومنافس السير روبرت شيرلي ، وقد ذكروا لنا انه تعاطى الافيون اربعة أيام متتالية فسمم نفسه ويبدو انه انتحر خوفا من عقاب الشاه عباس لسلوكه السيء في لندن مع السير روبرت شيرلي ٠ وقد ضاعف السفير الايراني كمية الافيون التي عادة مايتناولها الايرانيون يوميا ولم يستطيع الطبيب عمل شيء على الرغم من تحذيره من هذا العمل ٠ وكان ابنه مدفوعا بعاطفة حب الابوة قد اخفى عنه الافيون فلما علم نقد علي بك بهذا هجم على ابنه شاهرا سيفه وكاد يفصل رأسه عن جسده لولا ان الابن استطاع بخفة ومهارة ان يلتجيء الى احد الاركان ويحتمي به ٠

وقد ذهب السير دورمر قطن وشيرلي ومرافقوهما الى اصفهان عن طريق لار وشيراز وقد اضطر السفير الانجليزي الى الذهاب للشمال لان الشاه عباس انذاك كان يقيم في مدينة اشرف في مازندران فوصل الى هناك في رمضان من نفس العام ٠

وكان السفير الانجليزي يحمل أوامر محددة من الملك تشارلز الاول بخصوص مهمته لدى الشاه عباس الاول ملك ايران ملخصها ما يلي :

---

(١) Swolly Rood

« لقد قدمت الينا مقترحات من شاه ايران عن طريق سفيره السير روبرت شيرلي فيما يتعلق بتقوية العلاقات التجارية بين الدولتين والدول التابعة لهما ولكن وقعت أحداث مؤسفة بوصول السفير الايراني الثاني مما جعلنا نتردد في مقترحات شـاه ايران وعقد الاتفاقيات اللازمة ولتوضيح هذا الامر فقد اخترناك واضعين في الاعتبار سابق خدمتك وطريق سلوكك حتى ترافق السير روبرت شيرلي الى شاه ايران ، وتذكر له ماحدث هنـا بين السفيرين وتتحدث معه طبقا لما يلي :

بعد ان تقدم أوراق اعتمادك الى شاه ايران تعبره أن للسير روبرت شيرلي كان قد جاء الينا سفيرا ثم جاء مرة أخرى في مهمة ثانية وقد تلقـاه أبي الفقيـد العزيز ـ خلد الله روحه ـ كسفير للشاه وقد بذلنا له من جانبنا نفس الرعاية والاحترام وقد تقدم الينا السير روبرت بمقترحات على أساس المصالح المتبادلة للدولتين . وبعد هذا وصل الى انجلترا سفير ثان من قبل شاه ايران اسمه نقد على بك وبعد قليل من وصوله اهان السير روبرت شيرلي أمام بعض اعيان الدولة ورجالها الذين كانوا قد ذهبوا لزيارته ومزق أوراق اعتماده وصفعه على وجهه وهذا السلوك تجاه احد نجباء انجلترا مخالف لكل الاصول والقواعد الاخلاقية لنا ولولا رعاية احترام شـاه ايران ـ الذي يعد سفيرا له ايضا ـ لمـا ظل تصرفه هذا دون جـزاء وادع في هذه الدولة التي ترعى العدالة والحضارة بكل دقة وشدة ، ولمـا كان حضور سفيرين لحاكم واحد ومعارضة واحد منهما للاخر أمرا غير عادي ، لهذا فنحن نامركم بعرض هذا على شاه ايران ليتبين ايهما كان على حـق .

كذلك فقد تقدم الينا السير روبرت شيرلي بمقترحات سيقدم لـكم سكرتيرنا الخاص نسخة منها فاعرضها على شاه ايران فاذا وافق عليها واراد أن ننفذها فعليك ان تقف على وجهة نظر شاه ايران ورغباته وتعرضها علينـا .

ويمكنك أن تتحدث باسمنا وتتعهد بأن نقبل من صميم قلبنا كل اقتراح منطقي يناسب العلاقات بين الدولتين ويؤدي الى تقوية الروابط بينهما وتحكيم مصالحهما مما قد يقترحه الشـاه

وفي النهاية فان رغبتنا القلبية هي الا تقبل اى لقب أو مقام من شاه ايران والا تتدخل في شئون التجار الانجليز الذين يتعاملون مع ايران . وأن

تسلك طبقا لهذا الامر دون ايجاد اية مشقة أو مضايقة او نفقات لتجارنا ومخالفة هذا الامر سيؤدي الى اراقة دمك •

(وايت هول صدر في – ١٥ ابريل ١٦٢٦)

وقد استقبل الشاه عباس السير دورمر قطن والسير روبرت شسيرلي ومرافقيهما في القصر الملكي في أشرف يوم ١٩ رمضان ١٠٣٧ هـ وفي قول اخر يوم عيد الفطر • وقد كتب السير توماس هربرت احد مرافقي السفير الانجليزي في مذكراته عن هذه الرحلة وماجرى في هذا اللقاء والمحادثات فقال :

« في يوم الاحد ٢٥ مايو ١٦٢٨ المقارن لاواخر شهر رمضان استقبلنا الشاه حتى يتجنب الضيافة والاستقبالات التي يجب أن تقام في مثل هذه الاحوال(١) وكان سفيرنا يصطحب معه السير روبرت شيرلي ، كما كنت ومعي نحو سبعة أو ثمانية من الانجليز برفقته ولم يرسل البلاط الايراني أي قائد أو تشريفاتي لزيارة السفير سوى احد اتباع محمد علي بيك(٢) (ناظر القصر وخازن الشاه) الذي جاء للسفير وقام ببعض المجاملات البسيطة وعندما وصلنا الى قصر الحكومة ونزلنا عن جيادنا جاء أحد رجال البلاط واستقبلنا بالعبارة العادية التركية « مرحبا »(٣) وقادنا الى حجرة صغيرة تقع في وسط فناء واسع ، وكان هناك بعض الجند ولم يكن بالغرفة من الاثاث سوى خمس قطع من السجاد الايراني وكان في وسطها حوض من المرمر الابيض مملؤ بالماء وقد وقفنا هناك نحو ساعتين قدم لنا خلالهما الشراب الذي لم يكن جيدا وان كانت الاقداح والصواني والاباريق كلها من الذهب الخالص •

بعد هذا اصطحبنا بعض المسئولين عبر حديقة تشرح القلب وتسر العين الى مبنى آخر مزين بنقوش بارزة مذهبة يطل من ناحية على بحر الخزر ومن الناحية الاخرى على جبل البرز حيث المناظر الخلابة ودخلنا الى

---

(١) السير توماس هاربرت والدكتور جوتش القسيس هما الوحيدان من مرافقي السيردورمر قطن اللذان انتقدا وذما لقاء الشاه عباس للبعثة ولايوجد لاقوالهما شبيه في مذكرات أي واحد من المرافقين الآخرين •

(٢) يقصد محمد علي بك جرجياق الاصفهاني •

(٣) بالتركية خوش كلدي •

قاعة مربعة كبيرة مزينة بنقوش ذهبية والارض مفروشة ببسط من الصوف ومنسوجة بالذهب وفي وسط القاعة حوض من المرمر مملوء بالماء الصافي حوله اقداح واواني وفناجين وغيرها وكلها من الذهب الخالص وكان بعضها مملوءا بماء الورد او الشراب او الورود الملونة ٠

وبعد ان شاهدنا كل هذه الثروة اخذونا الى غرفة اخرى اكثر ارتفاعا يعكس سقفها صورة للنجوم والكواكب وكانت النجوم من الذهب تتلألأ على أرضية من اللازورد الغامق وكانت الاواني الذهبية في هذه القاعة تصل قيمتها الى نحو عشرين مليون جنيه انجليزي كما قدرناها وكان يرى في هذه القاعة حوض آخر للماء (فسقية) حافته من الذهب وعلى جوانبه اكواب وكئوس وغيرها من الاواني من الذهب الخالص المرصع بالجواهر ولم يكن بينها اناء لم يكن مغطى بالماس والياقوت واللؤلؤ والزمرد والفيروز والجواهر الاخرى وكانت القاعة قد تحولت الى ما يشبه قاعة القصر الرئيسية وكانت حافة الحوائط مزينة بأشعار واقوال بالوان مختلفة او مكتوبة بالذهب او الجبس وكانت زينة هذه الحجرة قد قام بها رجل ألماني عاش في البلاط الايراني مدة من الزمن سحر خلالها الايرانيين بفنه وذوقه ومهارته ٠

وكان يجلس حول هذه القاعة جماعة من الامراء والرؤساء وكبار البكوات على ركبهم وهم كالتماثيل يتطلعون الى ناحية معينة ولا احد يتكلم منهم او حتى يعطس او يكح لان مثل هذه الامور لاتجوز في مجلس الملك بل وتعد من الذنوب الكبيرة ٠

كان الشاه عباس يجلس في صدر هذا المجلس متربعا فوق وسادتين او ثلاث من الاطلس الابيض وكان الايرانيون يحبون هذا الملك كثيرا كما يحترمه الاجانب ويخشاه الاعداء ، وهذا الملك الذي جعلنا نشاهد كل هذا الغنى وتلك الثروة كان يرتدي ملابس قطنية حمراء بسيطة كأنه أراد ان يرمز الينا أن عظمته وجلاله ترجع الى صفات الحسنة وسياسته لا الى ملابسه الحريرية ولآلئه ٠٠٠ وكان يضع على رأسه عمامة من قماش ابيض وكان يربط وسط سرواله بحزام جلدي وكان غمد سيفه من الجلد الاحمر ... من الذهب وحده مقوس كالهلال وكان بقية رجال القصر بسيطة مثل الشاه ٠

قال السفير للشاه بواسطة المترجم الذى يسميه الايرانيون الكلمجى « انه قطع هذا الطريق الطويل لكى يهنىء الشاه بانتصاراته فى الحرب ضد العدو المشترك لايران وانجلترا ويتحدث معه عن تجارة الحرير وكسل المصنوعات الايرانية ويحصل على معلومات عن سفارة السير روبرت شيرلى والتهم التى وجهها اليه نقد على بك سفير الشاه ويبلغه رسالة ودية من ملك الانجليز ... » .

نهض الشاه من مكانه والقى خطبة فصيحة باللغة التركية وقال « ان الاتراك العثمانيين اناس منحطون ولايقارنون بالايرانيين فى الذكاء او القيام بالواجب ، ولقد اطلعت الاتراك وسائر الامم التى تعاديهم على شجاعة الايرانيين فى خمس عشرة موقعة خضتها ضدهم وآمل أن يتحد المسيحيون فى القريب العاجل لان الامبراطورية العثمانية ، ستفقد هذه العظمة وتلك القوة حينما يزول هذا الخلاف وذلك التباعد ، ولو لم يكن المسيحيون فى خلاف عداء كانت هذه الامبراطورية الدنيئة قد اصبحت شيئاً لايذكر .

اما فيما يتعلق بتجارة الحرير فقال انه مستعد لكى يسلم للانجليز فى جزيرة هرمز فى يناير من كل عام عشرة الاف عدل من الحرير اذا اراد ملك انجلترا ويحصل فى مقابلها على جوخ انجليزى ليبيعه للعرب والتتار والارمن والروس والجورجيين بشرط ان يتعهد التجار الانجليز بعدم التعامل مع الاتراك لان السلطان العثمانى يحصل على ارباح وفيرة من رســـوم التجارة الخارجية ، والتجارة مع الاتراك مثلها مثل شوكة يصنعونها بايديهم لكى توجه الى اعينهم او كانهم يشحذون سيوف عدوهم لكى تقطع بها رقابهم .

اما فيما يتعلق بروبرت شيرلى فقال انه هو سفيره الحقيقى وانه ســـوف يسترضيه عن الاهانة التى لحقت به من نقد على بك الذى انتحر حين وجد نفسه منحطاً مذنباً لانه يعلم ماذا كان ينتظره من عقاب ثم اقسم لو انه جاء حيا لقطعه قطعا بعدد ايام السنة ولاحرقه مع فضلات الكلاب .

وعن علاقات الصداقة بين ايران وانجلترا قال انه يقبل مثل هــذه الصداقة بكل رغبة وشوق ويأمل ان تبقى وتدوم .

ثم تلطف مع السفير ورحب به ثم عاد وجلس في مكانه وفي هذه الاثناء وضع جميع رجال البلاط رؤسهم عند أقدامهم(١) ثم أشار الشاه للسفير بالجلوس ثم تناول يده وأجلسه بجواره على الارض ولما لم يستطع السفير الجلوس متربعا على الارض كالايرانيين فقد ضحك الشاه فرفع السفير قبعته احتراما للملك وتحية فأمر الشساه أن يصبوا له خمرا مذ شرب معه نخب ملك انجلترا وبعد ذلك خلع عمامته عن رأسه لكي يعرب للسفير عن القيام بكامل الترحيب وبعد ساعة من المحادثات مع الشاه خرج السفير من المجلس •

ولكن مع كل هذا الترحيب فلا أعلم سبب تغير سلوك الشاه فجساة تجاهنا اذ لم يحظ السفير بمقابلة الشاه ولم يطلبه لمقابلته حتى عودتنا الى قزوين ولم ير الشاه بعد هذا الى أن توفى ، كما لم يأت أى من رجال البلاط لزيارة السفير ، وقد عرف فيما بعد أن مندوبى شركة الهند الشرقية غالبا قد استمالوا محمد على بك بالهدايا والرشاوى وجعلوه عدوا لنا ، وكان هذا الرجل وضيع الاصل ولكنه ظل يترقى حتى أصبح الشخص الوحيد الذى يعتمد عليه الشاه ويرعاه ، وكان يجعل الشاه يقابل كل من يريد هو ويرحب به ويقتل كل شخص يشاء • ولهذا كانت ترسل اليه الهدايا من كل جانب لجلب رضاه حتى أن دخله السنوى بلغ مايقرب من ١٤٠ الف جنيه استرلينى وهذا لايدعو للعجب ، اذ أن ناظر الخاصة الملكية كان دخله يبلغ أكثر من مائة الف جنيه استرلينى أيضا •

بعد هذا سافر السفير دورمر قطن من أشرف الى قزوين بناء على أمر الشاه ولم يره بعد هذا ، كما أن رجال البلاط والمقربين من الشاه نأوا عنه بل أن المراسم والآداب التى تجرى عادة للسفراء الاجانب لم تجر له • وفى قزوين وصله أمر من الشاه أن يبحث مع محمد على بك الناظر والخازندار مايتصل بمهمته أو يتعلق بها • ولكن محمد على بك لم يرد على أى من طلباته ردا صريحا ففيما يتعلق بالسير روبرت شيرلى قال أن الشاه لم تعد له به رابطة أو علاقة وأن مهمته فى أوربا لم يكن لها أساس صحيح وبعد أن

(١) أى أنهم سجدوا للشاه الذى لاندرى كيف سمح لنفسه بهذا وهو الذى كان يدعى أنه من أعقاب الإمام موسى الكاظم وكانت بيده السلطة الدينية الى جانب السلطة الدنيوية (المترجم) •

قرأ أوراق اعتماد روبرت شيرلي شكك فيها واخذها من السفير الانجليزي ليعرضها على الشاه ولم يكد الشاه يراها حتى عدها مزورة والقاها في النار وهو في شدة الغضب وأمر ان يخرج روبرت شيرلي من ايران .

وكتب السير توماس هربرت في كتاب رحلته ان محمد علي بك كان يكره روبرت شيرلي منذ مدة ولهذا سعى ضده لدى الشاه وجعل الشاه يغضب عليه بل انه تسبب في ان يهمل السفير الانجليزي ولايستقبله بعد ذلك .

حين علم روبرت شيرلي بسلوك الشاه نحوه ورسالته اليه تضايق جدا حتى مرض مرضا شديدا وتوفي في مدينة قزوين في ١٣ يوليو ١٦٢٨ (ذي القعدة ١٠٣٧ هـ) وقد احتفظت زوجته « تريزيا » بجثمانه كامانة حتى تنقله الى أوربا ، تدفنه هناك ويقال انهم دفنوه عند عتبة منزله(١).

وقد توفي السير دورمر قطن بعد تسعة أيام من وفاة شيرلي في نفس المدينة ودفن جثته حسب التقاليد المسيحية في مقابر الارمن هناك .

---

(١) ان المصائب والمتاعب التي تحملتها تريزيا زوجة روبرت شيرلي الحسناء في حياتها بسبب رحلاته وأسفاره الطويلة والكثيرة لم تنتهي بموت زوجها بل ان جمالها وثروتها الضخمة التي خلفها لها زوجها جرا عليها الكثير من المصائب الاخرى . فقد اثار رجال الدين المسلمون سابقة اسلام تريزيا ثم ارتدادها عن الاسلام عند زواجها من روبرت شيرلي ، واوغروا صدر الشاه عباس عليها ثم اشاعوا ان الشاه يريد احراقها حية ، بل ان بعض المؤرخين ذكروا ان هذا الامر كان سبب وفاة روبرت شيرلي اذ حين بلغه النبأ اعترته حمى شديدة توفي على اثرها .
وقد طلب الشاه عباس مقابلة تريزيا والمدعين بردتها وسالها عن سبب عداوة هذه الجماعة لها ولكنها لم تقل شيئا حتى لاتغضب الشاه عباس عليهم فكانت شجاعتها وصلابتها دافعا للشاه عباس على طمانتها ومواساتها وقال لها « انه من الاسهل على ملك ايران ان يقتل مائة رجل على ان يقتل امراة واحدة » .
مع كل هذا فان بعض رجال البلاط المسئولين استولوا على كل مجوهراتها واثاثها القيم بحجة انها مرتدة مما ادى الى مرضها مرضا شديدا في قزوين التي غادرتها الى اصفهان والتجأت للقسس الكرمليين حتى تحسنت صحتها وفكرت في ترك ايران مع جثة زوجها التي كانت قد نقلتها معها من قزوين الى اصفهان والاقامة في احدى الدول المسيحية'، وقد طلب القسس الكرمليون من امام قلي خان والي فارس الذي كانت تربطهم به صداقة

وعلاقات طيبة بان يمنح تريزيا جواز سفر . وقد وافق الوالي ولكن أحد رجاله طمع في الزواج من تريزيا ولهذا اخذ في تدبير المؤامرات واثارة المشاكل لها وكان منها أن طلب من شيخ الاسلام في اصفهان أن يتحفظ على تريزيا ويحضرها للمسجد لتقر باسلامها وقد اضطرب القسس الكرمليون من هذا الخبر ولجأوا الى امام قلي خان حتى تقرر في النهاية أن يعقد اجتماع في منزل مدير أعمال الوالي الذي كان أيضا من أصدقاء القسس الكرمليين . وقد أنكرت تريزيا في هذا الاجتماع سابقة اسلامها واصرت على بقائها على مسيحيتها . ومع وجود اتجاه للتحفظ على تريزيا في هذا المنزل الا أنه سمح لها في النهاية بالذهاب مع القسس الى ديرهم .

لم ييأس ذلك الرجل من الزواج من تريزيا ولجأ الى استخدام القوة فقاد جماعة من رجاله وذهب الى دير الآباء الكرمليين ولكن تريزيا كانت قد علمت بمقدمهم فهربت الى دير الأرمن واختبأت هناك ، فلما أنكر الآباء الكرمليون علمهم بمكان تريزيا قامت هذه الجماعة باهانة بعضهم وايذائهم ولكنهم لم يصلوا الى نتيجة ، وقد حدث هذا دون علم امام قلي خان والي فارس وبالتالي الشاه عباس الذي لم يكن موجودا في أصفهان . وقد تمكنت هذه الجماعة من الايقاع باحدى خادمات تريزيا واجبارها على افشاء مكان اختباء تريزيا حيث عثروا عليها وحملوها مقيدة الى منزل قائد الشرطة في اصفهان وهناك طلبوا منها أن تعلن اسلامها والا القوها في النار أو من على احد أبراج المدينة . ولكن تريزيا تمسكت بموقفها ثم صاحت فيهم غاضبة ، هل هذا السلوك المذموم جزاء خدمات زوجي العظيمة لشاه ايران، ان ماتفعلونه بعيد عن الرجولة والشهامة . . . » .

وقد شعرت هذه الجماعة بالخجل واضطروا الى نقلها الى منزل الوالي الذي طردهم وسمح لتريزيا بالعودة الى مسكنها . وفي النهاية سمح الوالي في أوائل سبتمبر سنة ١٦٢٩ (١٠٣٩ هـ) لهذه الزوجة البائسة بالخروج من ايران فسافرت في ١٨ سبتمبر حاملة جثمان زوجها متوجهة الى أوربا عن طريق حلب واستانبول وكان الشاه عباس قد توفي قبل هذا بثمانية أشهر أثناء وجوده بمصيف أشرف على بحر قزوين .

بقيت تريزيا ٣ سنوات في العاصمة العثمانية استانبول ، وفي أواخر ديسمبرسنة ١٦٣٤م (رجب ١٠٤٤ هـ) غادرتها متوجهة الى روماوقداستقبلها البابا أوربن الثامن بكثير من الاحترام ومنحها مركزا مرموقا في جماعة النساء الكرمليين وأسكنها على مقربة من كنيسة ماريا دلا اسكالا على نهر التيبر وقاموا بدفن جثمان زوجها في الكنيسة وحين توفيت تريزيا سنة ١٦٦٨ م (١٠٧٩ هـ) بعد عمر طويل دفنت الى جوار زوجها .

ومن المعروف أنه عندما كان السير روبرت شيرلي وزوجته تريزيا في روما سنة ١٦٢٣م (١٠٣٢ هـ) قام فان ديك الرسام الهولندي المشهور الذي كان في ايطاليا آنذاك برسم صورتين لهما تعدان من روائع أعماله

العلاقات الإيرانية الانجليزية

بعد وفاة الشاه عباس

العلاقات في عصر الشاه صفي :

لم تكن التجارة بين الانجليز والايرانيين مزدهرة في أواخر عصر الشاه عباس بسبب منافسة الهولنديين ، وفي سنة ١٠٣٤ هـ (١٦٢٥ م) انخفضت تجارة الشركة الانجليزية في ايران الى الحد الذى دفع توماس كريدج(١) رئيس المركز التجارى في اصفهان الى اغلاق فرع الشركة في تلك المدينة .



وبعد وفاة الشاه عباس حصلت شركة الشرقية الانجليزية في عام ١٠٣٨ هـ على قرار جديد من خليفته الشاه صفي فيما يتعلق بتجارة الحرير ولم يكن يتضمن كل الحقوق والإمتيازات السابقة للشركة . وبناء على هذا القرار الجديد أصبح من حق التجار الانجليز أن يكون لهم مندوب مقيم في اصفهان كما أصبح لهم الحق في الاتجار في مختلف انحاء ايران ، وحمل السلاح للدفاع عن انفسهم واقامة مراكز تجارية وفروع لهم في مختلف انحاء ايران ، والفصل في قضاياهم عن طريق مندوبهم .

---

(١) Thomas Kerridge (٢) Conte William Denbigh

ونتيجة لهذا القرار أرسل تشارلز الاول ملك انجلترا ابن عمه الكونت ويليام دينبيج(٢) وهو من عظماء انجلترا الى بلاط الشاه صفى وذلك فى شعبان ١٠٤٩ هـ (مارس ١٦٣٨ م) ، وكان هذا السفير يحمل رسالة يعرب فيها ملك انجلترا عن سعادته لاستمرار الصداقة بين الدولتين ، كما قدم الشكر لرعاية الشاه صفى للتجار والرعايا الانجليز فى ايران . وقد استقبل الشاه صفى السفير الانجليزى بكثير من الترحاب وكتب ردا على رسالة تشارلز ننقله فيما يلى :

نظاما للسطنة والشوكة والايالة والحشمة والعظمة والعز والامتنان

تشارلز ملك الانجليز

(بعد مقدمة المجاملات) وصل كتابكم المرسل الينا فى أحسن وقت وأدى ماتضمنه من مظاهر الصداقة واتحاد القلوب الى زيادة عناصر المودة وارتفاع درجات الصداقة والوداد . أما التوصية على صاحب العزة زبدة الاعيان الكابتن وليم فان الشفقة الملكية تشمله دائما . وقد قررنا ان ينجز اى عمل أوحاجه تكون له عندنا بمجرد أن يعرضه على وكلاء الديوان العالى والا يقع تقصير تجاه التابعين لسلطانكم وعظمتكم خصوصا الكابتين وليم ورفاقه ورجالهم الذين يترددون على هذه الديار . ومن دواعى الصداقة والالفة ان يتبع نفس هذا السلوك الحميد وتتجدد رياض الالفة والمعرفة بارسال الرسل والرسائل واذا كان لكم أى عمل أو مهمة فى ناحيتنا فاظهروه وأعلنوه من قبل الاتحاد والتوافق بلا تأخير أو مواربة حتى نقوم بانجازه بدوافع الاتفاق والصداقة الملكية .

ثانيا فانى انهى اليكم أن الحضرة الملكية الخاصة تستوجب أن يكون بها جمع من أرباب الصناعة والاساتذة المهرة فى كل فن ، وفى هذا الوقت فان بعض الاساتذة الحاذقين أحدهم فى صناعة المينا وواحد فى الساعات وآخر قاطع ماس وواحد صائغ ماهر وآخر صانع بنادق وواحد نقاش حاذق وآخر مدفعى تحتاجهم الحضرة ويوجدون الآن لديكم ومن سبل المحبة والوحدة أن تأمروا مندوبكم أن يرسلوا هؤلاء الاشخاص ومعهم تلاميذهم وأدواتهم مع ثقات من عندكم حتى يقوموا فى حضرتنا الشريفة بصناعاتهم

وخدماتهم وحتى لايتوقفوا عند شروعهم فى عملهم على العمال والادوات والمهمات • وهذا مما يؤدى الى زيادة دوافع الصداقة ولما كان الغرض هو تشييد مبانى المحبة والوداد وتمهيد قواعد الالفة والاتحاد فلا أطنب عليكم •

جعل الله ايام دولتكم وتوفيقكم مقرونة مع رضا البارى عز أسمه وجعل عاقبة امركم الى خير مآل بتوفيقه اللامتناهى بالخير والسعادة(١)•

يتضح من الرسالة السابقة أن الشاه صفى طلب من ملك انجلترا أن يرسل اليه فى ايران بعض الصناع المهرة فى الميناء والساعات والبنادق وغيرها ويجب أن نشير هنا الى ان الصناع الاجانب زادوا فى ايران زيادة كبيرة منذ عصر الشاه عباس ، وكما ذكر أحد السياح الفرنسيين(٢) فى مذكراته أنهم كانوا أيضا يتقاضون أجور باهظة من الحكومة الايرانية حتى أن مرتبات بعضهم كانت ألفين وخمسمائة جنيه فرنسى غير السكن والمأكل وذكر هذا السائح أيضا أن العمال الاجانب كانوا يعملون للشاه فقط وذكر تافرنيية فى كتابه شخصا اسمه رودلف كان الساعاتى الخاص للشاه صفى لكن فى النهاية أمر الشاه بقتله بسبب قتله لشاب ايرانى •

ومع أن العلاقات الايرانية الانجليزية كانت ودية فى عصر الشاه صفى كما سنذكر فى الفصل الخاص بعلاقات ايران وهولندا • ولكن الجزء الاكبر من تجارة ايران سواء الصادرات أو الواردات تحول الى ايدى التجار الهولنديين فى عصر هذا الملك • وأعفى الهولنديون من أداء الرسوم الجمركية • ولما كان هذا الامر مبعث قلق لمندوبى شركة الهند الشرقية الانجليزية فقد طلبت الشركة من تشارلز الاول أن يرسل رسالة الى شاه ايران يوصى فيها برعاية مصالح الشركة • وقد كتب تشارلز الاول فى الرسالة التى بعث بها الى الشاه صفى فى شوال ١٠٤٤ هـ (٢٧ مارس ١٦٣٥ م) يشكو من أن التجار الانجليز لايتسلمون الحرير فى المواعيد المحددة أو بالكميات اللازمة بالرغم من الاتفاقيات ووعود شاه ايران ولهذا

---

(١) من كتاب علاقات ايران وأوربا للدكتور خانبا بابيانى ويلاحظ ركاكة الاسلوب •

(٢) مذكرات القس سانسون المبشر المسيحى الذى ذهب الى ايران سنة ١٦٨٣ م (١٠٩٤ هـ) •

تلحقهم خسائر جسيمة • وهم يطلبون من شاه ايران ان يرعى مصالحهم وتنفيذ الاوامر التي سبق أن أصدرها فيما يتعلق بتجارة مندوبي شركة الهند الشرقية ويسلموهم مايلزمهم من حرير طبقا للاتفاقيات والمعاهدات السابقة وبالقيمة التي سبق تحديدها من قبل •

وقد ذكر الشاه صفي في رده على هذه الرسالة ان التجار الانجليز يتاجرون في ايران بحرية تامة ولا يعوق أحد عملهم ويأمل ان تحسن معاملة التجار الايرانيين في انجلترا ولايعوق أحد تجارتهم أو بيعهم وشراءهم لما يحتاجون من بضـــــائع •

ومع هذا اخذت دائرة تجارة الهولنديين تتسع في ايران يوما بعد يوم وتشتعل نار منافستهم مع الانجليز وتلتهب وسنة ١٠٤٩ هـ (١٦٣٩ م) حصل التجار الانجليز من حاكم بغداد على اذن بتخلية بضائعهم في ميناء البصرة وذلك حتى يوسعوا مجال تجارتهم في الخليج وينافسوا الهولنديين في العراق • ولكن هذا الامر ايضا لم يؤدى الى نتيجة مؤثرة وثبت لهم أنهم ان ارادوا النجاح في مساعيهم فعليهم اقامة مركز تجارى ثابت في البصرة وهذا ما حدث فعلا في سنة ١٠٥٣ هـ (١٦٤٣ م) •

عـلاقات ايـران والانجليز فى عصر الشـاه عباس الثانى والشاه سليمان

فى ذلك الوقت جمع الانجليز بعض السفن الحربية فى الخليج منتهزين الخلاف الذى كان قد حدث بين الحكومة الايرانية والهولنديين وهجموا على قلعة قشـم وسواحل الخليج الايرانية وحصلوا على امتيازات جديدة من الشـاه عباس الثانى • وعلى العكس فقد أختل الوضع التجارى لشركة الهند الشرقية الانجليزية فى بندر عباس وعندما اضطربت الامو بـين الهولنديين والحكومة الايرانية وخوفا من اندلاع الحرب قام مندوبو شركة الهند الشرقية بنقل أموال مركزهم التجارى من بندر عباس الى البصرة •

ولكن هذه الرسالة لم تؤد الى اية نتيجة • وكما كتب شـاردان فى ايـران أرسلوا بعض السفن الى البصرة وهدموا المركز التجارى الانجليزى هناك ، كما استولوا على مسقط من أيدى البرتغاليين • ولما كانت الحرب قد اندلعت بين الانجليز والهولنديين فى أوربا سـنة ١٠٦٢ هـ (١٦٥٤ م) بسـبب تصويب قانون الملاحة فى البرلمان الانجليزى ، فقد انقلبت المنافسة التجارية بينهما فى الهند وايران الى نزاع وحرب وهو ماسنفصله فى فصل آخر •

فى هذه الاثناء اغتمت الحكومة الايرانيـة الخلافات الانجليـزية الهولندية فالغت بعض امتيازاتهم • منها أنها امتنعت عن دفع جزء من دخل جمارك بندر عباس كانت تدفعه للانجليز سنويا • ولهذا اشتكت شركة الهند الشرقية الى ملك انجلترا الذى كان انذاك تشارلز الثانى • فكتب رسالة الى الشاه سليمان الصفوى فى هذا الشان مضمون جزء منها هو :

« كتبت الينا شركة الهند الشرقية فى غاية الخضوع أنها منذ خمسين سنة وتقديرا للخدمات الهامة التى قدمتها لصاحب الجلالة الشاه عباس الكبير خاصة بمساعدته فى الاستيلاء على قلعة قشم وجزيرة هرمز وبناء على



الشــاه عباس الثاني

عن صورة لاحــد الرسامين المعاصرين له

المادة الثالثة من الاتفاقية الخاصة فقد تقرر أن يدفع للشركة نصف الرسوم الجمركية على البضائع التى ترد او تصدر من هرمز الى جانب امتيازات اخرى وتشكو الشركة الآن من أن بعض مسئولى جلالتكم قد حرموهم من بعض حقوقهم منذ بضع سنوات كما أنهم قللوا الرسوم الجمركية التى تدفع للشركة الى حد أنها لم تعد تصل الى الف تومان » •

ثم طلب من الشـــاه سليمان أن يامر مسئوليه لدفع نصيب الشركة من الرسوم الجمركية وتادية مالم يدفعوه من قبل وأن يحترموا الاتفاقية فى المستقبل ايضا •

ولكن هذه الرسالة لم تؤد الى اية نتيجة • وكما كتب شاردان فى مذكراته فان الشيخ على خان زنجنه الوزير الاعظم الذى كان قد تاثر من مجىء السفير الانجليزى الى اصفهان ومن محتويات رسالة تشارلز الثانى قال يوما لمندوب شركة الهند الشرقية الذى يبدو وأنه كان فى ذلك الوقت هو « اتين فلير » يبدو انك الذى تحرض الانجليز كل يوم على المطالبة بمطالب لامعنى لها وترسل لنــا كل يوم شخصا يضع على كتفه ذراعين من قماش أحمر كسفير جديد • ان الحكومة الايرانية قد دفعت ثلاث اجر الخدمات التى قدمها الانجليز الف مرة ، ولسنا أول من خالف الاتفاقيات بل أنتم ولهذا فلنا الحق فى أن نعد هذا الاتفاق ملغيـا •

كانت قوة الهولنديين ونفوذهم فى الخليج أكثر كثيرا من الانجليز حتى نهاية القرن الثانى عشر الهجرى ، ولكن حدثت فى أوربا احداث أدت الى ضعف قوتهم فى أواخر هـــذا القـــرن •

فى سنة ١٠٨٣ هـ (١٦٧٢ م) أعلن لويس الرابع عشر ملك فرنسا الحرب على هولندا بسبب تدخلها فى النزاع بين اسبانيا وفرنسا وبعد ٤ سنوات للحق « دوكن(١)» قائد البحرية الفرنسية المشهور هزيمة منكرة بالقوات البحرية الهولندية فى البحر الابيض المتوسط التى كان يقودها رويتر(٢) القائد البحرى الهولندى المعروف • وبعد هـــذا تصالحت الحكومة الانجليزية مع هولندا بعد أن كانت تؤيد فرنسا وذلك تحت ضغط الشعب الانجليزى الذى كان يعارض فرنسا • بل وقامت بتأييد هولندا مثل بقية

---

(١) Duqueone (٢) Ruyter

الدول الاوربيه • ومن سنة ١١٠١ هـ (١٦٨٨ م) حينما ارتقى ويليــــام دى أورانج (١) رئيس حكومة هولند عرش انجلترا اشتركت انجلترا في اتحاد أكسبورج (٢) ضد فرنسا مثل هولندا أو من ذلك الوقت أصبحت السياسة الهولندية تحت تأثير سياسة انجلترا • وانتهى الخلاف بين هاتين الدولتين •

في تلك الاوقات تدهور مقام الهولنديين ومركزهم في آسيا بسبب الظلم والتعسف الذى ارتكبوه في الهند وبحر المشرق وعادت التجـــــارة الانجليزية الى الازدهار في القرن الثاني عشر • وفي سنة ١١٠١ هـ (١٦٨٨م) تركت الحكومة الانجليزيه جزيرة بمباى التى كان البرتغاليون قد غادروها الى شركة الهند الشرقية في مقابل ايجار زهيد كما سمحت للشركة بتكوين جيش لتنفيذ أهدافها وتولى مسئولية ادارة بمباى بنفسها ولهذا انتقل مركز شركة الهند الشرقية من سورت الى بمباى •

بعد هذا أخذت الشركة رويدا رويدا في الحصول على ممتلكات لهـــا والاستيلاء على الاراضى وأخذت في انتهاج سياسة استعمارية في الهند• وأدى نجاح الشركة الى كراهية شديدة لها ومنافسة من التجار في انجلترا حتى أن بعضهم كون شركة في سنة ١١١٠ هـ باسم الشركة العامة لتجارة الهند الشرقية واستطاعوا الحصول على قانون من البرلمـــان الانجليزى والغاء امتياز احتكار تجارة المشرق الذى كان قد منح من قبل لشركة الهند الشرقية وأخذت المنافسة تزداد بين هاتين الشركتين والشركات الاخرى التى أخذت تظهر بعد ذلك ، واتضح بعد وقت قصير أن هذه المنافسة كانت ضد أصول التجارة والسياسة الانجليزية • لهذا اتحدت كل الشركات القديمـــة وكونت شركة كبيرة باسم « شركة التجار الانجليز لتجارة الهند الشرقية» • ومنذ ذلك الوقت أصبحت شركة الهند الشرقية مؤسسة وطنية عامة • وقام ملك انجلترا بتعيين مديرى الشركة في مناصب رسمية كسفراء لدى مـــلوك الهند أو كقناصل أو ماشابه هذا وعن هذا الطريق زاد نفوذهم وسلطانهم •

---

(١) William d,orange (٢) Le Ligue d,auxbourg

العلاقات الإيرانية الانجليزية فى نهاية العصر الصفوى

بعد وفاة الشاه سليمان خلفه الشاه السلطان حسين وكان يميل الى الانجليز اكثر من ميله للهولنديين حتى انه ذهب ذات يوم مع مجموعة من نساء حرمه فى أصفهان الى المركز التجارى الانجليزى وخلع على المستر بروس(١) مدير المركز بخلعة من الملابس وسيف مرصع وأمر بدفع نصيب الشركة عن عام من رسوم جمرك بندر عباس ٠ وقد استقبله الانجليز استقبالا حافلا ووضعوا جميع مخازن الشركة تحت تصرفه حتى يعطى منها مايشاء لمرافقيه ٠



فى سنة ١١١٧ هـ أصبح الخليج مسرحا لنشاط القراصنة . ولما لم يستطع الانجليز القضاء عليهم قلت هيبتهم ونفوذهم فى الخليج ٠

وفى سنة ١١٣١ هـ هجم عرب مسقط على البحرين واستولوا عليها ثم استولوا على بعض الجزر الساحلية الايرانية ومنها جزيرة قشم بتحريض من الدولة العثمانية التى كانت تريد أن تستفيد من اضطراب

(١) Brace

الاوضاع الداخلية فى ايران ، وهجوم الافغان عليها • وقد اراد لطف على خان القائد الايرانى الشجاع واخو فتح على خان اعتماد الدولة الوزير الاعظم للشاه سلطان حسين التصدى لهم ولكن محمود الافغانى كان قد هاجم كرمان قادما من قندها رفاضطر لترك العرب وأسرع لصد الافغان وبقيت هذه الجزر تحت سيطرة العرب •

وفى سنة ١١٣٤ هـ هجم جماعة من البلوتش على كرمان وفارس وارسلوا فرقة قوامها اربعة آلاف من الفرسان للاستيلاء على بندر عباس فتصدت لهم القوات الانجليزية والهولندية وحافظت على مراكزها التجارية هناك من السلب والنهب •

والى هنا ينتهى تاريخ العلاقات الايرانية الانجليزية فى العصر الصفوى وتتلخص علاقاتهم بعد ذلك حتى اوئل العصر القاجارى كما يلى :

اغلقت المراكز التجارية الانجليزية وغيرها فى اصفهان فترة استيلاء الافاغنة على ايران وكان بندر عباس وجزر الجنوب غالبا عرضة لهجوم الافغان وشيوخ العرب • وكان نادر شاه افشار فى بداية حكمه لايحب الانجليز وكان ينظر اليهم بعين الشك والريبة لانه حين اراد مساعدة امام عمان سيف بن سلطان ثانى والقضاء على ثورة أتباعه بارسال اربعة آلاف من من المشاه والف وخمسمائة من الفرسان الى عمان أمتنع الانجليز عن تقديم سفنهم له لنقل هؤلاء الجند بينما قدم له الهولنديون سفينه واحدة ، ولكنه بعد أن جلس على العرش غير سلوكه تجاههم واصبح صديقا لهم ولكنه امتنع عن اعطاء امتيازت جديدة لشركة الهند الشرقية أثناء حكمه واكتفى بتحديد الامتيازات السابقة ودفع الف تومان سنويا من دخل الرسوم الجمركية لبندر عباس •

بعد مقتل نادر شاه اضطربت أوضاع ايران مرة أخرى ، واستمر هذا الوضع حتى ظهور كريم خان زند وفى سنة ١١٦٥ هـ أغلق المركز التجارى الانجليزى فى اصفهان ولم يفتح بعد ذلك • وفى سنة ١١٧٣ هـ / ١٧٦٠ م حينما كانت نار الحرب مشتعلة بين انجلترا وفرنسا فى أوربا وصلت الى بندر عباس اربع سفن فرنسية وقصفت المركز التجارى الانجليزى بالمدافع وأضرمت فيه النيران ونهبوا ما كان به ، ولهذا اضطرت شركة الهند الشرقية

الى نقل مركزها التجارى مؤقتا من بندر عباس الى البصرة وذلك حتى عام ١١٧٧هـ / ١٧٦٤ م وفى ذلك الوقت وافق كريم خان زند على أن تقوم للشركة باقامة مركز لها فى ميناء بوشهر تزاول تجارتها منه • ولكن حوالى سنة ١١٨٣ هـ - ١٧٧٠م اضطربت الاوضاع بين كريم خان والانجليز فاغلقوا مركزهم التجارى فى بوشهر وصار ميناء البصرة هو مركز تجارة شركة الهند الشرقية • وبعد أربع سنوات انتقل المركز الى بوشهر بسبب انتشار وباء الطاعون فى بغداد والبصرة واستقلت مجموعة من موظفى الشركة سفينتين الى ميناء بمباى ولكن كريم خان - الذى كان غاضبا عليهم - أرسل بعض السفن فى طريقهم استطاعت ان تأسر احدى السفينتين وحملت اثنين من مسئولى الشركة الى شيراز حيث سجنهما لمدة عام •

بموت كريم خان انتهى عصر سيطرة واستيلاء ايران على الخليج واخذت قدرة انجلترا تزداد فى البحر ولما كان هذا يخرج عن موضوع الكتاب فاننا لن نتعرض له •

مصــادر هـذا الفصــل

أهم المصادر التى تناولت تاريخ العلاقات الايرانية الانجليزية والتى وردت فى هذا الفصل هى :

١ ـ كتاب دون جوان الايرانى ترجمة المستشرق الانجليزى لسترانج لندن ١٩٢٦ ٠

٢ ـ شرح رحلة الاخوين شيرلى لندن سنة ١٨٢٥ وترجمتها الفارسية ٠

٣ ـ الشـاه عباس الاول تأليف لوسيان لوى بلان باريس ١٩٣٢ ٠

٤ ـ رحلة كرنليوس دى بروين الفارس والرسام الهولندى فى جزئين٠

٥ ـ رحلة شاردان الفرنسى فى عشر مجلدات طبع روين سنة ١٧٢٣ ٠

٦ ـ ايران والمسألة الايرانية تأليف لورد كيرزن لندن ١٨٩٢ فى جزئين٠

٧ ـ رحلة بيتردلا فاليه الايطالى ٨ أجزاء طبع روين ١٧٣٥ ٠

٨ ـ الخليج الفارسى تأليف سيرارنولدويلسون اكسفورد سنة ١٩٢٨٠

٩ ـ رحلة بابتيست تافرنيه الفرنسى جزئين باريس سنة ١٦٩٢ وترجمته الفارسية ٠

١٠ ـ أول رحلة الى روسيا وايران لانتونى جينكس تأليف دلمار مؤرجان وكوت لندن ١٨٨٥ ٠

١١ ـ تتويج الشاه سليمان تأليف شاردان ـ الترجمة الفارسية ٠

١٢ رحلة دون جارسيا سيلفا فيجورا باريس ١٦٦٩ ٠

١٣ ـ رحلة سير توماس هيدبرت لندن ١٦٧٧

١٤ ـ عالم آراى عباسى تأليف اسكندر بك منشى تركمان ٠

١٥ ـ تاريخ سير جون مالكون السفير الانجليزى لدى بلاط فتح على شساه قاجار ٠

١٦ ـ رحلة ماندلسلو الترجمة الفرنسية بواسطة آدم دى ديكفور باريس ١٦٧٩ ٠

١٧ ـ رحلة أولياروس سفير فردريك دون هلشتاين والذى جاء الى ايران سنة ١٠٤٦م (١٦٣٧ م) ٠

١٨ ـ مذكرات بارى عن رحلة انطونى شيرلى لندن سنة ١٦٠١ م ٠

١٩ ـ تاريخ الرحلات البحرية والبرية تاليف بورشاس جلاسجو ١٩٠٥ م مجلدات ٠

٢٠ ـ حالة ايران فى سنة ١٦٦٠ م تاليف « الاب » رافائيل دومانس طبعة شيفر سنة ١٨٩٠ ومقدمته ٠

٢١ ـ قصة السير انطونى شيرلى تاليف السيردينس روس Sir D. Roos لنـــــدن ١٩٣٣ م ٠

٢٢ ـ احسن التواريخ تاليف حسن بك ردملو ٠

٢٣ ـ تاريخ ايران تاليف سايكس Sir P.M. Sykes لندن ١٩١٧م٠

٢٤ ـ دائرة المعارف الفرنسية ٠

٢٥ ـ منتظم ناصرى جـ٢ تاليف محمد حسن خان صنيع الدولة ٠

٢٦ ـ « مناظر ايران وما يلفت النظر فيها » تاليف اندريه دوليه ـ دلاند باريس سنة ١٩٧٣ م ٠

٢٧ ـ اقدم العلاقات بين ايران وروسيا تاليف سيد محمد على جمال زاده ملحق مجله كاوة المجموعة الثانية ٠

الفصل الثالث

علاقات ايران وهولندا

علاقات ايران وهولندا

بداية تجارة الهولنديين مع دول المشرق :

قبل أن نتحدث عن تاريخ العلاقات الايرانية الهولندية يحسن أن نذكر نبذة عن تاريخ تجارة الهولنديين مع دول المشرق والهند ٠

كان الهولنديون يتاجرون مع الهند ودول المشرق عن طريق ليشبونه عاصمة البرتغال وذلك من منتصف القرن السادس عشر الميلادى لان هولندا فى ذلك الوقت كانت من بين مستعمرات الامبراطورية الاسبانية ٠ ولما كان فيليب الثانى يريد أن يحتكر تجارة المشرق لاسبانيا والبرتغال لهذا كان يحتجز السفن الهولندية فى الغالب ويمنعها من الاتجار مع المستعمرات البرتغالية فى المشرق ولكن الهولنديين الذين يحبون التجارة كثيرا ويريدون مشاركة البرتغاليين فى أرباح التجارة مع الشرق لم يتراجعوا واستطاعوا الاتجار مع الدول الاسيوية عن غير طريق اسبانيا ٠

وفى سنة ٩٩١ هـ (١٥٨٣ م) قام أحد أهالى مدينة هارلم الهولندية اسمه جان هويجن فان لينشوتين(١) بالسفر برفقة أسقف جوا الى الهند وظل بها حتى سنة ١٠٠١هـ (١٥٩٢م) وحصل على معلومات هامة عن المنتجات التجارية وطرق السفن الى الهند ووسائل المنافسة مع التجار البرتغاليين وغير ذلك ، وحينما عاد الى هولندا نشر معلوماته هذه كما كتب كتابا لارشاد البحارة الهولنديين الذين يذهبون للمشرق بين فيه الطريق البحرى بين أوربا والشرق مع الجزر والموانى التى تقع على الطريق وهبوب الرياح الموسمية والتيارات البحرية فى المحيطين الاطلسى والهندى وغير هذا من المعلومات المفيدة كما أضاف للكتاب ببعض الخرائط والجداول ٠

وبعد عودة لينشوتين بقليل قام تجار امستردام بارسال كورنليس هوتمان(٢) - الذى كان قد سافر قبل ذلك عدة مرات على السفن البرتغالية الى الهند - الى لشبونة ليجمع لهم معلومات كافية وكاملة عن تجارة الهند

---

(١) Jan Huyghem Van Iinschoten

(٢) Cornelis Houtman

الشرقية وعاد هوتمان سنة ١٠٠٣ هـ (١٥٩٤ م)من البرتغال الى هولندا وابدى استعداده لقيادة مجموعة من السفن الهولندية يحمل عليها مجموعة من التجار الهولنديين الى الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح وقد وافقه تجار امستردام على هذا وارسلوا اربع سفن تحت قيادته الى « الناحية الاخرى من رأس الرجاء الصالح » سنة ١٠٠٧ (١٥٩٨ - ١٥٩٩ م) وعاد هوتمان في العام التالى الى هولندا وكان ثلثا مرافقيه قد هلكوا اثناء الرحلة واحترقت احدى سفنه ولم يتم عمل كبير في التجارة سوى عقده لاتفاقية مع ملك بونتام Bontam في جزيرة جاوة حصل بمقتضاها على حرية السفن الهولندية في التجارة مع مجموعة جزر الهند الشرقية ·

بعد هذا ارسل التجار الهولنديون سفنا متتابعة الى الهند وجزر جنوب شرق اسيا من بينها خمس عشرة سفينة عبرت رأس الرجاء الصالح فيما بين ١٠٠٧ ، ١٠١٠ هـ ·

في تلك الاثناء تكونت عدة شركات تجارية هولندية واتحدت هذه الشركات سنة ١٥٩٧ م (١٠٠٥ هـ) في شركة كبيرة واحدة باسم « شركة التجارة مع الدول النائية » وفي سنة ١٦٠٢ (١٠١٠ هـ) وحدت الحكومة الهولندية الشركات المختلفة التي كانت تتاجر مع الهند الشرقية - وكانت تتنافس فيما بينها غالبا - في شركة كبيرة باسم « شركة الهند الشرقية الهولندية » واعطتها مطلق الحرية في التجارة لمدة ٢٠ عاما ·

وقد أخذ الهولنديون منذ عام ١٥٩٩ م (١٠٠٨ هـ) في منافسة التجارة الانجليزيةفي العطارة والتوابل وتسببوا لهم في خسائر فادحة وكان هذا الامر - كما ذكرنا في الفصول السابقة - سببا في تأسيس شركة الهند الشرقية الانجليزية ·

في سنة ١٠١١ هـ حطم الهولنديون مجموعة من السفن البرتغالية بالقرب من بونتام وشقوا طريقهم الى جزر ملوك او جزر التوابل وفي العام التالى هددوا ميناء جواء مركز تجارة البرتغاليين في الهند وفي سنة ١٠٢٨ هـ (١٦١٩ م) أستولوا على جزيرة جاوة ايضا وجعلوا مدينة باتافيا Batavia (جاكرتا حاليا) عاصمة ومركزا تجاريا لهم · ومنذ سنة ١٠٤٧ هـ (١٦٣٧ م) أخذوا في اخراج البرتغاليين من جزيرة سرنديب

(سيلان) وبعد ثلاث سنوات اى فى سنة ١٦٤١ م استولوا منهم على شبه جزيرة ملاكا Malaca · وفى سنة (١٠٦٣هـ)(١٦٥٣) سقطت راس الرجاء الصالح التى كانت أهم محطة فى الطريق بين أوربا والهند فى ايديهم · كما سقطت فى نفس هذا العام تقريبا كل المستعمرات البرتغالية فى المشرق فى قبضة الهولنديين ·

بداية تجارة الهولنديين مع ايـــران :

بعد أن استولت ايران على جزيرة هرمز من أيدى البرتغاليين وجعلت بنــدر عباس مركزا لتجارة الخليج وجد الهولنديون طريقهم الى بندر تاز واسسوا هناك مركزا لتجارتهم فى ســنة ١٠٣٢ هـ (١٦٢٣ م) وكانت ذريعتهم للقدوم للخليج والاشتراك فى تجارة ايران انهم أثناء القتــال بين السفن الانجليزية والبرتغالية عاونوا الانجليز ·

ولمــا كان الشاه عباس آنذاك مشغولا فى حرب العثمانيين للاستيلاء على جزء من بلاد بين النهرين والعراق (بغداد) وكان يقاتل حافظ أحمد باشا القــائد التركى حول هذه المدينة فانه لم يعترض على الهولنديين ·

بعد هذا بقليل قامت شركة الهند الشرقية الهولندية بارسال شخص اسمه هوبرت فيسنيك(١) كسفير الى بلاط اصفهان وطلبت من الشــــاه عباس الذى كان قد عـــــاد منتصرا من حرب بغداد أن يشترك التجاره الهولنديون فى تجارة الحرير · وقد استقبل الشـــاه عباس هذا الســـفير بالترحاب وعقد بين الطرفين اتفاق فى ٢١ نوفمبر ١٦٢٣ م · (٢٦ محـــــرم ١٠٣٣ هـ) فيما يلى بعض أهم مواده :

١ ـ يسمح الشاه الايرانى لكل رعايا هولندا بالسفر فى كل أنحــاء ايران بحرية تامة ولهم حرية شراء أو بيع أى بضاعة ·

٢ ـ يعفى التجار الهولنديون من دفع أية رسوم نقدا فيما عدا رســوم الطرق ولكن ليس لهم الحق فى استيراد أو تصدير بضاعة تزيد عن الحد·

٣ ـ اموال الهولنديين سواء البضائع أو النقد تخضع لحريتهم فى

---

(١) Hubert Visnich

للدخول والخروج الا البضائع المنوعة ويستطيون السفر مع بضائعهم فى ايـــــران ٠

٤ ــ يسمح للهولنديين باستخدام الاوراق والاوزان المستعملة فى بلادهم فى معاملاتهم التجارية ٠

٥ ــ اذا توفى احد الرعايا الهولنديين فى أى مكان بايران فان الحكومة الايرانية تتعهد بتسليم أمواله الى احد مواطنيه فى ذلك المكان أو الى مندوب شركة الهند الشرقية الهولندية ٠

٦ ــ على المسئولين الايرانيين مساعدة التجار الهولنديين فى تهيئـــة المسكن والمأكل ووسائل الحمل والنقل وما شابه ذلك ، وتوصيلهم من مدينة الى أخرى اذا اقتضت الضرورة ٠

٧ ــ يعد مركز تجارة شركة الهند الشرقية الهولندية آمنا من الهجوم أو التعرض له ولا يحق لاى مسئول قضائى الدخول فيه دون اذن وللهولنديين الحق فى الدفاع ومقاومة أى هجوم ٠

٨ ــ يسمح للهولنديين باقامة كنيسة لهم فى ايران ٠

٩ ــ اذا دخل احـد الرعايا الهولنديين فى الاسلام فان مندوب الشركة يستطيع ان يلقى القبض عليه فى أول فرصة ويستولى على أمواله ٠

١٠ ــ يستطيع التجار الهولنديون تصدير أى سلعة من ايران ســوى الخيل والبضائع التى تمنع الدولة تصديرها ٠

بعد عقد هذا الاتفاق ارسلت الحكومة الهولندية خطاب شكر الى الشاه عباس ، وقام الشاه عباس ــ الذى كان ينظر بعين الحب والرضـــــــا الى الهولنديين ــ بارسال أحد رجال بلاطه واسمه موسى بك كسفير الى هولندا للعمل على اقامة علاقات الود والصداقة معها ضد حكومتى أسبانيا والبرتغال وحملة برسالة ننقلها فيما يلى :ــ

رب العالمين عـــز شـــانه

نظام السلطنة والشوكة والنصفة والابهة والاقبال ملك التدبير ٠

الى المجلس العالى والمحفل المتعالى حضرة رفيع المرتبة عالى المنزلة عز السلطنة والشوكة ٠ عظيم الجلالة والانتساب حمى المملكة موطن العدل الرفيع الجاه والمحبة ، من له المودة شعارا ، حسن الاطوار ، سليل السلاطين العظام ، خلاصة الملوك رفيعى الجاه ، اعظم الولاة شوكة فى الديانة المسيحية أعدل الملوك المتمكنين فى بلاد الفرنجة الملك ذو الجاه عظيم الاداة صاحب الامر فى الممالك فسيحة المسالك ٠٠٠٠

بعد هذا فانه نتيجة لدواعى المحبة وما يقتضيه ما بيننا وبين حضرات السلاطين العظام المسيحيين والملوك رفعى الجاه الفرنجية من روابط الصداقة والوداد وضوابط المصادقة والاتحاد المرعية وبعد أن فتحت أبواب المجىء والذهاب والرسل والرسائل فقد كنا ننتظر أن تراعى هذه الظاهرة من ناحيتكم وتظهر اثار الوحدة والاتحاد ولكن لم يحدث هذا خلال هذه المدة حسب التقدير الالهى لم يجىء احد من قبلكم الى ديارنا وفى هذه الاثناء وصل حامل الرسالة المتضمنة أسلوب المحبة واطلعنا على حقيقة حالكم مما أدى الى سرورنا وانبساطنا وغبطتنا ، وقد اطلع مبعوثكم علىأطوار بلادنا واوضاعها ثم عاد ، ومن واجبات المحبة والصداقة ان ترعى هذا المسلك المرضى على عكس مامضى وأن نفتح أبواب الالفة والمعرفة وأن نقوى قواعد الصداقة والمحبة عن طريق الرسائل المستمرة المشتملة على المودة والالفة وألا نسمح بالتنافر والتغير وأن نسمح لمرافقينا ورجال مملكتنا بالقدوم الى هذه المملكة فى غـاية الاطمئنان والامان ٠ ومزاولة الشراء والبيع حسبما يريدن وأن يتصرفوا وفقا لما يشاءون فلن يستطيع أحد فى دولتنا من منعهم ويمكنهم شراء أو بيع متاع أو بضاعة فى هذه البلاد أو شرائها والعودة الى بـلادهم موفقين ٠

ونأمل أن تأمروا لكى تزداد قواعد المحبـة والصداقة ، ولما كـان الغرض هو اظهار المحبة والصداقة فاننا لم نطنب ، جعل الله عواقب الامور مقرونة حسب رضـاه بالخير وجعل التوفيق والسداد ــ بتقديره الالهى ــ ممهدا لـكم وسديدا ٠

وقد وصل موسى بك الى مدينة لاهاى فى جمادى الاولى ١٠٣٥ هـ (فبراير ١٦٢٦ م) وقدم رسالة الشـاه عباس وهداياه الى ملك هولنـدا وقدم السفير الايرانى مقترحاته الى الحكومة الهولندية بناء على توجيهات الشـــاه عباس واهمها :

١ ـ تستدعى الحكومة الهولندية كل سفرائها ومندوبيها من الاراضى العثمانية وتفتح ابواب تجارتها مع ايران لان التجار الهولنديين لايتمتعون فى الاراضى العثمانية بالامتيازات والحرية التى يتمتعون بها فى الاراضى الايرانيـــة ٠

٢ ـ يعطى شـاه ايران الحرية الكاملة للتجار الهولنديين فى شراء او بيـع اية بضائع فى ايران ويوصى مأمورية أن يحسنوا معاملة الهولنديين والا يحصلوا منهم على اية رسوم أو اموال ٠

٣ ـ يتعهد السفير الايرانى بأن ايران حين تسترد جزر هرمز وقشـم وميناء جمبرون من ملك اسبانيا فانها سوف تغلق الطريق التجارى البحرى فى الخليج فى وجه السفن الاسبانية والبرتغالية لصالح الهولنديين اصدقاء ايران وحتى يستطيع التجار الهولنديون مزاولة التجارة فى الخليج بحرية تامــــة ٠

٤ ـ لـما كانت بعض قلاع مسقط ولارك ماتزال فى ايدى البرتغاليين فـان شـاه ايران على استعداد لارسال قواته البرية والبحرية للاستيلاء على هـذه القلاع بمساعدة القوات البحرية الهولندية بشرط أن تقبل الحكومة الهولندية نفس الشروط والقواعد التى قبلتها شركة الهند الشرقية الانجليزية فى مساعدتها للحكومة الايرانية لاسترداد جزيرة هرمز ٠

ولكن الحكومة الهولندية كانت قد حصلت قبل هذا من الشاه عباس على ماتريد من امتيازات طبقا للاتفاقية التى اشرنا اليها وكانت ترى أن حربها مع الحكومة الاسبانية فى الخليج « الفارسى » لن تستفيد منها ، ولهذا لم تعط للسفير الايرانى ردا صريحا أو ايجابيا وعاد الى آسيا فى جمادى الثانى سنة ١٠٣٦ هـ (١٦٢٧ م) برفقة جان فيبرز كوين (١) حاكم مدينة باتافيا حاملا رسالة مجاملة للشـــاه عباس ٠

---

(١) Jan Fieberz Coen

وقد وصل موسى بك فى رمضان ١٠٣٨ هـ الى أصفهان برفقة سفير اسمه جان شميث(١) ارسله معه حاكم باتافيا وذلك بعد اربعة اشهر من وفاة الشاه عباس وقدم الرسائل والهدايا التى ارسلها معه حاكم هولندا الى خليفته الشاه صفى ٠

بعد وفاة الشاه عباس انتهز الهولنديون الفرصة وأخذوا فى مقاومة مندوبى شركة الهند الانجليزية عن طريق استمالة المسئولين فى الحكومة الايرانية ورفع أسعار البضائع الايرانية وكان هدفهم هو اخراج الانجليز بأية وسيلة من المراكز التجارية والموانى فى الخليج ٠ ولكن الشاه صفى خليفة الشاه عباس جدد الامتياز الذى كان لشركة الهند الشرقية الانجليزية لتجارة الحرير فى ايران بشروط جديدة تحفظ مصالح ايران بشكل احسن ٠

تحول جزء هام من تجارة ايران الى أيدى الهولنديين فى زمن الشاه صفى واعفتهم الحكومة الايرانية من دفع الرسوم والجمارك على الواردات وكانت أهم الحاصلات من الهند وجزر جاوه وسومطرا مثل الفلفل والزعفران ومختلف انواع العطارة ترد عن طريقهم الى ايران وكانت السفن الهولندية تبحر باستمرار بين ايران والهند بل انهم فى سنة ١٠٥١ هـ (١٦٤١ م) كانوا يبيعون البضائع الاوربية فى ايران بأقل من قيمتها الاصلية وذلك لكى يحتكروا تجارة البضائع الاجنبية فى ايران ٠

هجوم الهولنديين على قلعة قشم :

فى اواخر سنة ١٠٤٦ هـ (ابريل ١٦٣٧ م) وصل الى ايران مندوبون من قبل فردريك دوق هلشتاين(٢) لبدء التجارة مع ايران والحصول على امتياز تصدير الحرير منها وقابلوا الشاه صفى فى اصفهان واستقبلهم ملك ايران بكثير من الترحاب ٠

وقام الهولنديون بمساع لمنع هؤلاء المندوبين من تحقيق هدفهم حتى لزيارة الوفد فى نفس يوم وصوله وقال لهم صراحة ان مهمتهم ضد مصالح ان نيكولاس جاكوبس اوفرشل (٣) مندوب الشركة الهولندية ذهب

---

(١) Jan Smidt
(٢) Frederic duc de Hole Stien
(٣) Nicolas Jacobs Over Schle

ومنافع شركة التجارة الهولندية وانه سوف يعارضهم بناء على أوامر الشركة . ثم قام برفع قيمة كل حمل من الحرير من ٤٢ تومانا الى ٥٠ تومانا على الفور وبهذا منعوا الشاه من عقد اتفاق مع مندوبى دوق هلشتاين لتجارة الحرير ولكن بعد ان غادر هؤلاء المندوبين ايران خفضوا قيمة الحرير الى ٤٤ تومانا . وقد غضب شاه ايران من هذا التصرف وأصدر أمرا فى سنة ١٠٥١ هـ بتحصيل الرسوم الجمركية على البضائع الهولندية التى كانت معفاة منها حتى ذلك الوقت . وعارض الهولنديون بدورهم وجمعوا قواتهم البحرية فى الخليج .

وفى خريف سنة ١٠٥٥ هـ (١٦٤٥ م) أى فى السنة الرابعة لجلوس الشـــاه عباس الثانى على العرش ، هاجموا قلعة قشـــم . وفى نفس الوقت ارسلوا بعض السفن الى جزيرة هرمز وسواحل الجنوب ليمنعوا التجـــار الهنود وشركة الهند الشرقية الانجليزية من الاتجار مع ايران ولـكن الحرارة الشديدة قضت على بعض ملاحيهم ولم يصلوا الى نتيجة من هذه العمليـــة فاضطروا لمصالحة الشاه وقدموا اليه والى المسئولين الايرانيين بعض التحف والهدايا فاعفيت بضائعهم مرة أخرى من الجمارك على اذن بشراء الحرير بسعر ٤٦ تومانا لكل حمل(١) .

فى الوقت الذى حدث فيه خلاف بين الهولنديين والحكومة الايرانيـــة على سعر الحرير كما ذكرنا ، جاء أحد الامراء العرب ــ وكان قد استرد مسقط من ايدى البرتغاليين ــ الى هرمز واقترح على كارل جونستانت(٢) مندوب

(١) يذكر السير ارنولد ويلسون فى كتابة « الخليج الفارسى » هذه الاحداث بصورة اخرى نقلا عن مذكرات « ج . بروس » فيقول فى ١٦٤٥ ــ ١٦٤٦ » لجـأ التجار الهولنديون الى القوة لكى يرعبوا الايرانيين ويحصلوا على حق احتكار تجارة ايران وهو ماسبق أن اقترحه مندوبو شركة الهند الشرقية على رؤسائهم مرارا ولم يقبل . فجمعوا سفنا عديدة فى الخليج وهاجموا قلعة قشم فى خريف سنة ١٦٤٥ فارتعد شاه شـــاه ايران من هذا الهجوم وطلب الصـــلح من الـكموبور بلوك Commodore Blook قـائد السفن الهولندية على أن يمنح الهولنديين امتيازات تجـارية خاصـــة وتوجه بلوك لاصفهان وقابل الشاه وعقد اتفاقية بمقتضاها يشترى الهولنديون أيـــة كمية من الحرير من أى مكان فى ايران ويصدرونها دون دفـع رسوم جمركية، وقد تسبب هذا فى خسارة كبيرة لتجارة الانجليزية وضعف الروابط التجارية التى كانوا قد اقاموها بين ايران والسواحل العربية .

(٢) Karel Gonstant

الشركة الهولندية ان يستعمل سواحل الجزيرة العربية للتجارة مع القطيف والبصرة بدلا من الموانى الايرانية ووعده بتهيئة الجمال اللازمة لحمل البضائع الى مسقط ومن هناك سوف يتعهد لهم امير مسقط باعداد وسائل النقل . ولكن الهولنديين لم يتقبلوا هذا العرض خوفا من ان يغضب شاه ايران منهم . وتصادف ان الشاه أرسل الى الهولنديين فى نفس ذلك الوقت رسالة ذكر فيها ان رعاياه يمكنهم بسهولة الاستغناء عن التوابل الهندية التى كانت أهم سلعة للهولنديين لان فى ايران بعض الاعشاب افضل من الفلفل والقرنفل الهندى وأشد منها . وقد أدت هذه الرسالة الى قلق الهولنديين واضطرابهم نظرا لأنهم كانوا يبيعون فى ايران اكثر من ثمانمائة طن من التوابل كل عام . وكانوا يستخدمون ثمنها فى شراء الحرير ، ولهذا لم يقبلوا عرض الامير العربى الذى ربما كان سيتسبب فى غضب شاه ايران عليهم .

منافسة التجار الهولنديين والانجليز :

بعد ان تصالح الهولنديون مع الشـاه عباس الثانى وأعفيت بضائعهم مرة اخرى من الرسوم الجمركية صمموا على ابعاد سيطرة الانجليز عن سواحل الخليج ، لهذا سارعوا بارسال ثمان سفن حربية الى البصرة وهدموا المركز التجارى الانجليزى فى هذه المدينة . بعد ذلك ايضا قـام العرب بتحريض من شركة الهند الشرقية الهولندية ومساعدتها بطـرد البرتغاليين من مسقط سنة ١٠٦٠ هـ (١٦٥٠ م) فاتسعت دائرة نفـوذ الهولنديين فى الهند والخليج . وفى نفس العام وصلت الى بندر عبـاس احـدى عشرة سفينة هولندية حاملة كثيرا من البضائع . وبعد عامين احضر الهولنديون بضائع الى ايران تصل قيمتها الى حوالى ٢٢٠ الف جنيـه استرلينى فالحقوا خسارة كبيرة بالتجارة الانجليزية ومع كل هذا ولانهم كانوا قد طلبوا من الشاه عباس الثانى ان يمنحهم امتيازات الانجليز ولم يقبل فان التجارة الانجليزية نفسها مع ايران قد انخفضت الى حد كبير ولكنها لم تتوقف .

وفى سنة ١٠٦٢ هـ (١٦٥٢ م) اشتعلت الحرب فى اوربا بين انجلترا وهولندا وكان سببها القانون الذى اصدره كرومويل(١) والمعروف باسـم

(١) Cromwell

قانون الملاحة (١) في ٩ اكتوبر ١٦٥١ م (١٠٦١) وبموجبه لايجوز للسفن الاوربية أن تحمل) الى انجلترا سوى البضائع التى تنتجها الدول التابعة لها تلك السفن واعطى حمل ونقل البضائع الامريكية والاسيوية الى السفن الانجليزية .

وقد رأى الهولنديون أن هذا القانون يضر بمصالحهم التجارية فدخلوا في حرب مع انجلترا اعتمادا على قوتهم البحرية وبتشجيع من قائديهم البحريين المشهورين ترومب (٢) وروبيتر(٣) واستمرت هذه الحرب عامين.

بعد اعلان هذه الحرب بقليل وصلت بعض السفن الهولندية الى ميناء سورت الهندى ومنه الى الخليج وعرضوا على البرتغاليين أن يتعاونوا معهم ضد شركة الهند الشرقية الانجليزية . ليكفوا يد الانجليز عن بحار آسيا . ولكن لم يقبلوا هذا العرض . واستولى الهولنديون وحدهم على ثلاث سفن انجليزية على مقربة من ميناء جاسك . وفى العام التالى اغرقت خمس سفن هولندية سفينتين انجليزيتين كبيرتين قرب بندر عباس وأسروا ثلاثين انجيزيا .

وفى سنة ١٠٦٤ هـ (١٦٥٤م) الحق بليك(٤) القائد الانجليزى هزيمة بالقوات البحرية الهولندية فى أوربا مما اضطر هولندا لطلب الصلح . وطبقا للمعاهدة التى عقدت بين الدولتين تحسنت أحوال الانجليز المضطربة فى بحار آسيا الى حد ما ودفعت الحكومة الهولندية ٨٥٠٠٠ جنيه انجليزى غرامة لشركة الهند الشرقية الانجليزية .

وفى عصر الملك تشارلز الثانى اشتعلت الحرب مرة ثانية بين الدولتين سنة ١٠٧٩ هـ (١٦٦٤ م) واستمرت حتى بداية سنة ١٠٧٨ هـ (يونيو ١٦٦٧ م) وانتهت بهزيمة انجلترا ولكن هذه الحرب لم تؤثر بشكل كبير على الاوضاع فى الخليج .

فى ذلك الوقت ــ أى سنة ١٠٧٥ هـ (١٦٦٤ م) ـ أسست شركة فرنسية باسم شركة الهند الشرقية أيضا ، فظهر منافس جديد للهولنديين والانجليز فى تجارة الشرق .

---

(١) Acte de ma Navigation
(٢) Tromp (٣) Blake (٤) Rugier

وكان نفوذ هولندا وقدرتها فى الخليج اكبر كثيرا من انجلترا حتى اواخر القرن الحادى عشر للهجرى ، ولكن هذا النفوذ والقدرة اخذتا فى الضعف منذ أواخر ذلك القرن بالتدريج للاسباب التى سنذكرها •

بعد أن بدأ لويس الرابع عشر حكمه الاستبدادى فى فرنسا ، أعلن الحرب على اسبانيا وهولندا لكى يعيد حدود فرنسا الى طبيعتها كما كان يقول • وفى سنة ١٠٨٧ هـ (١٦٧٦ م) الحقت القوات البحرية الفرنسية هزيمة بالقوات الاسبانية والهولندية فى البحر المتوسط وقتل رؤيتر القائد البحرى الهولندى المشهور • وقد ساعدت انجلترا فرنسا فى بداية هـــذه الحرب وكانت تحارب الهولنديين ، ولكن بعد أن اعتلى ويليام دى أورانج(١) عرش انجلترا اتحدت انجلترا وهولندا وأصبحت حكومة هولندا تابعـــة لحكومة انجلترا • ولما كان الهولنديون قد فقدوا حيثيتهم واعتبارهم فى ايران فى ذلك الوقت بسبب ظلمهم وتعسفهم فقد أخذ نفوذهم يقل رويدا رويدا فى الخليج وسواحل ايران وازدهرت تجارة شركة الهنـد الشرقيـة الانجليزية •

سبب نجاح الهولنديين فى تجـارة الشرق :

يرجع السبب فى نجاح تجارة شركة الهند الشرقية الهولندية فى الهند وايران الى أن الحكومة الهولندية كانت تتدخل فى شئون تلك الشركة ولم تكن تتوانى عن أية مساعدة أو عون ، كما أن الهولنديين عندما دخلوا ميدان تجارة الشرق أخذوا فى جمع المعلومات الدقيقة عن تجارة الدول الشرقيـة ودفع الوطنيون الهولنديون فى جميع أنحاء البلاد مبالغ كبيرة لانجاح اهداف الشركة • واعتزمت شركة الهند الشرقية الهولندية الاستيلاء على الجـزر المنتجة للتوابل وابعاد أى اناس أخرين عنها ، بينما لم يكن للتجـار الانجليز أو البرتغاليين الذين يعملون فى تجارة الشرق أمل كبير فى حماية دولهم لهم وكانت مؤسساتهم التجارية فى الشرق دون حـسام أو حافظ ، كما أن الانجليز خصصوا مبالغ قليلة لتجارة الشرق ، وكانوا يستخدمونها فى مختلف الاغراض ، كما أن الدولة لم تكن تساعدهم وكانت شركة الهنـد الشرقية الانجليزية شركة خاصة أو شخصية بعكس الشركة الهولندية

---

(١) William d' Orange

التى كنت شركة وطنية ، ولهذا كان النصر حليف الشركة الهولندية فى المنازعات أو المنافسة التى كانت تحدث بين الشركتين فى آسيا ، ولكن عندما غيرت الشركة الانجليزية سياستها فى الشرق ـ كما سبق أن ذكرنا فى مصل العلاقات الايرانية الانجلزية ـ وقامت الحكومة الانجليزية بحمايتها وتقويتها فان دائرة نفوذ الشركة فى الشرق أخـــذت فى الاتساع وأخذت تقضى على منافسيها بالتدريج ٠

ازدهرت التجارة الهولندية كثيرا فى عهد الشاه عباس الثانى ، وكان حجم تعاملهم التجارى أضعاف حجم التعامل الانجليــزى أو الاســبانى والبرتغالى . وكانت البضائع التى يجلبها الهولنديون الى ايران اغلبهــا من المصنوعات الاوربية المختلفة وأكثرها من الحاصلات الهندية وكانت أهم المصنوعات الاوربية هى الجوخ الهولندى بألوانه المختلفة والحاصـــلات الهندية مثل التوابل المختلفة والسكر والنيلة والاخشاب الثمينة والعطور والفضة والرصاص والنحاس والمنسوجات الصوفية وماشابه هـــــذا ٠ ولم تكن الشركة الهولندية تدفع أية رسوم جمركية على واردتها فى ايران ، ولكنها كانت مضطرة لشراء ستمائة حمل حرير على الاقل كل عام بالثمن الذى تحدده الحكومة الايرانية ولهذا لم يكن الهولنديون يربحون كثيرا من الصادرات الايرانية وكانت أكثر أرباحهم من وارداتهم الى ايران ، وبالاضافة الى الحرير كانوا يشترون (القطيفة) المخمل والاقمشة الصوفية والسجاد وخاصة الفاكهة والخمور أيضا ، وأحيانا كانوا يصدرون الى أوربا الخزف الايرانى الذى يصنع فى مشهد وكرمان وكان فى صنعه يشبه الخزف اليابانى والصينى ، وكانوا يستعيضون به عن الخزف الصينى واليابانى ، وكـان تعاملهم يتم بالريال الايرانى غالبا بالقرش الاسبانى ٠

وقد استمر الهولنديون مدة يحملون المرمر والاحجار الممتازة الاخرى من هرمز وبندر عباس الى الهند وجاوه ويستخدمونها فى بناء مراكزهم التجارية هناك وذلك بدلا من عودة سفنهم خالية ٠ ولكن حين اعترضت الحكومة الايرانية على هذا لجأوا الى تجارة الملح وحملوه على سفنهم حتى الصين واليابان ٠

وكان الهولنديون فى تجارتهم يلجأون للحيلة والمكر كثيرا ولم يتورعوا عن الكذب والخداع للقضاء على منافسيهم أو تحقيق مصالحهم وكان التجار

الايرانيون يشتكون من حيلهم التجارية ومن كان منهم يتعامل مع الهولنديين غالبا ما كان أمره ينتهي الى الافلاس وكان معروفا بين التجار الايرانيين انه يمكن التعامل مع كل الفرنج الا الهولنديين الذين يخدعون كل الناس ومن المحال خداعهم ·

وقد استمر احتكار الهولنديين لواردات ايران من أوربا والهند مدة طويلة وكانوا يضيقون على منافسيهم ببيعهم لبضائعهم بأسعار رخيصة · ولم يكن للتجار الايرانيين قدرة على مخالفتهم لانهم اذا لم يقبلوا شراء البضائع الهولندية في بندر عباس بالثمن الذي يطلبونه فان مندوب الشركة كان يحمل هذه البضائع الى داخل ايران ومدنها الرئيسية ويبيعها بأسعار اقل من السوق كثيرا · ولما كان التجار يحتفظون في مخازنهم بكميات كبيرة من هذه البضائع فانهم كانوا يصابون بخسائر فادحة · ولهذا كانوا يضطرون للخضوع لمندوبي الشركة الهولندية ·

ولما كان الهولنديون يبذلون جهدهم لاسترضاء الشاه للحفاظ على مصالحهم التجارية والسياسية ، وكانوا يتقربون اليه باستمرار عن طريق تقديم الهدايا والتحف(١) والقيام بالمهام المختلفة وحتى خديعة رجال البلاط والمقربين من الشاه من هذا أنه كان يحب الرسم كثيرا فاختار مندوب الشركة الهولندية في اصفهان اثنين من الرسامين الهولنديين احدهما اسمه انجيل والآخر لوكار لكي يعلماه الرسم وعلى أيديهما مهر في الرسم حتى انه توجد اليوم بعض لوحات جميلة لهذا الشاه ·

كذلك كانوا يظهرون من العواطف والتعلق بالشاه مايجعله يرضى عليهم ويميل اليهم مثال هذا أنه حينما كان يصل الى العاصمة كانوا يسبقون الآخرين لكي يكونوا في استقباله ويزينوا مركزهم التجاري بالانوار، ويستمرون بضع ليالي يطلقون الالعاب النارية(٢)·

---

(١) جرت العادة منذ أيام الشاه عباس على أن يقدم التجار الانجليز والهولنديون كل سنة بعد انتهائهم من تجارتهم في هرمسز وعودتهم الى اصفهان هدايا الى الشاه · وكانت غالبا من الاشياء النفيسة كالساعات الثمينة والمنسوجات الموشاة وبعض تحف الهند والنقود الذهبية وما شابه ذلك ·

(٢) جلس الشاه عباس الثاني بن صفي على العرش في قزوين في أواخر سنة ١٦٤٢ م (١٠٥٢ هـ) وذهب الى اصفهان في العام التالي · وفي يوم

مراكز شركة الهنــد الهولندية في ايـــران :

كان لشركة الهند الشرقية الهولندية مندوبون خاصون في بندر عباس ولار واصفهان وكان مركز مندوبهم في اصفهان يقع قرب ميدان الشاه وفي عمارة كبيرة جميلة له حديقة واسعة بها أشجار فاكهة وقنوات وأحواض جميلة • وكان باب هذه العمارة كبيرا جدا وعاليا ، ويشاهد فوقه اللوحة الخاصة بشركة الهند الشرقية الهولندية • وكانت هذه العمارة ملكا لاحد اعيـــان اصفهان في عهد الشاه عباس الاول كان اسمه علي ميرزا بك ولكن الشاه غضب عليه لسبب ما فقتله بيده واستولى على كل ممتلكاته واعطى عمارته هذه لوكالة شركة الهند الشرقية الهولندية التي كانت قد ارسلت آنذاك شخصا اسمه فيسنيك كاول مندوب لها للحصول على اذن من الشاه لبدء التجارة مع ايران • وكان المندوب الهولندي يريد شراء هذا المنزل له شخصيا ولكن الشاه عباس لم يقبل لانه كان يعد المندوبين الاجانب ضيوفه الاعزاء ويجب عليهم أن يقيموا في منازل حكومية • وبعد موت الشاه عباس أغرى ويسنيك المندوب الهولندي احد اغوات قصر الشاه صفي واسمه يوسف لكي يطلب اذن ببيع هذه العمارة من الشاه • وقام آغا يوسف بالمهمة ووفق في الحصول على اذن بيع المنزل لمندوب شركة الهند الشرقية الهولندية الـذي اشتراه لنفسه وظل مدة طويلة يحصل على ايجاره من الشركة •

بعد مدة ارسلت الشركة شخصا في مهمة سرية لكي يفتش على ويسنيك نظرا لتبذيره واسرافه واضاعته لكثير من اموال الشركة ويقبض عليه ويرسله للهند • ولكن ويسنيك علم بامر هذا الشخص وقبل ان يصل الى اصفهان

وصوله أبلغ اعتماد الدولة الصدر الاعظم الايراني كل المسئولين الاجانب وخاصة التجار الانجليز والاجانب لكي يشتركوا في الاستقبال فلما ابتعدوا عن المدينة نحو ٣ فراسخ (١٨ كم)كان الشاه مشغولا بصيد البط البحري وحين رآهم جاني خان قائد فرسان الشاه أشار اليهم كي يتبعوه ليقدمهم للشاه • وكان الشاه على حافة بركة يصطاد البط فاقترب منه جاني خان وقال له أن الترجمة الهولنديين جاءوا للتهنئة بسلامة الوصول فنزلنا عن خيلنا على الفور وتقدم نيكولاس اوبرخيت N.O brechit رئيس الشركة الهولندية وقبل قدم الشاه التي كان قد اخرجها من ركاب فرسه مخصوصا لهذا الغرض • وفي اليوم التالي لوصوله زين رئيس الشركة الهولندية أحد خانات المدينة بالسجاد الثمين وأقام حفلا في العصر واطلق بعض طلقات المدافع احتفاء بالشاه وانفق في هذا السبيل ما يقرب من ثمانمائة أو تسعمائة تومان ، وقد شرف الشاه حفلة بحضوره شخصيا •

غادرها ويسنيك وهرب للاراضي العثمانية وعثروا بين أوراقه على سند ملكية هذه العمارة التي انتقلت ملكيتها الى شركة الهند الشرقية الهولندية •

وبعد هذا قام خلفاء ويسنيك ببيع نحو نصف هذه العمارة الى شيخ الاسلام شقيق محمد مهدى الوزير الاعظم للشاه عباس الثانى ، ولكنهم ندموا بعد هذا على البيع •

وقد اضطر الهولنديون الى انشاء مركز تجارى لهم فى لار ايضا لانه أثناء حمل الحرير من اصفهان الى بندر عباس وهرمز كان لابد من تغيير الجمال الحاملة للحرير ، وبناء على قوانين ايران انذاك فان الجمال المتوجهة من اصفهان الى الجنوب كان لايجب أن تتعدى مدينة لار بالاضافة الى هذا فان جمال ودواب اصفهان والمناطق الوسطى من ايران التى اعتادت على الجو المعتدل لاتتحمل هواء الجنوب الحار وتموت • وكان المركز التجارى الهولندى فى لار يقع على اطراف المدينة وعلى طريق هرمز •

وكان المركز التجارى الهولندى فى جمبرون أو بندر عباس يقع غربى الميناء وبجوار المركز التجارى لشركة الهند الشرقية الانجليزية وعلى مقربة من المركز التجارى الفرنسى • وفى سنة ١٦٩٨ م (١١٠٩ ـ ١١١٠ هـ) قام أحد مندوبى الشركة واسمه هوجكامر(١) ببناء عمارة جديدة ومخازن كبير للشركة تقع على شاطىء البحر عند نهاية شرق الميناء •

---

(١) Hoogkamer

ختم الشـــاه سـليمان الصفوى

وضع هذا الختم على ظهر رسالة منه الى يوبولد امبرطور النمسا ق وسطة عبد الولاية الشاه سليمان وحولها اللهم صلى على محمد المصطفى وعلى فاطمة الزهراء وعلى المرتضى وعلى الحسن والحسين وعلى زين العباد وعلى محمد الباقر وعلى جعفر الصادق وعلى موسى الكاظم وعلى على الرضا وعلى محمد النقى وعلى حسن العسكرى وعلى الحجة المهدى صاحب الزمان ٠



علاقات ايران وشركة الهند الشرقية الهولنديه

فى زمن الشـــاه سـليمان الصفوى

فى اواخر عصر الشاه عباس الثانى قامت شركة الهنـــد الشرقيـــة الهولندية بارسال سفير ومندوب فوق العادة اسمه هوبر دو لوزس الى الشاه عباس مع بعض الهدايا لتقوية العلاقات التجارية وحصل على الامتيازات التى كان يريدها منه ·

وماكاد الشاه عباس الثانى يتوفى فى خسرو اباد من توابع دامغان ويصل خبر وفاته الى اصفهان التى كان بها هذا السفير والذى كان قد عين لرئاسة المركز التجارى الهولندى فى بندر عباس حتى أراد أن يصل بأسرع مايمكن الى هذا الميـنـــــاء ·

ولكن وفاة الشاه عباس وتغيير الاوضاع فى ايران حالت دون سفره لأن العـــادة فى ايران كانت اذا مات الشـــاه تلغى جميع الامتيازات والاتفاقيات مؤقتا حتى يصـــادق توقيعها من الشاه الجديد ولهذا خشى السفير الهولندى الا يصدق الشاه الجديد على الاحكام والامتيازات التى تعب فى الحصـــول عليها من سلفه ، ولكن لانه كان ذكيا وذا تجربة استطاع أن يسترضى أحد رجال البلاط المقربين من الشاه الجديد عن طريق تقديم هدية له حتى يأخذ له اذنا بالتشرف بمقابلته · ولهذا استطاع بسهولة ان يرى الشاه الجديد الذى كان يلقب انذاك بالشاه صفى الثانى وأن يحصل على توقيعه على احكام وامتيازات الشاه المتوفى واستأذنه فى السفر الى بندر عباس ·

وفى عصر الشاه سليمان أخذت تجارة الهولنديين فى ايران تقل بالتدريج حتى انهم كانوا يشترون ثلثمائة بالة من الحرير فى العام فقط · اى نصف ماكانوا يشترونه فى أيام الشاه عباس الثانى · ولما كان ميزان وارداتهم قد انخفض ايضا بسبب الحروب التى كانوا يخوضونها فى اوربا ، كما أن رونق تجارة منافسيهم الانجليز والفرنسيين كانت قد ازدهرت ، لهذا فان الارباح التى كانوا يجنونها من تجارتهم مع ايران أصبحت لاتذكر ·

وكان التجار الهولنديون يشتكون دائما من أن أتباع الشاه يعطلونهم

مافى مخازنه من الحرير السيء الذى لايباع ولكن المسئولين الايرانيين لم يهتموا بهذه الشكوى ولهذا حاولوا سنة ١٠٩٧ هـ (١٦٨٦م) اللجوء الى القوة مرة أخرى وتخويف الحكومة الايرانية فارسلوا بعض السفن الى الخليج وضربوا ميناء بندر عباس بالمدفعية واستولوا على جزيرة قشم ، ولما كانت ايران لاتستطيع مجاراتهم فى قوتهم البحرية لذا لجأت الى السياسة فاعطتهم وعودا طيبة • ولكى تظهر حسن نيتها اقترحت ارسال مندوب خاص الى اصفهان وخدع الهولنديون وسارعوا بارسال شخص اسمه فان هيفل(١) مع كثير من المرافقين الى اصفهان وقد بقى هذا الشخص ثلاث سنوات فى أصفهان لم يسأله خلالها احد لماذا جئت فاضطر فى النهاية الى اعادة جزيرة قشم الى ايران لان الحفاظ عليها كان يكلف الشركة نفقات كبيرة كما أنفق مبلغا كبيرا حتى حصل على اذن بالعوده ويوم منحه الشاه اذن العودة قال « لم يكن من اللائق لقوم من التجار أن يطلبوا من ملك تحت هدير المدافع» •

وبعد عام ايضا أى سنة ١١٠٢ هـ (١٦٩١ م) أرسل الهولنديون مندوبا فوق العادة اسمه ليندن(٢) مع كثير من التحف والهدايا الى بلاط الشاه سليمان جدد شكواهم ومطالبهم كما طلبوا من الشاه أن يمنحهم تخفيضا فى ثمن التحرير • وعندما استقبل الشاه السفير الهولندى وعده بتخفيض قدره ٣٠ اكو فى كل بالة حرير ، ولكنه لم يعطه أى سند فى يده ، ولهذا فعندما عاد السفير الى مدينة لارهدد بأنه سوف يقلب بسفنه موانى الجنوب راسا على عقب ، ولكنهم فى البلاط الايرانى كانوا يعرفون أن هذا التهديد لن يكون له معنى مع وجود السفن الانجليزية والفرنسية فى الخليج •

ويبدو أن حركة تصدير الحرير الايرانى فى عهد الشاه سليمان لم تكن مزدهرة كما كانت من قبل لانه بالاضافة الى أن الهولنديين قللوا من تصديره فان الحكومة الجوركانية فى الهند أيضا منعت وروده الى الهند كما أنه لم يكن رائجا فى البلاد العثمانية • وفى تلك الوقت كان محصول الحرير الايرانى ينسج اغلبه فى مصانع اصفهان وكاشان وتبريز ومشهد ويستهلك داخليا (٣) •

---

(١) Van Heuvle (٢) Van Leenen

(٣) كان أغلب حرير ايران ينتج آنذاك فى أقاليم جرستان (جورجيا) وخراسان وكرمان وخاصة فى جيلان ومازندران وجرجان

=

علاقات ايران مع شركة الهند الشرقية الهولندية

فى عصر الشاه السلطان حسين

كما ذكرنا أخذت قدرة ونفوذ الهولنديين تزول تدريجيا فى الخليج وتقل تجارتهم مع ايران ٠ وبعد موت الشاه سليمان أظهر خليفته الشاه السلطان حسين ميله للانجليز ٠ وذات يوم من سنتى ١١١٠ أو ١١١١ هـ ذهب مع جماعة من نساء حرمه الى المركز التجارى الانجليزى فى اصفهان فانفق المسئولون عن الشركة نحو ١٢ الف جنيه لاستقباله ولهذا منح الشاه لرئيس المركز خلعة من الملابس وحصانا وسيفا مرصعا كما أمر بدفع الرسوم الجمركية المستحقة لهم عن عام من ايراد بندر عباس والتى كان قد تأخر دفعها ، كما منح مندوبى الشركة امتيازات مهمة أخرى ، ولكنه رفض الذهاب الى المركز التجارى الهولندى عندما دعاه رئيسه لزيارته أيضا٠

منذ ذلك الوقت اخزت حيثية للهولنديين واعتبارهم فى ايران فى الزوال، حتى انهم عندما طلبوا بعد هذا بقليل بناء قلعة لهم فى بندر عباس للحفاظ على مصالحهم فان الحكومة الايرانية لم تسمح لهم ومنعتهم ٠

وفى سنة ١١٣٤ هـ عندما كانت ايران تتعرض لهجوم الافغان هجم جماعة من البلوتش على كرمان واقليم فارس واستولوا على مدينة لار

***

وكان محصول هذه الولايات سنويا نحو ٢٢ الف بالة وكانت البالة تزن ٢٧٦ ليفر فرنسى (لليفر ٤٩٠ جم تقريبا) وعلى هذا كان انتاج ايران من الحرير نحو ثلاثة الاف طن ٠ وكان هذا الحرير ينقسم الى اربعة أنواع ، الاول الحرير الشيروانى الذى كان يأتى من شيروان ويسمى باسمها وهو أردأ انواع الحرير الايرانى وكانوا يسمونه فى اوربا « ارداش» والنوع الثانى الحرير الخروارى وهو افضل قليلا من الاول وكان اكثره ينتج من جيلان ولاهيجان ولهذا كانوا يسمونه فى اوربا حرير ليجيا Legia والثالث اسمه كدخدا بسند وهذا الاصطلاح يطلق على الاشياء المتوسطة والرابع وهو الشاه بسند وهو أحسنها ٠

وكانت جيلان تنتج عشرة الاف بالة من بين الاثنتين والعشرين الفا السابق ذكرها وتنتج مازندران وجرجان الفين وتنتج من اذربيجان والمناطق الغربية ستة الاف وقراباغ وجورجيا اربعة آلاف بالة ٠

وأرسلوا أربعة الاف من فرسانهم للاستيلاء على بندر عباس ، ولهـــذا اضطر الهولنديون والانجليز لتقوية دفاعات مراكزهم التجارية ونصبوا المدافع على اطراف عماراتهم ، وعندما هجم البلوتش في ٢٥ صفر على الميناء ابعدوهم عن مراكزهم التجارية باطلاق المدافع عليهم ، ولكن احد مخازن المركز التجاري الهولندي نهب وسقط مايقرب ثمنه من ٢٠ الف جنيه من البضائع في أيدي المهاجمين . كما قتل اثنى عشر هولنديا وجرح نحو ١٠ اشخاص .

الى هنا تنتهي العلاقات الهولندية مع ايران في العصر الصفوي ، أما علاقاتهم في العصور التالية فيمكن ايجازها فيما يلي :

في زمن استيلاء الافغان على ايران (١١٣٥ هـ -١١٤٢ هـ) أغلقت المراكز التجارية الانجليزية والهولندية والفرنسية وغيرها في اصـــفهان واضطربت أحوال ميناء بندر عباس وما حوله . فمن ناحية استولى شيخ راس الخيمة على ميناء باسعيدو في جزيرة قشم وتسبب في كساد تجارة بندر عباس الى أن قامت السفن الانجليزية بحربه سنة ١١٤٠ هـ وانتصرت عليه . ومن ناحية اخرى هجم الافغان سنة ١١٤١ هـ على اقليم فـارس مرة اخرى واستولوا على عاصمته شيراز وأرسل قائدهم المدعو ربردست خان جيشا الى بندر عباس ولكن الاوربيين قاوموهم فاكتفى الافغان باخذ بعض المؤن والعودة . وفي هذا الوقت استولى الهولنديون على جزيرة هرمز ولكنهم تخلوا عنها بعد ذلك بسبب معارضة الانجليز .

أسس الهولنديون مركزا تجاريا في ميناء بوشهر في عهد نادر شاه افشار ولكنهم اغلقوه بعد بضع سنين ثم اعادوا فتحه سنة ١١٦٠ هـ . وكانوا قبل هذا قد أنشاؤا فرعا لهم في البصرة وكانوا يجلبون التجارة عن طريق البر والبحر وخاصة المنسوجات الصوفية التي كانوا يجلبونـها عن طريق حلب ووجدت شهرة كبيرة .

وفي سنة ١١٦٥ هـ أغلق الهولنديون مركزهم التجاري في بوشهر مرة اخرى ، وكانوا قد أغلقوا مركزهم التجاري في بندر عباس قبل هذا بقليل لاضطراب الامن هناك وفي سنة ١١٦٦ هـ (١٧٥٣ م) استولى البارون

نيبهاوزن(١) رئيس المركز التجاري الهولندي في البصرة على جزيرة خرج الواقعة في الشمال الغربي لبوشهر وصمم على تقوية استحكامات هـذه الجزيرة لتهديد البصرة ومدخل شط العرب ·

وكان الهولنديون المقيمون في البصرة قد اشتكوا الى رؤساء الشركة في هولندا من سوء سلوك البارون نيبهاوزن وسياسته فوصل أمر فصله ولكن البارون في ذلك الوقت كان قد أخذ من الامير ناصر حاكم بندر بوشهر سندا بانتقال ملكية جزيرة خرج الى الشركة الهولندية ، وقام برحلة الى باتافيا عاصمة الهند الشرقية الهولندية حيث اثبت هناك عدم خطئه أو تقصيره وعاد من هناك مع سفينتين وخمسين من الجنود الى الخليج الفارسي واستولى بسهولة على جزيرة خرج وجلب اليها كثيراً من العمال من ايران والجزيرة العربية لتعميرها وأخذ في تعمير القلعة وصيد اللؤلؤ فارتفع عدد سكان الجزيرة الذي لم يكن يتجاوز مائتين أو ثلثمائة فرد الى اكثر من اثنى عشر الفا في فترة وجيزة ·

في هذه الاوقات قام الامير مهنا حاكم ميناء ويجي الذي كان آباؤه يتوارثون حكم مناطق هذا الميناء بثورة ضد كريم خان زند وكان هو الذي نصبه هناك، كما انه كان قد اختلف مع الهولنديين على دفع ايجار جزيرة خرج واستمر هذا الخلاف بضع سنين ·

وفي سنة ١١٦٦ هـ اغلق المركز التجاري الهولندي في البصرة ، وبعد سنوات أخرى خرج الهولنديون من بوشهر وبندر عباس وبقيت جزيرة خرج فقط في أيديهم حتى سنة ١١٧٩ هـ (١٧٦٥ م) ·

وقد تولى شخص اسمه فان ديرمولست الامر بعد البارون نيبهاوزن واستطاع بالسياسة وحسن التدبير أن يمنع الامير مهنا عن معارضة الهولنديين ، ولكن في سنة ١١٧٩ هـ اختلف الامير مهنا معهم مرة أخرى · وفي العام التالي حاصر القلعة الهولندية في الجزيرة وبعد ان استولى عليها نهب كل مابها من الاموال ووضع الهولنديين في بعض السفن وارسلهم الى باتافيا (جاكرتا) · وبفقد الهولنديين لجزيرة خرج انتهى عهد سيطرة الهولنديين ونفوذهم في الخليج ·

---

(١) Baron Kniphausen

مراجـــع هـــذا الفصـل

١ ـ رحلة بيترو دلا ناليه الايطالى ، فى ٨ اجزاء ٠

٢ ـ الخليج الفارسى تاليف السير ارنولد ويلسون طبع اكسفورد سنة ١٩٢٨ وترجمته الفارسية لمحمد سعيدى ٠

٣ ـ رحلة شاردان فى ١٠ اجزاء طبع سنة ١٧٢٣ م ٠

٤ ـ رحلة جان بابتيست تافارنيه فى جزئين ط باريس سنة ١٦٩٢ م

٥ ـ وضع ايران تاليف سانسون المبشر المسيحى الذى زار ايـــرا سنة ١٦٨٣ ٠

٦ ـ تتويج الشاه سليمان تاليف شاردان ٠

٧ ـ رحلة كورنليوس دى بروين الرسام الهولندى الذى سافر فيما بين سنتى ١٠٧٣ ـ ١٠٧٧ هـ الى ايران وآسيا ٠ مجلدين ط امستردا سنة ١٧١٨ م ٠

٨ ـ مقدمة شارل شيفر على كتاب « وضع ايــران فى ١٦٦٠ م تاليف رفاييل دومان ٠

٩ ـ رحلة اولياريوس Aulearius سفير فردريك دوق هلشتاين الذى زار ايران سنة ١٠٤٦ هـ (١٦٣٧ م) ٠ ترجمة ابراهام دى ويكفور الفرنسى A. de Wicque Fort امستردام سنة ١٧٢٧ م ٠

١٠ ـ الشاه عباس الاول تاليف لوسيان بلان ، باريس ١٩٣٢ م ٠

١١ ـ رحلة دون جارسيا دى سيلفا فيجورا ، باريس ١٦٦٩ م ٠

١٢ ـ عالم آراى عباسى ٠

١٣ ـ عـــلاقات ايران واوربا الغربية فى العصر الصفوى ، تاليف الدكتور خان بابا بيانى بالفرنسية ـ باريس ١٩٣٧ م ٠

الفصل الرابع

علاقات ايران والمانيا

العلاقات الالمانية الايرانيـة

علاقات ايـران والمانيا فى عصر الشاه اسماعيل الاول :

بعد أن جلس اسماعيل الاول على العرش واسس دولة قوية فى شرق الاراضى العثمانية ، دخل فى حرب مع السلطان سليم خان الاول من سنة ٩١٨ – ٩٢٦ هـ ولهذا أخذ ملوك أوربا – الذين كانوا فى ذعر واضطراب من قوة الاتراك العثمانيين وزحفهم على أوربا – فى مصادقة الشاه اسماعيل والاتحاد معه • وسعى الشاه اسماعيل ايضا – بعد هزيمته فى موقعة تشالدران (أول رجب ٩٢٠ هـ / ٢٣ أغسطس ١٥١٤ م) للاتحاد مع دول أوربا وخاصة مع المجر والمانيا وجمهورية البندقية الذين كانوا يجاورون تركيا من ناحية الغرب ويتعرضون لحملاتها وهجومها حتى يستطيع بهذا أن يهجم من الناحيتين على العدو المشترك ويقضى عليه •

ومن بين الرسائل التى أرسلها الشاه اسماعيل الصفوى الى ملوك أوربا رسالة كتبها فى شوال ٩٢٩ هـ باللغة اللاتينية الى كارل(١) الخامس (المعروف بشارل كنت)(٢) وأرسلها مع الاخ بطرس الجبـــل لبنـــانى الذى(٣) كان قد جاء من قبل ملك المجر الى بلاط ايران ونص هذه الرسالة مطبوع فى مجموعة عنوانها : « رسائل كارل الخامس » وترجمتها الفارسية:

« الى كارل بن بطرس

اذا وصلت هذه الرسالة بمشيئة الله اليك ستعلم أن الاخ بطرس الذى جاء الينا برسالة من ملك المجر قرأناها بالسرور نحمله الان بهـــذه الرسالة ونأمل أن يسعدك وصولها ونحن ننتظر منكم باصرار كامـــل أن تدققوا فى رجائنا • اذ يجب علينا فى شهر أبريل (يقصد أوائل الربيع) أن نهجم من الجانبين على عدونا المشترك وهو السلطان العثمانى وعلينا أن نحارب من شهر أبريل حتى يتم لنا النصر • وعندما جاءنا سفير من

---

(١) Charles Quint

(٢) هذا الملك جلس على عرش اسبانيا سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٦ م) وفى سنة ٩٢٥ هـ ، (١٥١٩ م) صار أمبراطور المانيا •

(٣) Frater Petrus de moute Lebano

الملك لودفيج الثاني(١) عن طريق تبريز أرسلنا معه رسالة الى ذلك الملك ولم يصل منه رد الآن . وكما سمعت من الرعايا العثمانيين فسان الملوك المسيحيين فى حرب فيما بينهم وهذا ما يدعو للحيرة لأن خلافهم مع بعضهم يزيد من جراءة عدوهم وشجاعته ، ولهذا كتبت لملك المجر لكى يتخلص من العداء مع ملوك أوربا لانني أعلم عن اعـداده جيشـا لمحـاربتكم وارسـل الرسل والرسائل يدعوني للاتحاد معه فى هذا الامر ولكنني رفضت طلبه مرارا للانني - كما تقولون - اريد ان اشاطركم فى السراء والضراء وكـل من يترك حليفه وحيدا ويخونه يستحق جزاء الله القادر القهار ، ولهـذا فمن الواجب أن تسارع باعداد الجيش وآمل الا احتاج لرسـسالة اخـرى لتحريضك وتشجيعك لان المسافة بعيدة وارسال الرسائل صعب خاصـة وان السلطان العثماني يسيطر على البحار وارسال رسل آخرين غير هـذا السفير ليس متاحا لنا ولاشك انكم لن تثقوا فى السلطان العثماني فهو شخص لايرتبط باتحاد ولايفي بقسم ولايتوانى عن افنائكم وهذا العدو القـديم الناقض للعهد لن يستطيع طبعا ان يخدع ملكا عظيما يحكم دولة المانيا » .

تحريرا فى شوال ٩٢٩ هـ

الحمد لـله رب العالمين امين آمين

صديقك الشاه اسماعيل الصفوى بن الشيخ حيـدر

كما ذكرنا فان هذه الرسالة مكتوبة باللاتينية ويبدو أن كاتبها هـو نفسه الاخ بطرس اللبناني سفير ملك المجر . وقد وصلت الرسالة بعد سنتين الامبراطور المانيا ورد عليها كارل الخامس برسالة باللغة اللاتينية وارسلها للشاه اسماعيل بواسطة القس المذكور وكان الشاه اسماعيل قد توفى قبل ذلك بعام وترجمة رسالة امبراطور المانيا كما يلي :

الى الامير صاحب السمو القوى الشاه اسماعيل الصوفى شـاهنشاه ايران اخى واعز أصدقائى .

---

(١) يبدو انه لودفيج الثاني ابن فلاديسلاس السادس الذى ارتقى العرش سنة ٩٢٢ هـ (١٥١٦ م) وهزم سنة ٩٣٣ هـ (١٥٢٦ م) فى حربه مع السلطان سليمان القانوني وهلك فى احد المستنقعات أثناء هربه .

كارل الامير صاحب السمو المؤيد بالعناية الالهية امبراطور الـــروم والعـــالم المسيحي والمانيا وملك ممالك أسبانيا وأراضي سيسيل ونافار وغرناطة وجزر الباليار والجزر السعيدة(١) والهندوبلاد الذهب الجديدة(٢) وأمير البلاد النائية في أفريقيا والامارات التابعة في المانيـا وفرنسا يرسل التمنيات بالسعادة والتوفيق الى الملك الزاهد السعيد الشاه اسماعيل الصفوى ملك ايران أخينا وصديقنا العزيز ٠

أيها الملك العظيم ويا اخي المحبوب حمل الينا في العام الماضي شخص أسمه بطرس وهو من قسس جبل لبنان المارونيين رسالة دعينا فيها منكم للاشتراك في الحرب ضد العدو المشترك السلطان العثماني ويجب أن ندخل هذه الحرب معا في شهر ابريل ولكن من سوء الحظ ان الرسالة لم تكن قـد وصلتنا في الموعد الذي حددته جلالتكم حتى يمكن ان يتخذ اجراء سليم ٠ وقد تعجبنا كثيرا من أن رسالتكم لم تكن تحمل ختما ولا توقيعا كما جرت العادة بين الملوك ٠ ولهذا ترددنا فترة في اعتماد تلك الرسالة وقبول الرسول ولكن نظرا للصداقة والود اللذين بيننا قبلنا الرسالة والرسول بشوق بالغ واذا كان قد حدث تأخير فذلك لاننا كنا ننتظر باستمرار وصول أخبـار جديدة منكم وتحديد مصير الامر الخطير المطروح بيننا ولكن لم تصل ايـــة أخبار في هذه المدة بل سمعنا انه اصابكم مرض وتوفيتم ونأمل أن تكون هذه الاخبار عارية عن الحقيقة والخلاصة أننا في غم شديد لان جمع جيش لقتال السلطان العثماني لايخلو من مصاعب بالاضافة الى هذا فقد مرضت بضعة أشهر مرضا شديدا كما أن ملك فرنسا (٣) أثارنا لحربه وقد لحقته الهزيمة في الحرب الشديدة التي خاضها ضدنا ووقع هو أسيرا في أيـــدى قودنا والآن وقد من الله علينا بهذا النصر ولما كنا نأمل في السلام والأمن في الاراضي المسيحية لهذا فنحن على ثقة انه لم يبق أمامنا من عمل سـوى أن نشرع في الحرب ضد الاتراك العثمانيين بناء على الرغبة المشتركة لنا ٠ ولهذا فاننا نعيد نفس الرسول الى جلالتكم حتى يعرض على جـــلالتكم

---

(١) Les ilesfourtunees

(٢) يقصد أمريكا الجنوبية التي كانت آنذاك تخضع لاسبانيا ٠

(٣) يقصـــد فرانســوا الاول ملك فرنســـا من ١٥١٥ ــ ١٠٤٧ م (٩٢١ ــ ٩٥٤ هـ) ٠

الخطوات الخاصة برغبتنا في الحرب وانتم بدوركم عليكم ابلاغنا بأهدافكم عن طريق اشخاص تثقون فيهم والاسراع في هذا سيكون اكثر نفعا لاننا على استعداد تام للدخول في حرب هذا العدو الغاشم بقواتنا وقوات جلالتكم ونأمل أن يهبكم الله تعالى الصحة والسلامة ويستجيب لكل ماتطلبون .

كتب في ٢٥ أغسطس ١٥٢٥ من ميلاد منقذنا المسيح في مدينة توليدو .

وليس بين يدينا شيء عن مصير الاخ بطرس في رحلتــه الثانية الى ايران فقبل أن يتحرك هو من المانيا متوجها الى ايران مـرة أخرى كـان الشاه اسماعيل الصفوي قد توفي وجلس مكـانه الشـاه طهماسب الأول ، ولما كان هذا الملك شديد التعصب ، وكـان يعد ملوك اوربـا كفـرة نجساء فيمكن توقع انه لم يجب على رسالة كارل الخامس .

بعد اربع سنوات (اى في جماد الآخر ٩٣٥ هـ ـ فبرايل ١٥٢٩ م) ارسل كارل الخامس سفيرا ثانيا اسمه يوحنا بالبي(١) الى ايران ولـكن الرسالة التي كان يحملها هذا السفير أيضا كانت معنونه باسم الشــاه اسماعيل مما يدل على أن خبر وفاته لم يكن قد وصل الى اوربا وكـان مضمون رسالة أمبراطور المانيا كما يلي :

صاحب السمو الأمير القوى أخي وصديقي العزيز ، أن خبر أعمـال جلالتكم واخضاعكم لكل امراء المشرق بقوة شجاعتكم وحسن تدبيركـم وحكمتكم قد وصلت الى اسماعنا ونعلم ان جلالتكم تستخدم جيشـك وقواتك دائما ضد العدو الخارجي وهو دائما ضـد مخالفيه الظالمـة والمستبدين ولما كنا نوافق جلالتكم تماما فقد ارسلنا يوحنا بالبي من المقربين لنا ومن قادة جيشنا وأعيان بلاطنا الامبراطوري والمعروفين بالصداقة والوفـاء لنـا حتى يعرض عليكم أهدافنا ومقاصدنا الشخصية ويذكر لـكم مطالبنا . فنرجو أن تطمئنوا اليه وتعتمدوا عليه اعتمادا كاملا وتصـدقوا مايعرضه هو الواقع وكما يتضح لـكم فان هدفنا الحقيقي هو تأمين السعادة والحرية لعالم الانسانية . ومن أجل تحقيق هذا الهـدف المبارك الذى هو غاية الملوك فانكم ستنهضون مع قواتكم لمساعدتنا ومن البديهى اننـا اذا استطعنا أن نقوم بعمل يليق بمقامكم العظيم فاننا لن نتوانى عن القيام به وانجازه ونأمل ان يطيل الله في عمر جلالتكم .

---

(١) Johann Balbi

كتب في مدينة توليدو في ١٥ فبراير ١٥٢٩ م (١) المطابق للسنة العاشرة لملكنا على بلاد الروم وفي العام الرابع عشر لجلوسنا على العرش.

الى الملك المعظم القوى اقدر سلاطين المشرق الملك السعيد الزاهد الشاه اسماعيل الصوفي شاهنشاه ايران صديقنا وأخينا العزيز .

وكان بالبى مكلفا بصفة خاصة بشرح فتوحات كارل وحروبه مع فرانسوا الاول واسره الى ملك ايران ويذكر له أن امبراطور اسبانيا اطلق سراح ملك فرنسا بشرط أن يأتى ملك فرنسا بنفسه لمعاونته عند قيام الحرب مع السلطان العثماني، ورغم وجود ابنيه رهينتين في بلاط الامبراطور فانه عقد اتفاقيات مع جمهورية البندقية (فينيسيا) والسلطان العثماني وهجم السلطان على المجر بتحريض من ملك فرنسا فقتل ملكها في هذه الحرب وهو زوج أخت الامبراطور وقد أصبح شقيق (٢) الامبراطور ملكا على المجر وقد صمم الشقيقان على الهجوم على السلطان العثماني أحدهما من ناحية ايطاليا والاخر من ناحية المجر وهما يأملان العون والمساعدة من ملك ايران وينتظران أن يرسل الملك الصفوى قوات الحدود الشرقية لمملكة السلطان العثماني حتى يتوجه جزء من الجيش العثماني الى هناك هذا اذا لم يكن الملك الصفوى مستعدا لخوض الحرب ضد السلطان العثماني على الأقل .

وقد توجه يوحنا بالبى الى ايران عن طريق البحر الأبيض والشام وحينما وصل الى حلب أرسل منها رسالة الى الامبراطور يخبره فيها بوصوله الى تلك المدينة وانه ينتظر الفرصة المناسبة للسفر منها الى ايران وذكر في هذه الرسالة خاصة أن شاه ايران قد شرع في الحرب مع السلطان العثماني (٣) وهو الوقت الذى يجب أن يخوض فيه الامبراطور الحرب مع الأتراك ايضا . ولكنه لم يشر في خطابه الى وفاة الشاه اسماعيل واعتلاء الشاه طهماسب العرش . وكتب هذا السفير رسائل أخرى الى الامبراطور

(١) يطابق ٦ جمادى الثاني ٩٣٥ هـ

(٢) يقصد فردناند الاول الذى أصبح ملك المجر في سنة ١٥٢٦ (٩٣٣ هـ) وأصبح امبراطور لاسبانيا بعد أخيه سنة ١٥٦٦ (٩٦٣ هـ) .

(٣) يبدو أنه يشير الى حملة الشاه طهماسب على بغداد سنة ٩٣٥هـ/ ١٥٢٩ م ، واستيلائه عليها من يد ذى الفقار الذى كان قد أعلن الاستقلال .

أثناء الطريق لم تتضمن أى منها أشياء هامة • ولانعلم نتيجة رحلة ممصبلات العلاقات الايرانية ـ الالمانية منذ ذلك الوقت حتى عصر الشـــاه عبـــاس الـكبير •

عـــلاقات ايران والالمـان فى عصر الشـــــــاه عبـاس الأول

كما ذكرنا فى فصل العلاقات بين ايران وأسبانيا والبرتغال ، فـــان الشاه عباس كان قد أرسل السير انتونى شيرلى الانجليزى وحسين على‌بك بيات سنة ١٠٠٧ هـ (١٥٨٩ م) للعمل على الاتحاد مع حكام أوربا ضـد السلطان العثمانى وعقد اتفاقيات لبيع الحرير الايرانى • وقد توجه السفيران ـ كما قلنا ـ عن طريق روسـيا ، وبعد اقامة ستة اشهر فى موســـــكو غادراها يوم عيـد الفصح سنة ١٦٠٠ م (شوال ١٠٠٨ هـ) متوجهين الى المانيـــــــا •

وقد سلكت البعثة طريق ميناء ارخانجلسك وشمال اوربا وسواحل النرويج الى ميناء شتود(١) فى مصب الالب(٢) ، ومن هناك ذهبوا الى ميناء ايمدن(٣) حيث استقبلهم دوق اولدنبورغ (٤) بكثير من الترحيب والحفاوة ، ثم توجهوا الى مدينة براغ عاصمة بوهيميا التى كانت آنذاك مقـــــــرا لامبراطور المانيـا • وحينما علم رودلف الثانى أمبراطور المانيـا بوصول سفيرى الشاه ارسل ثلاث عشرة عربة مع مجموعة من القواد وكبار رجـــال القصر وخمسة الاف جندى لاستقبالهم ، وقد تلقاهم الامبراطور بكثير من الترحيب والتعظيم واختار لكل منهما منزلا جميلا بالقرب من البلاط الملكى •

بقى حسين على بك بيات وأنتونى شيرلى ما يقرب من ستة أشهر فى براغ كانا فيها ضيفين على الامبراطور ، وقد قبل رودلف الثانى اقتراحاتهما بشأن الاتحاد مع الشاه عباس ضد الاتراك العثمانيين بشىء من الاحتياط ، كما حاول ثنى السفيرين عن عزمهما زيادة بقية ملوك أوربا واقناعهما بارسال رسائل الشاه عباس الى هؤلاء الملوك عن طريق مبعوثين مخصوصين ،

---

(١) Stode (٢) Elbe (٣) Emden

(٤) Olde Nburg

ولكن السفيرين لم يقبلا هذا وحصلا على اذن منه وسافرا فى ربيع ١٦٠١ م (١٠١٠ هـ) الى ايطاليا لزيارة بابا روما ٠

وعندما ودع امبراطور المانيا بعثة السفراء الايرانية اعطى المسيحي انتوني شيرلي خمسين اناء مختلفا من الفضة والفي (١) دوقة المانية لنفقات سفره ، كما أعطى لحسين على بك بعض الهدايا ، وأعطى لكل واحد من المرافقين كأسا من الفضة المحلاة بالذهب ومائتى دوقة ٠

وقد توجهت البعثة من براغ الى نورمبرغ أحدى مدن دوقية بايرن ، وقد استقبلوا هناك استقبالا حافلا ، وبقيت البعثة اربعة ايام فى ضيافة حاكم المدينة وعند مغادرتها اعطى لكل من انتوني شيرلي وحسين علي بك كأسا ذهبية ٠ وقد ذهبت البعثة من طريق اوجسبورغ (٢) الى ميونيخ عاصمة بايرن وقد استقبلهم ويلهيم الثانى المعروف بالراهب (٣) دوق بايرن الذى كان قد تخلى فى تلك الايام عن منصبه استقبالا عظيما ـ ثم غادرت السفارة ميونيخ ـ كما سبق ان ذكرنا فى فصل العلاقات الايرانية الالمانية ـ الى ايطاليـــا وروســيا ٠

سـفارة اتين كاكاش الى ايــران :

بعد سفر البعثة الايرانية من براغ أرسل رودلف الثانى أمبراطور المانيا سفارة الى ايران لكى تقف على حقيقة أهداف الشاه عباس وتحقق اتحاد الدولتين ضد السلطانى العثمانى ٠ وكانت رئاسة هذه البعثه لاحد اعيان ترانسلفانيا وهو اتين كاكاش دى زالونكنى (٤) ؛ وكانت لدى هذا السفير تعليمات بأن يعقد معاهدة مع الشاه عباس الاول ضد السلطان العثمانى ، ويأخذ منه تعهدا بالا يتصالح مع العثمانيين مالم يسترد مدينه تبريز ، كما كان مكلفا بان يتباحث مع قيصر روسيا بشأن اتحاد ايران والمانيــا ضــد السلطان العثمانى ويدعو القيصر للاشتراك فى هذا الاتحاد٠

غادر اتين كاكاش ومرافقوه مدينة براغ فى الثامن من ربيع الاول

(١) قيمة الدوقة كانت بين ربع وثلث دولار حاليا ٠
(٢) Augsburg
(٣) Wilhhein II Le Pieux
(٤) Etienne Kakash de Zalonkemeny

١٠١١هـ (٢٧ اغسطس ١٦٠٢ م) ووصل الى موسكو يوم ٢٣ جماد الأول من نفس العام وبعد ان انجز مهمته لدى قيصر روسيا توجه الى ايران وأبحر في سفينة من ميناء هشتر خان وبعد واحد وثلاثين يوما وصل في السابع والعشرين من صفر ١٠١٢ هـ الى ميناء لنجرود (١) في جيلان ومنهناك ارسل مبعوثا الى الشاه عباس في اصفهان ليخبره بوصوله كسفير · فكلف الشاه عباس روبرت شيرلي لاستقبال السفير ومرافقيه · وذهب روبرت من أصفهان الى لنجرود حتى يصحبه مع مرافقيه الى الشاه عبساس الذى كان انذاك يعتزم الهجوم على اذربيجان واستعادتها من الاتراك العثمانيين · ولكن كاكاش وثمانية من أعضاء السفارة مرضوا مرضا شديدا بسبب سوء الغذاء والجو ، وعندما وصلوا الى مدينة لاهيجان(٢) توفى السفيروثلاثة من مرافقيه، ولكن كاكاش قبل وفاته كان قد فوض رياسة البعثة الى سكرتيرة الخاص جورج تكتاندر فون ديريابل(٣) ·

توجه تكتاندر ومرافقوه بصحبة روبرت شيرلي من لاهيجان الى قزوين وعندما وصلها لم يكن قد بقى من مرافقيه معه غير واحد اذ تخلف الاربعة الآخرون في الطريق بسبب الضعف أو المرض · وفى قزوين سلمه روبرت شيرلي الى احد كبار رجال ايسران كى يحمله الى الشاه عباس الذى كان انذاك في تبريز التى كان قد هاجمها بجيش عظيم ودخلها وأقام بهسا · ووصل تكتاندر الى تبريز في ١١ رجب ١٠١٢ هـ (١٥ ديسمبر ١٦٠٣ م) وطلبه الشاه على الفور لمقابلته · وكتب تكتاندر عن هذا اللقاء يقول :

« وصلت يوم ١٥ ديسمبر الى تبريز وكان الشاه عباس قد هجم على هذه المدينة بمائة وعشرين الفا من الجند وكان قد مضت عليه سبعة أيام منذ استولى عليها(٤) ودخلت المدينة في الثالثة بعد الظهر وكنت شديد الاعيساء

(١) ميناء لنجرود على ساحل بحر قزوين في شمال ايسران ·

(٢) مدينة لاهيجان في اقليم جيلان جنوب بحر قزوين تشتهر حاليا بزراعة الشساى الايرانى ·

(٣) Y. Tectander Von der Jabel

(٤) يبدو ان السفير الالمانى اخطأ في تاريخ استيلائه على تبريز اذ انه غادر اصفهان في السابع من ربيع الثانى ١٠١٢ هـ متوجها الى تبريز

من حمى الحصبة ومن تعب الطريق حتى اننى لم اكن استطيع ركوب الحصان دون مساعدة الغير · وكنا مضطرين اثناء الطريق للركوب ليلا ونهارا حتى نصل تبريز قبل أن يغادرها الشاه حيث انه تركها بعد وصولى بثلاثة ايام ·

ولم أكد أترجل عن فرسى بعد وصولى للمدينه حتى طلبنى الشـــاه لمقابلته ولم أكن قد وجدت الوقت لتناول الغداء وابدال ملابسى أو حتى ارسال الحصان الى الاصطبل وكنت قد بعثت مرافقى للسوق لاعداد الطعام فاضطررت لترك كل شىء وتوجهت لمقابلة الشاه فى القصر الملكى . وكان الشـــاه جالسا على الارض بين رجال قصره ومشاوريه ولما كانت ملابس أقدم من ملابس الآخرين كما أننى لم أكن اصطحب مترجما فاننى لـــم استطع للتعرف عليه ووقفت حائرا وعند ذلك تقدم احد الايرانيين المسنين وأخذ يدى وقدمنى للشاه فركعت أمامه ثم قبلت يده كما كانوا امرونى قبل هذا فاشار الى ان انهض ثم أخذ شخص ايطالى كان قد أسلم يتحدث معى بالايطالية فسألته ان كان يعرف اللاتينية فلما أجاب بالايجاب قلت له ان امبراطور الروم (أى امبراطور المانيا وايطاليا وغيرها) كان قد ارســـل رئيسى كسفير الى صاحب الجلالة الايرانية ووصل الى مدينة لنجرود فى جيلان ولكنه توفى هناك مع مرافقيه بسبب قلة الغذاء الجيد وعدم وجـــود المشروب فلم يكن هناك سوى ماء عفن ولحم ضأن فاسد وتخلف اربعة فى الطريق حين أشرفوا على الموت - وقد أمرنى رئيسى حينما أدركته الوفاة ان أوصل رسائل الامبراطور الى جلالة الشاه الايرانى ·

وحين وصل الحديث الى هذا طلب الشاه الرسائل منى ولكنها كانت قـــد بقيت فى صندوقى وحينما أردت أن أذهب لاحضـــــارها لم يأذنوا لى فاضطررت لاعطاء المفتاح الى أحد مستشارى الملك فذهب وأحضر الرسائل من سكنى وسلمها لى وكانت أحدى الرسائل الموجهة للشاه باللغة اللاتينية والاخرى بالايطالية كما كانت رسائل دوق موسكو الاكبر (القيصر) بهاتين

= وقطع هذه المسافة الطويلة (نحو ١٢٠٠ كيلو متر) بجيشه فى ١٣ يوما ودخل المدينة صباح اليوم الرابع عشر . كما ان المبعوث الالمانى بالغ فى عدد جيش الشـــاه عبـــاس ·

اللفتين اينما فدمتها الى الشاه مراعيا التشريفات الرسمية أى الركوع وتقبيل يد الشاه فأخذ الرسائل بنفسه باحترام ووضع يده على رأسى وأجلسنى بالقرب منه ثم فض الرسائل بنفسه ولكن قبل أن يقرأها ادخلوا احد الاسرى الاتراك مقيدا بالسلاسل فركع أمام الشاه ثم وضعوا سيفين أمام الشاه فعاينهما واحدا بعد الآخر وكان لاحدهما غمد مرصع أهداه لى الشاه بعد ذلك ببضعة ايام واستل السيف الآخر من غمده ثم أنهض من مكانه ودون ان يبدو عليه أى تأثر قطع رقبة ذلك الاسير الذى كان يستغيث أمامه ٠ وقد ارتعدت كثيرا من هذا المنظر وخفت من أن يقطع الشاه رقبتى بالسيف الاخر وقلت فى نفسي من الممكن ان يكون الامبراطور قد تصالح مع الاتراك العثمانيين أو انه كتب شيئا فى رسائله عن الصلح معهم وتضييع رقبتى بهذا ٠ ولكن الشاه جلس مبتسما والتفت الى وقال « هكذا يجب ان يفعل المسيحيون بالاتراك وهو مالن أكف عن فعله » ٠

بعد هذا سلمنى الشاه لاحد رجال قصره لكى أسكن فى بيته وأرسل المترجم الايطالى والرسائل الى منزله فترجمها المترجم امامي الى اللغة الفارسية ٠ وفى صباح اليوم التالى أرسل الشاه حصانا عربيا كهدية ، ثم غادر الشاه تبريز بعد هذا بثلاثة ايام »(١) ٠

وكان الشاه عباس يعتزم فتح أرمينا والقفقاز ، وكما كتب جورج تكتاندر فانه رافق جيشه وذكر فى كتابه معلومات مفيدة عن الاستيلاء على مدن آذربيجان وارمينيا أو استسلامها تخرج عن موضوعنا ٠ وبعد الاستيلاء على قلعة ايروان أذن الشاه عباس لخليفة السفير الالمانى بالعودة الى وطنه كما أمر احد رجال بلاطه وهو مهدى قلى بك بأن يرافقه حاملا ردودا على رسائل قيصر موسكو وامبراطور المانيا ، وكتب تكتاندر عن هذا فقال :

« احضرنى الشاه وقال لقد آن وقت عودتى الى جلالة امبراطور المانيا حاملا ردود الخطابات وآنذاك عين مهدى قلى بك لمرافقتى واحضار رد الامبراطور ، ثم خلع على بخلعة من ملابسه مع حصان عربى وأعطانى تسعمائة أكو(١) على أكثرها صور جلالة امبراطور المانيا وملك اسبانيا كما أهدانى سيفا مرصعا ٠

---

(١) رحلة جورج تكتاندر فون ديريابال ترجمة شارل شيفر ص ٤٧ ـ ٥٠ ٠

تحرك خليفة السفير الالمانى مع مهدى قلى بك ومرافقيهما من مدينة ايراوان متوجهين الى روسيا • فوصلوا موسكو بعد ثمانية أشهر تحملوا خلالها كثيرا من المشقة والتعب • وكان مهدى قلى بك مكلفا من الشاه عباس لشرح توغله وانتصاراته فى الاراضى العثمانية لوريس جود ونف قيصر روسيا ، ويشكر القيصر الروسى على المعونة التى قدمها له فى هذا الد

وقد التقى جورج تكتاندر والسفير الايرانى فى مدينة غازان بسفير ايرانى اخر اثناء عودته مع مرافقيه كان الشاه عباس قد أرسله من قبل الى القيصر الروسى ، وكتب تكتاندر أن هذا السفير ذكر لهم أن القيصر الروسى أرسل عدة آلاف من حملة البنادق وبعض عربات المدفعية لمساعدة الشاه عباس ولكى تحاصر قلعة دربند (باب الابواب) وقد طلب من الشاه بصفة خاصة ألا يكف يده عن حرب السلطان العثمانى •

وقد استقبل بوريس جودونف السفيرين الايرانى والالمانى بترحاب وافر وأرسل رسالة الى رودلف الثانى امبراطور المانيا مع تكتاندر شرح فيها علاقات الصداقة بينه وبين الشاه عباس ضد السلطان العثمانى •

غادر مهدى قلى بك ومرافقوه موسكو فى ربيع الاول ١٠١٣ هـ (أغسطس ١٦٠٤ م) وتوجهوا الى المانيا عن طريق بحر البلطيق •

وليس فى يدى شىء عن رحلة مهدى قلى بك الى المانيا أو نتيجة مهمته هناك ولكن من المعروف أنه بقى فترة فى براغ وأن أحد الرسامين المشهورين من الالمان اسمه اجيديوس سادلرس (٢) رسم له ولاحد مرافقيه من قواد ايران اسمه زينل خان شاملو صورة حوالى سنتى ١٠١٣ و ١٠١٤ هـ (١٦٠٤ ـ ١٦٠٥ م) •

بعد هذا بسنوات اى فى سنة ١٠١٦ هـ (١٦٠٨ م) أرسل الشاه عباس روبرت شيرلى كأغ له برسائل وهدايا كثيرة الى ملوك أوربا ومنهم رودلف الثانى امبراطور المانيا ـ كما سبق أن ذكرنا فى شرح علاقات الشاه عباس مع أسبانيا والبرتغال ـ وقد التقى روبرت شيرلى مع الامبراطور

---

(١) الاكو كان يعادل نحو ثلث دولار •

(٢) Agidius Sadelers

فى ربيع الاول سنة ١٠١٨ هـ (يونيو ١٦٠٩ م) بمدينة براغ وبقى مدة فى بلاطه وحصل على لقب فارس (شفالييه) ولقب كونت بالاتن بسبب الخدمات التى اداها للعالم المسيحى عن طريق الحرب ضد السلطان العثمانى • ثم ذهب من المانيا الى ايطاليا •

ومنذ ذلك الوقت ظل الشاه عباس ينتظر باستمرار اتحاد أمبراطور المانيـــا مع بقية حكام أوربا والدخول فى حرب ضد السلطان العثمانى ، كما ذكرنا من قبل ، ولان أمبراطور المانيا كان قد كتب اليه ووعده انه لن يتصالح مع السلطان العثمانى ابد فان الشاه عباس كان يحترمه جدا وكان يضع صورة له فى مدخل غرفته الخاصة وكلما دخل الغرفة حنى رأسه احتراما له ، ولكن عندما علم عن طريق جواسيسه الخصوصيين ان الامبراطور قد تصالح مع السلطان احمد خان العثمانى تاثر جدا وكان يكرر سخطه وعدم رضاه أمام رسل البابا وسفراء أسبانيا •

وليس بايدينا معلومات متصلة عن علاقات الشاه عباس والمانيــا بعد هذا وكل مانعلمه ان سفيرا من قبل امبراطور المانيا جاء فى سنة ١٠١٨هـ الى بلاط ايـــران واقتراح الاتحاد ثانية ضد السلطان العثمانى • وكتب جلال الدين محمد اليزدى المنجم الخاص للشاه عباس ضمن وقائع ذلك العام يقـــول :

« ••• فى الثامن من رجب ١٠١٨ هـ تشرف كتلكون(١) المبعوث الالمانى بتقبيل الاقدام الملكية وقد رسالة البابا وملك المانيا ومضمونها « استحد لنرفع شر الروم (الاتراك) عن رءوس اهل العالم » •

---

(١) كذا فى النص الفارسى •

علاقات ايران والمانيا بعد الشاه عباس الكبير

لم تصل الينا معلومات كافية عن علاقة ايران والمانيا بعد الشاه عباس الكبير ولكن يتبين من كتب الرحلات والتاريخ في تلك الفترة أن علاقات الصداقة كانت قائمة بينهما وكان اباطرة المانيا يسعون لاثارة الصفويين ضد العثمانيين . ولكن بعد وفاة الشاه عباس الاول ــ أي من عصر الشاه صفي الى عصر الشاه سلطان حسين ــ كان السلام والصداقة قائمين بين الدولتين العثمانية والايرانية . وكان ملوك الصفويين يتجنبون اثارة الخلافات والحروب مع العثانيين ، وكتب أحد السياح الفرنسيين ــ والذى كان في ايران في عصر الشاه سليمان ــ عن السياسة الايرانية العثمانية يقول :

وصل سفراء المانيا وبولندا وموسكو الى ايران وطلبوا من الشاه سليمان أن يتعاون مع دولهم ضد العثمانيين ، واحضر المطران دى ابارنل (١) رسالة من امبراطوره الى شاه ايران في هذا الصدد فرد عليه اعتماد الدولة الصدر الاعظم ان الشاه لارغبة له في الاتفاق مع امبراطور المانيا لأنه عندما جلس على العرش اقترح على ملوك اوربا أن يتحدوا معه ضد العثمانيين لكن الامبراطور وخلفاءه لم يردوا عليه والآن فقد تصالح الشاه مع السلطان العثماني ووعد بعدم اثارة خلافات معه . فقال المطران ان الاتراك لم يتمسكوا بوعودهم ابدا وغالبا ماينقضونها فقالوا له لايليق بشاه ايران أن يجارى سوء عهد السلطان العثماني ويفعل مثله .

فقال سفير بولندا ان الفرصة مواتية لاسترداد البصرة وبغداد وارضروم فقالوا له ان هذه المدن ليست أكثر أهمية من مدينة كامينيتك (٢) التي كان العثمانيون قد استولوا عليها من البولنديين .

---

(١) 'd' abarnel

(٢) Kaminietk

وقال سفير موسكو أن السلطان العثماني قد انشغل في أوربا مع أعدائه المسيحيين ويمكن بسهولة القضاء على دولته فقالوا له أن ايران ترغب في هزيمة السلطان العثماني واضعافه ولكنها لا ترغب في القضاء عليه كلية لان الدولة العثمانية تقوم كسد بين الدول الاوربية وايران ، وهي على اية حال تشترك مع ايران في الدين .

وفي اليوم الاخير للقاء السفراء بالشاه كرروا نفس مطالبهم ، فذكر لهم اعتماد الدولة صراحة « اننا لن نضع عصا في خلية النحل ، لاننا لو قمنا بمحاربة السلطان العثماني فان التتار والاوزبك والمغول(*) ايضا سوف يهاجموننا بسبب الوحدة المذهبية بينهم وبين الاتـــراك العثمانيين (١) » .

وقد وصلت الى ايدينا رسالة من الشاه سليمان تؤيد اتجاهه للسلم وحذر حكومة ايران من الاتحاد مع ملوك اوربا ضد العثمانيين ومما جاء بها « اما ما اشرتم اليه من الحـرب مع سـلطان الـــروم (العثمانيين) فقد ذكرنا مرارا لملوك الفرنج والروس أن أسرتنا ذات التقاليد العادلة قد تصالحت مع ملوك تلك الدولة ولم يحدث منهم أي سوء خلال تلك المدة الطويلة ، ولهذا فان الاقدام على حربهم في هذا الوقت يعد معصية لرضا الله الواحد ومخالفة لأقوال الرسول صلى الله عليه وسلم » .

(*) يقصد بالتتار والاوزبك سكان شرق خراسان والتركستان وما وراء النهر أما المغول فهم ملوك الهند انذاك وكانوا جميعا من أهل السنة الاعاندر من الشيعة .

(١) رحلة سانسون المبشر المسيحي الذى جاء الى ايران سنة ١٦٨٣ م .

الفهرست

رقم الايداع بدار الكتب المصرية
١٥٩٢ / ١٩٨٩م

دار الثقافة للطباعة والنشر
٢١ شارع كامل صدقي بالفجالة
ت ٩١٦٠٧٦ ـ القاهرة